أحمد بن يوسف
الكاتب الوزير

دراسة أسلوبية فى آثاره النثرية

التحميدات – الديوانيات – التوقيعات – الرسائل

تأليف

دكتور على إبراهيم أبو زيد

أستاذ الأدب ورئيس قسم اللغة العربية

بكلية الآداب – جامعة المنصورة

الطبعة الأولى

١٩٩٧

دار المعارف

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ شارع كـورنيش النيـل – القـاهـرة ج . م . ع .

obeikandl.com

إهـــداء

إلى رُوح العالِم الأديب الإنْسَان الأستاذ
الدكتور محمد مصطفى هَدّارة مع لَمسة
وَفَاءٍ ، ضَلَّت طريقها فى هذا الزمـان .

على أبو زيد

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لا تزال الدعوة إلى إهتمام الباحثين بفنون النثر العربى والكُتَّاب قدر الاهتمام بالشعر وأعلامه قائمة ، ولا يخفى على القائمين على أمور التراث الأدبى ما يحويه هذا التراث من كنوز تحمل قيما فكرية وفنية ، وتُعدَّ بعض نصوص النثر الأدبى وثائق تاريخية وسياسية تمدُّ المؤرخ والباحث بمعلومات مهمة ونافعة ، إضافة إلى تلك القيم الفنية التى ترفد درس الأدب بروافد لا ينكر أثرها .

وأحمد بن يوسف من الكُتَّاب الذين تردد ذكرهم كثيرًا فى مصادر التراث ومراجع الأدب والتاريخ ، وتعود أهمية الكاتب إلى أهمية الفترة التى كان يُعاصرها ، وسجَّل بعض أحداثها فى زمن الخليفة المأمون ، والفتنة التى وقعت بين الأمين والمأمون ، كما تعود أهمية البحث فى تراث هذا الكاتب إلى طبيعة العصر العباسى الأول ، والنهضة التى لحقت بالنثر الفنى ، ولمَّا كان أحمد بن يوسف إسمًا لكثير من مشاهير العرب فى فنون مختلفة وفى عصور متتالية ، لزم التنويه إلى ذلك ودراسة تلك الشخصية لإظهار دورها فى حركة النثر الأدبى ، وتحديد معالمها فى النهج الفنى .

وإذا كُنَّا قد أفردنا دراستين سابقتين لكاتبين آخرين ، وهما أبو الفرج البيغاء ، وابن أبى الشخباء ، فإن أحمد بن يوسف ، طبيعة دراسته تختلف عن طبيعة دراسة الكاتبين الآخرين ، لاختلاف العصر ، واختلاف البيئة ، واختلاف العطاء الفنى ، واختلاف نظرة الدرس إلى كل كاتب . فقد كان البحث فى البيغاء يهدف إلى إظهار جوانب النثر الفنى المتعددة ، لذلك الأديب الذى عُرف بكونه شاعرًا ولم تُسلَّط الدراسات على نثره مع أنه من أبرز كتاب فترة مهمة من فترات تاريخ الدولة الإسلامية فى عصر الحمدانيين ، وكان البحث مع ابن أبى الشخباء يدور حول الرسائل الإخوانية لذلك الكاتب الذى عاش فى العصر المستنصرى ويُعَّد أستاذًا للقاضى الفاضل ، أما كاتبنا أحمد بن يوسف فيتناوله البحث من نواح ثلاث :

الأولى : التعريف بالكاتب من خلال ما روى عنه ، وما سُجِّل من آثاره ، ومن رسائله الإخوانية ، ومن بديهيات ، وما شهد به الآخرون ، حتى يُعدُّ التنوير بالكاتب مسانداً لطبيعة البحث .

والثانية : محاولة استنباط بعض الظواهر الأسلوبية أو السمات الفنية التى ترددت كثيرًا فى مطولات أحمد بن يوسف وهى التحميدات والديوانيات من خلال رسالة الشكر والتحميدات

التى كتبها للمأمون على لسان ابن سهل ورسالة الخميس التى كتبها إلى شيعة أهل خراسان على لسان المأمون ، مع تسليط الضوء على طبيعة المطوّلات وأظهر مابها من ظواهر أسلوبية تتعلّق بتركيب الرسائل أو بلغتها وعباراتها وأصواتها .

والثالثة : دراسة فنية لآثاره النثرية الأخرى غير المطولة وهى التوقيعات والرقاع والحكم والرسائل ، وتناولها البحث من حيث الصورة واللغة كما قامت الدراسة بتحليل شخصية أحمد بن يوسف الكاتب على ضوء آثاره النثرية كما يشمل البحث أيضا النصوص النثرية للكاتب الوزير .

والله نسأل التوفيق والسداد

على إبراهيم أبو زيد

٩ يناير ١٩٩٧

المنصورة

obeikandl.com

القسم الأول

أحمد بن يوسف الكاتب

(ت ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م)

obeikandl.com

أحمد بن يوسف الكاتب[1]

(ت ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م)

أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبيح ، المعروف بالكاتب ، وأصله من الكوفة ، ويكنَّى أبا جعفر[٢] ، وأخوه القاسم بن يوسف ، يدَّعى أنه من بنى عجل ، ولم يدَّع أحمد ذلك[٣] ، ويقول المرزبانى أنه كان مولىً لبنى عجل ، ومنازلهم بسواد الكوفه[٤]، ويذكر البغدادى أنه مولى بنى عجل[٥] .

وفى زهر الآداب يذكر الحصرى أنه مولى عجلَ بن لجيم[٦] .

ويذكر الصولى أن « جدَّه من موالى مصر ، أسلم ، ولما اشتراه السَّرى العجلى ،وأعتقه زال عنه الرق ، وبقى بينهما الولاء[٧] » ويضيف محمد كرد على أن الكاتب « من قرية من قرى الكوفة تُعرف بَريًّا ، يقال أن أبا صبيح منها ، وأنه مولى إسلام »[٨] .

وقد يختلط الأمر حين يذكر اسم أحمد بن يوسف فى مصادر الأدب والتاريخ كثيرًا ، وينسب إلى فنون متنوعة ، ولكن صفة الكاتب هى الفارق الذى يُعْرَّف به أحمد بن يوسف

---

(١) يراجع فى ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره : كتاب الأوراق للصولى قسم الشعراء : ص ١٤٣ ، وكتاب بغداد لطيفور ، وتاريخ بغداد للبغدادى ٥/ ٢٢٦ ، والأغانى جـ ٢٣ ص ١١٨ ، وزهرالآداب جـ٢ ص ١٣٠ ، والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦٩ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٦١/٥ والعقد الفريد ١٤٥/٢ ، وأمراء البيان لمحمد كرد على ١٩٥ ، وعصر المأمون لمحمد فريد رفاعى جـ ١ ص٤٣٤ ، وجمهرة رسائل العرب لمحمد زكى صفوت ، والأعلام للزركلى ٢٧١/١ ، والعصر العباسى الأول د . شوقى ضيف ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ، والأدب فى موكب الحضارة الإسلامية - كتاب النثر - للدكتور الشكعة . وبلاغة الكتّاب لمحمد نبيه حجاب .

(٢) أبو الفرج الأصفهانى - الأغانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ - جـ ٢٣ - ص ١١٨ .

(٣) ياقوت - معجم الأدباء - دار الفكر للطباعة والنشر - الطبعة الثالثة - جـ ٥ - ص ١٦١.

(٤) المصدر السابق ص ١٦١ .

(٥) الخطيب البغدادى - تاريخ بغداد أو مدينة السلام - المكتبة السلفية - المدينة المنورة جـ ٥/ ص ٢١٦ .

(٦) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمرة الألباب - عيسى الحلبى - الطبعة الثانية جـ ١ ص ٤٣٥.

(٧) محمد نبيه حجاب - بلاغة الكتّاب فى العصر العباسى - مكة - الثانية - ١٩٨٦ - ص ٢٣٠.

(٨) محمد كرد على : أمراء البيان - دار الأمانة - ص ١٥٩.

بين عشرات من الذين يحملون ذات الاسم ، كما أن ملازمة المأمون ، وتولى وزارته ورسالة الخميس كلها قرائن تبعد الغموض وتزيل اللبس عن شخصية أحمد بن يوسف [1] .

وتجمع المصادر على اهتمام أهله بتربيته وتأديبه ، إضافة إلى اشتغال معظم أفراد أسرته بالكتابة فى الدواوين ، ويرى ياقوت أن « يوسف أبو أحمد كان يُكنىَّ أبا القاسم ، وكان يكتب لعبد الله بن على عم المنصور ، وله شعر حسن وبلاغة ، وكان أحمد وأخوه القاسم شاعرين ، أديبين ، وأولادهما جميعًا أهل أدب ، يطلبون الشعر والبلاغة ، حكى عن المأمون وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلى بن سليمان الأخفش »[2] .

ويروى الأصفهانى لأخيه القاسم بن يوسف أبو محمد شعرًا فى رثاء البهائم ويقول عنه « أنه كان شاعرًا مليحًا ، قد جعل وكده فى مدح البهائم ومراثيها فاستغرق أكثر شعره »[3] .

ويذكر له شعر فى رثاء الشاهمرك[4] ، وفى المِسُّور وفى القمرى[5] .

ويؤكد محمد كرد على فى أمراء البيان عراقة أسرة أحمد بن يوسف فى الكتابة ، ويرى أن الكاتب ، مُعرّق فى الكتابة ، وأن أباه وجده من المجوّدين فى الإنشاء « لأنهما كتبا لعظماء فى عهد عظمة الأمة ، وكان يعقوب بن داود خاصة كاتبا ممتازًا بين الكُتَّاب معدودًا فى الدرجة الأولى ، ومثله لا يرتضى لكتابته إلا من كان فى صناعته آية ، ويرى أن أحمد بن يوسف الكاتب « نشأ فى أرقى بيئة يعيش فيها ناشئ ، ولعله عرف وهو صبى عن هذه الصناعة صناعة الكتابة ما لا يتيسَّر لغيره ممن قضوا السنين يمارسونها ، عرف ما يصلح فى معاناة أمور الملك والسلطان »[6] .

ويُضيف د . شوقى ضيف أهم ما جعل أحمد بن يوسف كاتبًا مشهورا هو تأديبه على يد أبيه وتوجيهه إلى اتقان فنون صناعة الكتابة الديوانية فقد عنى الأب بتأديب ابنه عناية واسعة « كى يصلح للعمل فى الدواوين على شاكلته فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعرا يحسن

---

(١) رصد صاحب الأعلام مَنْ اسمه أحمد بن يوسف من المشاهير والمعروفين ومنهم أحمد بن يوسف الأزدى من رجال الحديث ٢٦٤ هـ ، وأحمد بن يوسف المنازى شاعر ٤٣٧ هـ ، وأحمد بن يوسف المعروف بالأكحل ٤١٧ هـ ، أحمد بن يوسف المستعين رابع ملوك الدولة بالطوائف بالأندلس . أحمد بن يوسف التيفاشى ٦٥١ هـ قاض ، أحمد بن يوسف بن مزكون ٦٣٠ هـ مؤرخ ، أحمد بن يوسف اللغوى ٦٩١ هـ ، أحمد بن يوسف قاضى القضاه ٨٩٤ هـ ، وغيرهم كثيرون . الأعلام . جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٢) ياقوت الحموى – معجم الأدباء – جـ ٥ – الثالثة – دار الفكر – ص ١٦٢ ، ص ١٦٣ .

(٣) الأصفهانى – الأغانى – جـ ٢٣ ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(٤) الشاهمرك : الفتى من الدجاج قبل أن يبيض بأيام وهو معرب الشاه مرغك ملك الكتكوت .

(٥) القمرى : ضرب من الحمام .

(٦) د . محمد كرد على : أمراء البيان – دار الأمانة ص ١٩٥ ، ص ١٩٦ .

نظم الشعر وصوغه ، كما أخذه بثقافة إسلامية حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة ، وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضا بثقافة رياضية واسعة تعينه فى الخراج وشئونه ، ولا بد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بآداب السياسة ، وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولابد أن يكون أيضا – قد أخذه بآداب اللياقة يحسن مخاطبة الخلفاء والوزراء ، وحتى الخط نراه يوجهه إلى إتقانه ، مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحُسن خطه »[1] .

ويكرر صاحب نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول ، ماذكره د . شوقى ضيف فى تهيئة الأسباب لإعداد أحمد بن يوسف الإعداد الفنى الخاص بالكتابة فى الدواوين[2] .

ويُعلِّق د . الشكعة على ظاهرة كثرة المشتغلين بالأدب فى أسرة أحمد بن يوسف بأنها « ظاهرة ثقافية رائعة ، تلك التى تجعل أفراد الأسرة الواحدة يقبلون على الأدب ويتخصَّصون فيه ، ويتألقون جميعا فى سماه »[3] .

إن أسرة بنى صبيح ، أسرة الكاتب أحمد بن يوسف من الأُسَر الأدبية التى يشتغل أكثر من فردٍ فيها بالأدب ، ويعمل بالكتابة فى الدواوين مثل أسرة البرامكة . وأسرة الصوليين وأسرة الفضل والحسن بن سهل ، وبنى المُدبِّر . ويعُيد الفكرة ذاتها صاحب بلاغة الكتاب مشيرًا إلى عمل جد أحمد بن يوسف لعبد الله بن على عم المنصور ثم عمل ابنه يوسف لوزير المهدى يعقوب بن داود ، حتى صار كاتبنا وهو أحمد بن يوسف « يتقلب منذ صباه فى مهاد البلاغة ، فيرتشف أفاويقها طفلاً ، ويستدر أخلاقها يافعا »[4] .

أما عن أخلاقيات أحمد بن يوسف ، فإن رسائله الإخوانية توضح أظهر هذه السمات ، كما أن طريقة الكاتب فى تعامله مع كبار القوم ، فضلا عن منهجه فى الحياة والاستمتاع بها ، وعلاقته بإخوانه ، كل ذلك من مصادر التعرف على سمات الكاتب الأخلاقية .

لقد كان الكاتب يستمتع بحياته ، صاحب شراب وغناء ، وكان له مجلس ، يتردد عليه الندامى ، وكان يقع فى هذا المجلس طرف ونوادر ، وكان للكاتب فيه أقوال ، ذاعت واشتهرت ، نثرًا ونظمًا ، وبدائع بدائه .

ويروى الأصفهانى وياقوت والحصرى القيروانى وغيرهم ، بعض طُرف الكاتب ونوادره ، وأقواله التى تتصف بالذكاء واللباقة والبداهة ، وهى من أبرز ملامح الكاتب الشخصية الأساسية .

---

(١) د . شوقى ضيف – العصر العباسى الأول – دار المعارف – ص ٥٤١ .

(٢) د . إبراهيم سلمان الكردى : نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول : الكويت – ١٩٨٣ شركة كاظمة – ص ٢٠٥ .

(٣) د . مصطفى الشكعة – الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية كتاب النثر – ص ٣١٢ .

(٤) محمد نبيه حجاب – بلاغة الكتّاب فى العصر العباسى . الثانية – ١٩٨٦ – مكة – ص ٢٣٠

وحين مات كاتب المأمون أحمد بن أبى خالد الأحول ، استعان المأمون برأى الحسن بن سهل فيمن يخلفه فأشار بأحمد بن يوسف « إن صبر على الخدمة ، وجفا لذته قليلاً ، فهو أحبهما إلىَّ ، لأنه أعرق فى الكتابة ، وأحسنها بلاغة وأكثر علما »[١] .

ويرى البغدادى أن أحمد بن يوسف « من أفاضل كتّاب المأمون ، وأذكاهم وأفطنهم وأجمعهم للمحاسن ، وكان جيد الكلام ، فصيح اللسان ، حسنَ اللفظ ، مليح الخط »[٢] .

وفى بعض النصوص الضائعة من كتاب الوزراء والكتّاب ما يؤكد فصاحة أحمد بن يوسف وقوة بداهته .[٣] .

ويذكر صاحب أمراء البيان أن الكاتب عُرف « بُحب المرح ، وتعاطى الشراب والأنس إلى القينات ، والإفتتان بالجمال ، حيث كان ، واشتهر باشتهاره فى شهواته ، وأنه مسترق بلذاته »[٤] .

كل هذا يؤكد إقبال الكاتب على الحياة ، وأنسه ومرحه ، وعلاقاته بالجوارى وجاء فى النصوص الضائعة قول لأحمد بن سلمة الكاتب حول اجتماعه مع عمرو بن مسعده وأحمد بن يوسف » فى مجلس فيه قينه ، فغنّت :

أناس مضـوا كانوا إذا ذكر الأُلى مضوا قبلهم صلّوا عليهم وسلّموا

فقال عمرو : هو والله حسن ، إلا أنه مفرد ، فأضيفوا إليه بيتًا آخر فهو أحسن له وأطول للقافية ، وأطوع للغناء فيه ، فقال أحمد بن يوسف بديهًا :

وما نحـن إلا مثلـهم غـير أننـا أقمنا قليـلاً بعدهـم وتقدّمـوا

فغنت بهما المغنية ، فطربوا وشربوا عليهما بقية يومهم »[٥] .

وبداهة الكاتب تدل على ذكائه وعبقريته الواسعة وسعة إطلاعه ، وحسن تخلصه ، وقد أفردت المصارد فصولاً عن الأجوبة المُسكتة ، وهى أجوبة تتسم بالبلاغة والبداهة .

وقد أخرجت البداهة الكاتب من بعض المآزق ، ولم تكن بداهته فى قول الغزل أو فى مجالس الغناء فحسب بل ظهرت فى الدفاع عن نفسه أمام المأمون كما جاء فى كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك « فقد تولى أحمد بن يوسف صدقات البصرة ، فجار فيها وظلم وكثر الشاكى

---

(١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء : جـ ٥ : ص ١٦٣ .
(٢) الخطيب البغدادى – تاريخ بغداد – جـ ٥ – ص ٢١٦ .
(٣) الجهشيارى – (أحمد بن عبود) – نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتّاب . ص ٤٨ .
(٤) محمد كرد على – أمراء البيان – ص ١٩٦ .
(٥) الجهشيارى – نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب – دار الكتاب اللبنانى – ص ٤٨ .

له والداعى عليه ، ووافى باب المؤمنين زهاء خمسين رجلا من جُلَّة البصريين ، فعزله المأمون وجلس لهم مجلسًا خاصًا ، وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم ، فكان مما حفظ من كلامه ، أن قال : يا أمير المؤمنين ، لو أنَّ أحدًا ممن ولى الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله ﷺ ، وقال عز وجل : ﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾[1] فأعجب المأمون لجوابه واستجزل مقاله ، وخلى سبيله .[2] .

ويروى الحصرى القيروانى إحدى بدائه أحمد بن يوسف حين كان جالسًا بين يدى المأمون فسأل المأمون عن السكين ، فناوله أحمد السكين ، وقد أمسك بنصابها ، وأشار إليها بالحد ، فنظر إليه المأمون نظر منكر ، فقال : لعل أمير المؤمنين أنكر علىَّ أخذى النصاب ، وإشارتى إليه بالحد ، وإنَّما تفاءلت بذلك أن يكون له الحد على أعدائه ، فعجب المأمون من سرعة فطنته ولطيف جوابه »[3] .

وظاهرة البداهة تستحق الدرس ، للبحث فى دوافعها وأعلامها ، وتحليل مواقفها ، وإظهار السِّمات الفكرية والجمالية لتلك البدائه البديعة شعرًا ونثرًا .

وكان الرواة يهتمون بتسجيلها بدرجة تفوق تسجيل الأخبار الطوال ، وتتداول على الألسن ، وتحفظ لقصرها وبلاغتها ، وتضرب مضرب الأمثال السائدة ، وكانت تزخر ببلاغة مكثفة ، قد يُفتقد إليها فى النصوص الكاملة . وكان الكاتب يعجب ببدائه غيره ، وهى تدل على سعة العلم ، وثراء المحفوظ ، والذكاء والنباهة والقدرة على الاقتباس من القرآن والحديث وغيرها .

وقد ورد قول لأبى العيناء ، قال فيه لأحمد بن داود « إنَّ قومًا تظافروا علىَّ ، قال : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ قال : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ قلتُ : إن للقوم مكرًا ، قال : ﴿ ولا يحيقُ المكر السيئ إلا بأهله﴾ ، قال أبو العيناء : فحدثت بهذا الحديث أحمد بن يوسف الكاتب ، فقال : ما يرى ابن أبى داود إلا أن القرآن أنزل عليه »[4] .

ويروى صاحب زهر الآداب ، ما يؤكد بداهة أحمد بن يوسف ، وإعجاب المأمون بها ، حين سأله عن رأيه فى غسَّان بن عباد ، وكانت وقعت بين الكاتب وغسَّان بعض الهنات بحضرة المأمون ، وأجاب بن يوسف بداهة « هو يا أمير المؤمنين رجل محاسنه أكثر من مساويه ، لا يتطرف به أمر إلا تقدَّم فيه ، ومهما تُخوّف عليه فإنه لن يأتى أمرًا يعتذر منه ، لأنه قسَّم

---

(١) آية ٥٨ – التوبة .

(٢) أحمد بن عبد ربه – العقد الفريد – لجنة التأليف والترجمة – ١٩٧٣ – حـ ٢ – ص ١٤٥ .

(٣) الحصرى القيروانى – زهر الآداب – جـ ١ – ص ٤٦ .

(٤) الحصرى القيروانى – زهر الآداب وثمر الألباب – الطبعة الثانية – البابى الحلبى – مصر – الجزء الأول – ص٤٣٤ ، ص ٤٣٥ .

أيامه بين أفعال الفضل ، فجعل لكل خلق توبة ، وإذا نظرت فى أمره لم تدر أى حالاته أعجب ؟ما هداه إليه عقله ، أم ما اكتسبه بأدبه ؟ فقال له المأمون لقد مدحتك على سوء رأيك فيه ؟ قال : لأنى فى أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كفى ثمنـــا لمـــا أسـديت أنى نصحتك فى الصديق وفى عدائى
وإنى حـين تنـــدبنى لأمـــر يكون هـواك أغلب من هـوائى

فأعجب المأمون ذلك منه ، وشكر غسَّان بن عباد له ، وتأكدت الحال بينهما ويؤكد محمد كرد على فى أمراء البيان هذه السمة ، ويوضح دور البداهة فى حياة الكاتب ، وكانت البداهة تُعجب المأمون « فإن شدة العارضة ، وقوة البديهة ، يظهر أثرهما فى تدبير الملك وما يعرف للخليفة من شؤون تحتاج إلى أن يبتُّ فيها حالا من جواب على سؤال ، وإعطاء رأى فى معضلة ، فى ساعة يكون فيها الكاتب قد عاوده السأم والتعب واضطراب النفس ؛ وموت الخاطر »[1] .

ملمح آخر من ملامح شخصية أحمد بن يوسف الكاتب ، وهو إقباله على الحياة ، وتمتعه بملذات الدنيا ، وغشيانه مجالس المجون ، وحبه للغناء ، وتعلقه بالجوارى ، ورُوت طرائف ونوادر حول هذا الأمر ، وهو أمر قد يُعين دارس أدب الكاتب ، فى عصر ازدهر فيه الغناء ، وتطورت أساليب الموسيقى وزخرت مصادر الأدب بأخبار المغنين والجوارى والعشق والعشاق ، ولم يكن الخلفاء بعيدين عن هذا التيار .

ورويت لأحمد بن يوسف رسائل إخوانية ، كثيرة وقصيرة ، أمدَّها هذا التيار الماجن اللاهى ، ونُسبت إليه أقوال ، لا تقل شأنا عن رسائله ، فهى تحمل طوابعه الفنية ، وطرائق تفكيره ، ونهج أسلوبه ، وتُحدِّد منهاجه فى الحياة ، وكيفية التعامل فيها .

والأديب الذى يُقبل على الحياة ، وينهل من مصادر اللذة ، تتأثر إبداعاته الفنية بهذا اللون . وكذلك الأديب الذى يعتزل هذا التيار ، ويبدو ذلك فى فنه وفى آثاره الأدبية ، وفى منهجه فى معالجة الأمور .

ويظهر أثر الجوارى فى أدب أحمد بن يوسف فى أمرين : أولهما : نظمه الشعر ، ثانيهما : آراؤه فى الغناء .

وأحمد بن يوسف شأنه شأن معظم الكُتَّاب فى عصره ، له شعر يروى ، وشعر الكتّاب يحمل سمات فنية خاصة ، فى الصوغ والمضمون ، ويدور شعر أحمد الكاتب حول وصف جمال الجوارى ، والتغزل فيهن ، وحول الغناء والإعجاب به ، كما دار فى هيئة أقوال عظيمة

(١) محمد كرد على – أمراء البيان ص ٢٠٢ .

أخذت غالبا قالب التعبير المأثور أو النمط الحكمى .

ويروى الأصفهانى « تبنى أحمد بن يوسف جارية للمأمون تدعى مؤنسة ، أراد المأمون أن يُسافر ويحملها ، فكتب إليه أحمد بن يوسف شعرًا على لسانها ، وأمر بعض المغنين فغناه به ، فلما سمعه ، وقرأ الكتاب ، أمر بإخراجها إليه ، وهو : قد كان عتبك مرةً مكتومًا »[1] .

يـا سيد أفقده أغرى بى الحُزْنا ... لاذقتُ بعدك لا نومـا ولا وَسَنَا
لازلت بعدك مطويا على حرف ... أشنا المقام وأشنا الأهل والوطـنا
ولا التلذّذات بكأس فى منادمـة ... مذ قيـل إن عبد الله قد ظعنـا
ولا أرى حسـنا تبـدو محاسنـة ... إلا تذكرتُ شوقًا وجهك الحسنا

وغناه اسحق الموصلى ، فاستحسن المأمون ذلك ، وقال : لمن هذا الشعر ؟ فقال أحمد بن يوسف : لمؤنسة يا سيدى تترضاك ، وتشكو البعد منك ، فركب من ساعته ، حتى ترضاها ورضى عنها[2] .

ويعجب أحمد بن يوسف بقينة فى مجلس ، فيكتب إلى صاحبة المنزل :

أنـا رهـن المنـايا ... بين إبـرام ونقـض
من هو ظـبى غـرير ... مـونق المنـظر غـضّ
ليتهـا جـادت بتقبيـل ... لخديهـا وعَـض
إن عجزتم عـن شراهـا ... لـى بفـرض أو بقرض
فتمـنوا لـى جميعـا ... أنهـا قبر لبعـض..[3]

ويعتب الكاتب على جارية ، فيقول لها :

يا واعظ النـاس غير متعـظ ... نفسك طهِّر أولا فلا تُلم[4]

ويطلب فى بعض شعره أن يُهيئ له صديقه مجلسا للمجون ، ليتبادلا كئوس الشراب ، فى يوم ، يبدو الغيم فيه .

أرى غيمـا تؤلفـه جـنوبُ ... وأحسـبه سيأتينـا بهطْـلِ
فوجّـه الرأى أن تدعو برطل ... فتشـربه وتدعـو لى برطل[5]

---

(١) الأغانى : جـ ٢٣ ، ص ١١٩ .
(٢) الأغانى : جـ . ص ١٢ ، ص ١٢١ ، ومعجم الأدباء لياقوت . جـ ٥جـ٣١ . ص ١٧٥ ، ص ١٧٦ .
(٣) الأغانى : جـ ٢٣ . ص ١٢٠ ، ص ١٢١ .
(٤) الأغانى : جـ ٢٣ . ص ١١٩ .
(٥) الأغانى : جـ ٢٣ . ص ١٢١ .

ويُسجل الأصفهانى عدة أصوات لأحمد بن يوسف الكاتب ، تتراوح بين البيتين أو ثلاثة أبياتٍ ، وتخضع لمقاييس شعر الغناء المتفق عليها : ومنها :

كم ليلة فيك لا صباح لها ... أحببتُها قابضا على كبدى
قد غُصَّتُ العين بالدموع وقد ... وضعت خدى على بنان يدى
كأن قلبى إذا ذكرتم ... فريسةٌ بين ساعِدَىْ أسدِ[1]

وتذهب أخبار المجون عند الكاتب إلى أن تصل إلى عشق الذكور ، فقد روى له شعره فى محمد بن سعيد وهو منَ أولاد الكتّاب بُسَّر مَنْ رأى ، وكان أحمد يعشقه ، فقال فيه :

صدَّ عنى محمد بن سعيد ... أحسن العالمين ثانى جيد
ليس من جفوة يصدَّ ولكن ... يتجنى لِحُسنه فى الصدود[2]

ويذكر صاحب معجم الأدباء أخبارًا عن مجون أحمد بن يوسف الكاتب ، وعن عشقه للذكور ، ويروى بعض شعره ، وبعض أقواله .

ويتهافت الندماء على مجالس أحمد بن يوسف ، ومعظمهم من الكُتَّاب والشعراء ، ويستدعى بعضهم الكاتب ليجالسه ، ويرى فى غيابه خسارة عظيمة ، لا يتم السرور إلا بحضوره ، ويهُمنا فى هذا المجال ما يكتبه الأصدقاء للكاتب ، من مكاتبات أدبية ، يدعونه إلى منادمتهم وكان الكاتب يرد عليهم .

ويقول صديقٌ للكاتب « يومنا ظريف النَّواحى ، رقيق الحواشى ، قد رعدت سماؤه ، وبرقتْ وحنَّت وارجحنَّت ، وأنت قطب السرور ، ونظام الأمور ، فلا تُفردنا فيك فَنَقِلَّ ، ولا تنفرد عَنا فَنَزِلَّ ، فإن المرء بأخيه كثير ، وبمساعدته جدير »[3]

ويروى فى معجم الأدباء أن أحمد بن يوسف كان يسقط السقطة بعد السقطة ، فيتلف نفسه فى بعض سقطاته ، ومن هذه الهفوات والسقطات العلاقة التى بينه وبين موسى بن عبد الملك « فقد كان يعبث به ويعشقه[4]. وله فيه شعر يصور حسنه وجماله وتعلقه به .

وفى الإمتاع والمؤانسة[5] حكاية طويلة حول مجلس للكاتب ، ومعه كتاب منهم أحمد بن أبى خالد الذى يحب الطعام ويفضّله على الغناء ، « أما أنا فالطعام الرقيق أعجب إلى من الغناء « فقدموا إليه الطعام ، فشُغل عن ذم الغناء » .

---

(١) الأغانى : جـ٢٣ . ص ١٢١ .
(٢) الأغانى : جـ ٢٣ ، ص١٢١ .
(٣) يا قوت – معجم الأدباء – جـ ٥ . ص ١٧ .
(٤) المصدر السابق . جـ ٥ . ص ١٧٧ .
(٥) أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة – ت أحمد أمين وأحمد الزين – بيروت – جـ ٣ ص٨١ .

وفى ثمار القلوب للثعالبى ، قول يعجب فيه أحمد بن يوسف الكاتب بغناء المهدى قال فيه : « القلوب من غنائه على خطر ، فكيف الجيوب »[1] .

ويذكر صاحب زهر الآداب قولا لأحمد بن يوسف يذم فيه مغن غنى بحضرته ولم يكن محسنا ، فلم ينصتوا له ، وتحدثوا مع غنائه ، فغضب المغنى ، فقال فيه أحمد بن يوسف : « أنت عافاك الله تحمِّل الأسماع نقلاً ؟ والقلوب مللا ، والأعين قباحة ، والأنف نتانة ، ثم تقول : اسمعوا منى ، وأنصتوا إلىَّ ، هذا إذا كانت أفهامنا مقفلة ، وآذاننا صدئة ، فإما رضيت بالعفو منَّا ، وإلا قمت مذمومًا عنا »[2] .

فلم ينسَ ابن يوسف الكاتب أدواته الفنية ، فى تعبيره عن مواقف كثيرة تمر به فى حياته ، وفى مجونه ، وقد اتسمت جميعها بالبداهة والذكاء ، وخفة الظل ، والإيجاز والصور المحكمة ، والسخرية اللاذعة ، فى لفظ سهل ، بعيد عن الغموض والتعقيد ، مما جعلها أشبه بالأقوال السائدة التى تتبارى مصادر الأدب فى حفظها .

الكاتب مع الشعر والشعراء

عُرف أحمد بن يوسف كاتبًا ، ولم يُعرف شاعراً ، وكان للشعر فى حياته نصيب . ولكنه بسيط قياسًا إلى نثره . وقد سجلت بعض المصادر بعض شعره . فورد فى الأغانى ومعجم الأدباء وزهر الآداب ، وأغفلت مصادر أخرى شعره ، واهتمت برسائله . والشعر فى حياة أحمد الكاتب ظاهرة طبيعية ، عُرف به غيره من الكتّاب . وأشارت بعض الدراسات الحديثة إلى الشعر فى حياة أحمد الكاتب ، وهى إشارات بسيطة ، لا تتناسب مع حجم الشعر الذى نُسب إليه ، ومنها ما يذكره محمد كرد على عن أحمد وأخيه القاسم « فقد كانا شاعرين أديبين ، وأولادهما جميعا أهل أدب ، يطلبون الشعر والبلاغة »[3] وجعل د . شوقى ضيف الشعر من أسس تقويم وتدريب الكاتب كى يصلح للعمل فى الدواوين ، ولهذا قال أصحاب مصادر الأدب والنقد والكتابة قديما ، فقد أخذه أبوه « بثقافة عربية دقيقة حتى غدا يحسن نظم الشعر وصوغة »[4] . وذكر د . الشكعة أن أحمد الكاتب « لم يكن وزيرًا وكاتبًا » وحسب ، وإنما كان له مشاركة فى الشعر على عادة الكتّاب جميعا ، الذين كانوا يجعلون من قول الشعر

---

(١) الثعالبى النيسابورى – ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب – ت . محمد أبو الفضل إبراهيم . ط. دار المعارف – ١٩٨٥ – ص ١٥٤

(٢) الحصرى القيروانى – زهر الآداب – ت . على محمد البجاوى – عيسى الحلبى – جـ١ – ص ٤٣٨

(٣) محمد كرد على – أمراء البيان – ص ١٩٥

(٤) د . شوقى ضيف – العصر العباسى الأول – ص ٥٤١

عنصرا مكملاً لجوانب أدبهم وثقافتهم وإبداعهم ، ولأحمد شعر غير قليل ، بعضه حسن »[1] .

ويتصف شعر أحمد بن يوسف الكاتب بعدة أمور منها :

– ما يتعلق بالمضامين ، حيث تدور معظمها فى إطار الإخوانيات ، وما كان يفرضه المجلس من مداعبات ، ومطارحات شعرية ، وأجوبة مسكتة ، تنمُّ عن ذكاء وبداهة ، وكان معظم شعره يدور حول الحُسن والجمال – والعشق والهيام والغناء .

وله شعر طريف يحمل روح المداعبة ، رواه صاحب معجم الأدباء[2] وصاحب تاريخ بغداد[3] .. قال لبعض إخوانه من الكتَّاب ، مات له ببغاء ، وله أخ ضعيف ، فكتب إليه .

أنت تبقى ونحن طُرًّا فِداكا ... أحَسَن اللهُ ذو الجلال عِزاكا
فلقد جلَّ خطبُ دهر أتانا ... بمقادير أتلفت ببَّغاكا
عجبًا للمنون كيف أتتها ... وتخطَّتْ عبد الحميد أخاك
كان عبد الحميد أصلح للمو ... ت من الببَّغاء وأولى بذاكا
شملتنا المصيبات جميعا ... فَقدُنا هذه ورؤية ذاكا[4]

وشعر الاستطراف ، والرسائل الإمتاعية ، جانبان من جوانب الأدب الفكه فى عصر أحمد ابن يوسف وقبل عصره وبعده ، فهناك رثاء فى بقرة ، وتعزية فى جمل ورسائل تهنئة فى زواج الأم ، وتهنئة بالمرض ، والعزل من الوظيفة .

ولأحمد بن يوسف رسائل يداعب فيها ، مثل التى أرسلها إلى إبراهيم بن المهدى ، وكان الكاتب أهداه كيس ملح ، فقال فى رسالته : « الثقة بك سهلت السبيل إليك ، فأهديت هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم »[5] .

ومن شعر أحمد فى الغزل والهيام قوله :

إذا ما التقينا والعيون نواظرٌ ... فألسُنتا حربٌ وأبصارنا سَلْمُ[6]

وغزل أحمد الكاتب ، بعيد عن اللفظ المفحش ، لا يخدش الحياء ، وهو غزل عفيف ، ليس فيه تعريض بإمرأة ، ولا ينم عن عاطفة خالصة ، ولا يدل على وجد حقيقى ، ولكنه

---

(١) الشكعة – الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية – كتاب النثر – ص ٣٤١ .
(٢) معجم الأدباء : جـ ٥ . ص ١٦٤ .
(٣) تاريخ بغداد – جـ ٥ . ص ٢١٧ .
(٤) معجم الأدباء : ١٦٤/٥ . ت بغداد ٢١٦/٥ ، ٢١٧ ، فوات الوفيات جـ ٢ . ص ٤٠ .
(٥) العقد الفريد – جـ . ص ٢٨٤ .
(٦) ياقوت – معجم الأدباء – ١٨٠/٥ وزهر الآداب . جـ ١ /٤٣٩ .

استجاب لمواقف الحياة ، وتلبية لدواعى الأنس والمجون .

واتسمت غزلياته بالغنائية حتى أن الأصفهانى أورد له أصواتا كثيرة ، منها ما غناه القاسم ابن زرزور وشادية وغيرهما ، وهى أصوات قصيرة رقيقة ، تلبى حاجات الطرب[1] .

ولأحمد بن يوسف أشعار فى الغـزل بالمذكـر تصور بعض انحـراف فى خُلقه ، وهو فيهـا يُساير جانبًا من جوانب تيارات المجون فى عصره ، وقد نظمها فى محمد بن سعيد الذى كان يكتب بين يديه ، وقد سـاءه أن يرى عارضه أخذ فى خده فأخذ رقعة وكتب فيها .

لحاك الله من شعـر وزادا ... كما ألْبَسَتْ عارضـهُ الخَدادَا
أغـرْتْ على تـوردُّ وجنتيـه ... وصُيِّرْتَ احمرارهمـا سَوادا[2]

وقد وظَّف الكاتب شعره فى تأكيد بعض الأفكار التى جاء بها فى رسائله ، فقد استعان بالنظم ليتم دوائر المعنى فى إخوانياته ، وكثيرا ما استغنى بالنظم عن النثر فى بعض الإخوانيات ، التى تتصف بالإيجاز ، خاصة ما كانت تشفع الهدايا إلى المأمون ، فقد نظم إليه مع هدية فى يوم نوروز[3] فقال :

على العـبد حَـقٌّ فهـو لأبد فاعلـه ... وإن عَظَّـمَ المـولى وجَّلـت فضـائلهُ
أم ترنـا نُهـدَى إلى الله مالـه ... وإن عنـه ذا غـنىً فهـو قـابلـه
ولو كان يَهـدى للكـريم بقدره ... لقصدَّ فضـلُ المـال عنـه ونائلـهُ
ولكننـا نُهْـدى إلى الله من نُعَـزِّه ... وإن لم يكـن فى وُسعنا ما يعادله[4]

ويمزج الكاتب النثر بالنظم فى بعض رسائله إلى المأمون ، فقد كتب له مع هدية فى يوم عيد :

« هذا يومٌ جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد إلى السادة ، وقد أهديتُ قليلاً من كثرة عندى ، وقلتُ :

أهـدى إلى سيده العبد ... ما ناله الإمكان والوَجْدُ
وإنمـا أهـدى له مالهُ ... يبدأ هـذا ولـذا تُرَدُّ[5]

---

(١) الأغانى : جـ ٣ . ص ١٢١
(٢) معجم الأدباء : ١٨٢/٥
(٣) عيد من أعياد الفرس المشهورة ، وهو أول أيام من السنة الشمسية .
(٤) معجم الأدباء ١٧٢/٥ ، وخاص الخاص للثعالبى . ص ١٢٤
(٥) معجم الأدباء ١٨٠/٥

ويشتاق الكاتب إلى صديق لـه ، ويؤدى النظم دور الرسالة الإخوانية ، فيكتب إليه مشتاقا :

تطاول باللقـاء العهـــد منا ... وطولُ العَهْدُ يقدحُ فى القلوب
أراك وإن نأيتَ بعـين قلـبى ... فإنك نُصْبَت عـينى من قـريب
فهل لك فى الرَّواح إلى حبيب ... يُقـرُّ بعينـــه قُـرْبُ الحبيب[1]

وقد مرت بنـا بعض أبيـاته التى كتبهـا على لسـان الجـارية ليصلح بينهـا وبين المأمـون[2] .

ولأحمد بن يوسف شعر فى المجاملة وفى الحكمة وفى العتاب وفى ذلك يقول :

رأيتك لا تميـلُ إلى صـــواب ... ولا ترضه الصـواب من الجواب
وتركك ما يُرِيبُـك فى كـثير ... أخـف عليك من طول العتاب[3]

ومن شعره فى السخرية والذم ما رواه ابن قتيبه فى عيون الأخبار مستشهدًا به على كونه من أخطر ما قالته العرب فى الذم قول الكاتب :

أبنى سـعيد إنكـم معْشـر ... لا يعرفـون كرامـة الأضياف
قرنوا الغذاء إلى العشاء وقرَّبـوا ... زادًا لعمر أبيك ليس بكـاف[4]

وللكاتب شعر فى الحكمة ، استقاه من تجاربه ، ومن عمله مع الخلفاء ، ومن الأزمات التى تعرض لها ، والدسائس التى حيكت حوله ، وقد ورد بعضه فى البداية والنهاية وفى العقد الفريد ، وتاريخ بغداد ، وقد سجَّل ابن عساكر بعضه ، ومنه :

قد يُرْزق المرء من غير حيلة صدرت ... ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهى
ما مسَّنى من غنى يومـا ولا عـدم ... إلا وتـولى عليـــه الحمـد لله[5]

ولأحمد بن يوسف فى الحكمة – أيضا :

إذا المـرء أفشـى سِرَّه بلسانـه ... فلام عليـه غـيره فهـو أحمـق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذى يستودع السر أضيق[6]

---

(١) معجم الأدباء : ٥/١٨٠ .
(٢) معجم الأدباء : ٥/١٧٦، ١٧٥ .
(٣) بهجة المجالس وأنس الجالس وشحذ الذاهن والهاجس – النمرى القرطبى – ت محمد مرسى الخولى . ص ٧٢٨ .
(٤) عيون الأخبار . ٣/١٧١ ، والمبرد – الكامل – جـ ٣ . ص١٠
(٥) الحافظى بن كثير الدمشقى – البداية والنهاية – الطبعة الثانية – مكتبة المعارف – بيروت – جـ ١٠ . ص٢٦٧ .
(٦) البداية والنهاية : جـ ١٠ . ص ٢٦٩ .

وله أيضاً :

إذا قلت فى شىء نعم فأتمّه فإنَّ نعم دينٌ على الحر واجبُ
وإلا فقل لا تستريحُ بها لئلا يقول الناس إنك كاذب[1]

والحكمة فى شعر أحمد بن يوسف تدور فى دوائر فكرية خاصة ، فرضتها عليه وظيفته ، التى تتطلب حفظه السر وتقتضى الصدق ، وتحمل المسئولية ، فصدرت الحكمة فى شعره عن ذات الفلسفة التى صاغ بعضها فى نثره ، حتى رويت له أقوال كثيرة ، نسبت إليه ، وسجلتها بعض مصادر الأدب ، وتدخل فى إطار الحكمة ، وكيفية التعامل مع الأصدقاء ، ومع الرؤساء ، وكيفية مداراة العدو ، وله فى ذلك قوله :

إذا لم تقدر أن تعضَّ يد عدوِّك فَقبِّلها[2]

* * *

المضامين فى شعر أحمد بن يوسف الكاتب تقليدية ، ترتبط بطبيعة دور الكاتب ، تخدم الإخوانيات ، تستجيب لدواعى مجالس الأنس والمجون ، وشعره شعر الكتَّاب ، فقد روى للكتَّاب شعر ، كما روى للخلفاء شعر ، فكان للمأمون شعر ، ولطاهر بن الحسين شعر ، كما كان للشعراء بعض النثر ، وكما نبغ بعض الكتاب فى النثر والشعر ، نبغ بعض الشعراء فى النظم والنثر ، ولا يخفى علينا كتابات المعرى الشاعر ، ولا شعر البيغاء ، كاتب سيف الدولة وغيرهما كثيرون .

وشعر أحمد بن يوسف لا يصل إلى درجة شعر الكتَّاب الآخرين ، فهو لا يُطيل فى نظمه ، ولم ترو له قصيدة كاملة ، ويبدو أنه لم يكن له قصائد أو مقطوعات ، ولم ينسب إليه غير البيتين أو ثلاثة الأبيات غالبا .

وكان شعره أشبه بالنثر المنظوم ، يؤدى به غالبا دور الرسالة الإخوانية ، فى الشوق والعتاب ، فى الاستهداء والاعتذار .

وكان شعره ابن الساعة ، لم يُعَّد إعدادا مُسبقا ، تغلب عليه العفوية ، يتصف بالوضوح الشديد ، والبساطة المتناهية ، لا يعرف العمق أو الغموض ، ولا يميل إلى الدقة فى التصوير ، أو الجزالة فى التفكير ، وصاغ ذلك كله فى ألفاظ بسيطة واضحة .

ولأحمد بن يوسف رأى فى شعر غيره ، فقد قال لابن يعقوب الخُرَيْمى كاتب البرامكة « يا أبا يعقوب مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود ، فقال : كنا

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٠ . ص ٢٦٩
(٢) العقد الفريد : جـ ١ ، ص ٢٦٣

يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما يوم بعيد »[1]

ولأحمد بن يوسف شعر غير صحيح النسبة إليه ، روى له ورُوى لغيره ، وله أخبار مع بعض شعراء عصره من المعروفين أمثال أبى العتاهية ، وأبى العيناء والعتابى . جاءت فى الشعر والشعراء وزهر الآداب والعقد الفريد وبهجة المجالس وعيون الأخبار والمحاسن والمساوى »[2]

وأكثر هذه الأخبار مع أبى العتاهية ، فقد كانا صديقين ، ولما تولى أحمد بن يوسف الوزارة تغيرت حاله ، فكتب أبو العتاهية إليه :

أمنت إذا استغنيت من سورة الفقر ... قصرت ترى الأخوان بالنظر الشَّزر
أبا جعفر إن الشريف يهينُه ... تتايهه دون الأخلاء بالوفر
فإن تُهت يوما بالذى نلته من غنى ... فإن غنائى بالتَّجمُّل والصَّبر
ألم تر أن الفقر يُرْجى له الغنى ... وأن الغنى يُخشَى عليه من الفقر[3]

وقيل إن أحمد بن يوسف حجب أبا العتاهية ، ثم عاد فقيل : وهو نائم فكتب إليه :

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالم ... سأصرف وجهى حيث تُبْغى المكارمُ
متى يظفر الغادى إليك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم[4]

وقال أبو العتاهية فى أحمد بن يوسف أيضًا :

فى عداد الموتى وفى ساكنى الدن ... يا أبا جعفر أخى وخليلى
مَيِّتُ مات وهو فى رونق العيـ ... ـش مُقيما فى ظل عيش ظليل
لم تمت ميتة الوفاة ولكن ... مات عن كل صالح وجميل[5]

وشعر أبى العتاهية فى الكاتب يصور بعض خصاله النفسية بعد توليه الوزارة ، والحجب أمر حدث مع بعض الشعراء وبعضهم ، مثلما وقع بين دعبل الخزاعى وديك الجن الحمصى .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء – ت . أحمد شاكر – دار التراث العربى جـ ١ ص ٨٥ جـ ٢ ص ٨٥٨ .
(٢) زهر الآداب جـ ١ ص ٤٤٠ ، بهجة المجالس ص ٢٣٨ ، والعقد الفريد . جـ ١ ص ٧٣ ، جـ ٣ ص١٠٨ ، عيون الأخبار ١٥١/٣ جـ ٢/ ١٤٥ ، ١٠٠ ، ١٤٩ ، والشعر والشعراء/ ٧٩٧/٢ والمحاسن والمساوئ للبيهقى ص١٧٦ .
(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٤٤٠ ، والعقد الفريد ٧٣/١ ، والمحاسن والمساوئ جـ١٧٦ .
(٤) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٧٩٧ ، وعيون الأخبار جـ ١ وعيون الأخبار جـ ١ ص ٨٩ ، بهجة المجالس ص ٣٢٨ .
(٥) زهر الآداب ٤٤١/١ .

أمَّا عن أخبار أحمد بن يوسف مع الشاعرالعتابى ، فللعتابى شعر فى المأمون ورد فى العقد الفريد ، بينما فى عيون الأخبار يُنسب إلى أحمد بن يوسف وهو :

ما على ذا كنا افترقنا بسندا د ولا هكـذا رأينا الإخـاء
لم أكن أحسب الخلافة يزدا د بهـا ذو الصفـاء الإصفـاء
تضرب الناس بالمثقفـة السَّمـر ر على غدرهم وتنسى الوفـاء[1]

وعلى الأرجح فالشعر للعتابى ، فلم يكن أحمد بن يوسف يخاطب المأمون بمثل هذا القول ، والشعر يحمل سمات العتابى الفنية ، ويؤيد النسبة إليه بعض القرائن التاريخية .

أما أبو العيناء ، فإنه يروى بعض أخبار أحمد بن يوسف ، ومنها حكاية تولى أحمد بن يوسف صدقات البصرة ، فجار فيها وظلم ، فكثر الشاكى والداعى عليه ، ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلا من جُلَّة للبصريين ، فعزله المأمون ، وجلس لهم مجلسا خاصًا ، وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم ، فكان مما حفظ من كلامه ، أن قال : يا أمير المؤمنين : لو أن أحدًا ممن ولى الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله ﷺ ، قال الله عز وجل :

« ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون »[2] .

وكان أبو العيناء يعجب بأقوال أحمد الكاتب / لما فيها من سرعة بديهة ، وبلاء حجة ، ولإيجاز ورد مسكت بليغ ، مثلما جاء فى حكاية القول الذى وقع مِن أبى العيناء وأحمد بن أبى داود ، وقد سبق الإشارة إليه »[3] .

وقد أورد ابن خلكان فى معجمه بعض أبيات لأحمد بن يوسف ومنها ما يدور حول طلب بعض الكبار من المبرد لولده ، فبعث شخصا وكتب معه :

إذا زرتَ الملوك فإن حَسْبى شفيعـا عندهـم أن يُخبرونى

والبيتُ مأخوذ من كلام أحمد بن يوسف « قد أهدَيتُ إلى أمير المؤمنين ثوبًا وشى يصف نفسه والسلام » .

وقد كان أحمد كاتبا ، له محاولات فى الشعر أو تربطه ببعض الشعراء علاقات وتروى له طرائف ، ونوادر ، وقد اختلط بعض شعره ببعض شعرهم ، كما تأثر فى رسائله بأشعارهم وتأثروا فى أشعارهم ببعض قوله .

---

(١) العقد الفريد جـ٢ ص ١٠٠ وعيون الأخبار جـ ٣ ص ١٠٨
(٢) التوبة آية ٥٨
(٣) العقد الفريد جـ ١٤٦/٢ .

مع المأمون :

ارتبطت أهم أخبار أحمد بن يوسف بالخليفة المأمون ، وكان للمأمون فضل فى بزوغ نجم أحمد بن يوسف ، وكان أحمد بن يوسف يكتب أهم رسائل المأمون الديوانية ، وكانت تربطه بالمأمون صداقة وود ، ينمُّ على ذلك تلك الرسائل التى كان يخاطب فيها المأمون فى مناسبات اجتماعية مختلفة ، بعيدا عن السياسة والديوانيات ، ويصور ذلك ، أيضا الأخبار والطرائف التى تداول ذكرها مصادر الأدب والتاريخ .

والمأمون من الخلفاء أصحاب المجالس الأدبية ، وكان له ذوق أدبى رفيع ، وله إسهامات أدبية ، تظهر فى تلك المحاولات الشعرية وفى بعض الآراء النقدية ، وفى إعجابه بإبداعات المحيطين به ، وتوجيهاته إليهم ، وتعريفه للبلاغة فى الشعر والنثر . فلم يكن المأمون حاكما وقائدا فحسب بل كان من المعجبين بالأدب والمشجعين للأدباء شأنه شأن كثيرين غيره من الحكام والقادة فى العصور المختلفة . حتى أضحى لهم بلاط يعرف بهم ، مثل بلاط المهدى ، وبلاط سيف الدولة الحمدانى فيما بعد وغيرهما كثير .

ووصل إعجاب المأمون ببعض الكتّاب أن قلّده منصب الوزارة ، وأخبار ابن يوسف مع المأمون تدور فى عدة محاور :

أولهما : تقدير المأمون له وإعجابه ببلاغته واختياره للعمل فى بلاطه ،

ثانيهما : الرسالة التى كانت سببا مباشرا فى بزوغ نجم الكاتب ، حتى أوصلته إلى عقل الخليفة وحازت إعجابه .

ثالثهما : توزير المأمون للكاتب أحمد بن يوسف .

وبلاغة المأمون سبب فى إعجابه ببلاغة الكاتب ابن يوسف ، كما كان يُعجب ببلاغة غيره ، ولم يكن غريبًا أن يعرف المأمون أعظم الكتاب فى عصره مثل أحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعده والفضل والحسن ابنى سهل ، وطاهر بن الحسين .

وفى المخلاة لبهاء الدين العاملى أخبار عن اهتمام المأمون بتعليم ولده أصول الكتابة الفنية ، والقراءة الواعية ، فقد نظر المأمون إلى بعض ولده ، وهوينظر فى كتاب : فقال : يابنى ما كتابك هذا ؟ قال : بعض ما يشحذ الفطنة ويؤنس من الوحشة ، فقال : الحمد لله الذى رزقنى ذرية يرى بعين عقله أكثر مما يرى بعين وجهه »[1] .

---

(١) بهاء الدين محمد بن حسين العاملى – المخلاة ت – محمد خليل الباشا ، عالم الكتب – بيروت جـ ١ طبعة أولى – ١٩٨٥ – ص ٢١ .

أما عن الرسائل التى أوصلت أحمد الكاتب إلى العمل فى بلاط المأمون ، وإلى الوزارة فيما بعد ، فهى تلك التى كتبها حين مقتل الأمين ، وقد أفاضت مصادر الأدب والتاريخ فى تصوير الخلاف الذى نشب بين الأمين والمأمون ، وأفضى إلى مقتل الأمين .

ففى سنة خمس وتسعين ومئة توفى الرشيد ، والمأمون خارج العراق ، وكان وجَّهه أبوه بالجيوش إلى بعض الفرس ، فاتصل بالأمين قوم من العراق ، وقيل له إنك أحق بهذا الأمر من أخيك ، وأعانه على ذلك أمه زبيدة ، ويحكى صاحب الإمامة والسياسة ، فقدم أخوه من بغداد ومعه الجيوش المبايعة ، فنهض إليه الأمين ، ثم إنه غدر بالأمين لما بلغه عنه ، فنهض المأمون إلى القصر وأخذ أخاه وشدّ وثاقه وحبسه ، وهرب الأمين من الحبس ، فبعث المأمون فى طلبه ، فأخذ وقتل »[1] .

وقد قُتِل الأمين فى المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ،وعمره تسع وعشرون سنة وكانت خلافته أربع سنين وثمانية أيام ، وفى شذرات الذهب للعماد الحنبلى فى حوادث سنة سبع وتسعين ومائة .

« فيها حوصر الأمين ببغداد ، وأحاط به أمراء المأمون وهم طاهر بن الحسين وهرثمة بن أيمن وزهير بن المسيب فى جيوشهم ، وقاتلت مع الأمين الرعية ، وقاموا معه قياما لا مزيد عليه ، ودام الحصار سنة واشتد البلاء وعظم الخطب » . وفى حوادث سنة ثمان وتسعين ومائة فى المحرم ظفر طاهر بن الحسين بالأمين فقتله[2] ويروى القلقشندى فى مآثر الإنافة » أن الأمين لما ولى الخلافة انهمك فى اللهو وطلب الملاهى ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته ، وقَسَّم الأموال والجواهر فى خواصه ، وعمل خمس حراقات[3] ، فى دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملهما أموالا جمَّة فتغيرَّت الدولة منه ، ونقموا ذلك عليه »[4] .

وفى صبح الأعشى قول للصولى عن خلع الأمين وأنه سادس خلفاء بنى العباس والناس يرون أن كل سادس يقوم به أمرالدين منذ أول الإسلام لابد أن يُخلع »[5] .

---

(١) ابن قتيبة الدينورى – الإمامة والسياسة ت : د . طه الزينى – الحلبى – مصر – جـ ١ ص ١٧٤ .

(٢) الحنبلى – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٣) يُراجع كتاب دجلة والسفينة فى الشعر العباسى . د . على أبو زيد – دار الوفاء – مصر .

(٤) القلقشندى – مآثر الأنافة فى معالم الخلافة ت : عبد الستار فراج – عالم الكتب بيروت – جـ١ ص٢٠٤.

(٥) الحسن بن على السادس بعد النبى عله السلام وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، السفاح / المنصور/ المهدى/ الهادى/ الرشيد/ الأمين/ المأمون/ المعتصم/ الواثق / المتوكل/ المنتصر .

وتذكر بعض المصادر[1] أن المأمون أمر بكتابة رسالة موجزة تبرر قتل الأمين ، وتذكر مصادر أخرى[2] أن طاهر بن الحسين هو الذى طلب ذلك ، وأعجب بالرسالة ذى الرياستين الفضل بن سهل وهذا هو الأرجح .

ويذكر صاحب الوزراء والكتّاب أنه « لما قُتل طاهر محمد المخلوع ، أنفذ رأسه إلى المأمون ، فقال الفضل بن سهل : ما فعل بنا طاهر ، سلَّ علينا سيوف الناس وألسنتهم ، وأمرناه أن يبعث به أسيرا فبعث به عقيرا ، وقيل أنه كتبت عدة كتب لم يرضها المأمون واستطالها »[3] .

ويقول الصولى فى معجم الأدباء ، إن أول ما ارتفع به أحمد بن يوسف ، أن المخلوع لما قتل ، أمر طاهر الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصر من هذا ، فوصف له أحمد بن يوسف ، فأحضره لذلك وكتب[4] .

ويُعجب الفضل بن سهل بها ويقول « ما أنصفناك إذا كان الغد فاقعد فى الديوان وليقعد جميع الكتّاب بين يديك ، واكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر له .. بجوائز عديدة »[5]

وجاء فى رسالة أحمد بن يوسف هذه « أمَّا بعد : فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، فقد مزَّق حكم الكتاب بينه وبينى فى الولاية والحرمة ، لمفارقته عصمة الدين ، وخروجه عن إجماع المسلمين ، قال الله عزَّ وجل لنوح عليه السلام فى ابنه : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، ولا صلة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله[6] فرضى طاهر ذلك وأنفذه ووصل أحمد بن يوسف وقدَّمه وأنشد طاهر بعد قتل الأمين :

ملكت الناس قسرا واقتدارا وقتلت الجبابرة الكبارا
ووجهتَ الخلافة نحو مرو إلى المأمون تبتدر ابتدارا[7]

ويذكر ياقوت الرواية الثانية التى تنص على حمل رأس المخلوع إلى المأمون وهو بمرو . وتعد تلك الرسالة شهادة اعتراف بمقدرة ابن يوسف الفنية فى الكتابة الديوانية ، وكان الباب الذى عبر منه الكاتب إلى آفاق المجد والشهرة وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية ، وسواء كتب أحمد فى خراسان أو بغداد على يد الفضل أو على يد طاهر « فقد علا بهذا الكتاب

---

(١) الوزراء والكتاب ، والجهشيارى ص ٣٠٤ الفخرى فى الآداب السلطانية ، ابن طباطبا .
(٢) معجم الأدباء وزهر الآداب وثمر الألباب .
(٣) الجهشيارى / الوزراء والكتّاب : ص ٣٠٤ .
(٤) معجم الأدباء : ١٦٧ .
(٥) د . إبراهيم سلمان الكردى – نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول – الكويت ١٩٨٣ ص ١٠٧
(٦) ياقوت – معجم الأدباء ١٦٧ .
(٧) شذرات الذهب جـ ٣٠٥ .

نجمه ، وعُرف بين كتاب عصره فضله »[1] .

وتُجمع المصادر على جودة الرسالة ، وعلى كونها بابًا لشهرة الكاتب ، وطريقا للتعرف على المأمون ، ويرى د . شوقى ضيف أن الرسالة تتصف بدقة التعبير ، والمهارة فى تصوير عصيان الأمين ، والربط بينه وبين عصيان ابن نوح ، وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنى أبيه وقرابته ، وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة ، فقد خرج على أهله »[2] .

ويعتبر د . الشكعة هذه الرسالة « مسابقة بين الكُتّاب » ، سببًا لفوزه وتقدمه ، ولقد كانت الوظائف الكبرى يختار لها الأكفاء عن طريق المسابقات ، ومَنْ اجتاز المسابقة بتفوق فرش أمامه سلم المجد يعتليه درجة بعد درجة ، لقد كان هذا الدرب الصاعد هو الذى سلكه أحمد بن يوسف حتى أصبح واحدا من أئمة الكتاب[3] .

ويعلق على الرسالة بعد أن يذكرها صاحب بلاغة الكتّاب قائلا « وبمثل هذا الأسلوب بذّ غيره فى الكتّاب ، ونال الحظوة لدى طاهر بن الحسين أكبر قواد المأمون »[4] .

وقد أسهم أحمد بن أبى خالد الوزير فى تعريف المأمون بأحمد بن يوسف ، فكان الوزير يصف أحمد الكاتب المأمون ، ويشجعه على مجالسته ومنادمته ، وعمل ذلك طاهر بن الحسين – أيضا – فقد كان يمدح أحمد بن يوسف ، أمام المأمون ، وكذلك فعل إبراهيم بن المهدى ، حتى اقتنع المأمون به ، وطلب رؤيته ، فلبّى دعوته ، وأحضره إليه أحمد بن خالد ، وعندما مثل أحمد بن يوسف الكاتب بين يدى المأمون قال : « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى اختصَّك فيما استحفظك من دينه ، وقلّدك من خلافته ، بسوابغ نعمته ، وفضائل قسمته ، وعرفك من تيسير كل عسير صار لك عليه متمرد ، حتى ذلّ لك ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها ، حمدا ناميًا زائدًا لا ينقطع أُولاه ، ولا ينقضى أخراه .. »[5] ولم يملك المأمون أن يكتم إعجابه بما سمع ، وارتجال الكاتب جعل المأمون يقول له : أحسنت ، بورك عليه ناطقًا ، وساكتا ، ثم قال بعد أن بلاه واختبره : « يا عجبا لأحمد بن يوسف ! كيف استطاع أن يكتم نفسه »[6] .

وأحمد بن يوسف من الكتاب الذين نُبلوا بالكتابة وكان من قبل خاملا . كما صنّفه صاحب العقد الفريد ، مع من ذاع صيته بالكتابة ، وشرفوا بها ، ومنهم سرجون بن منصور الرومى ،

---

(١) أمراء البيان ١٩٨٠.

(٢) د .شوقى ضيف – العصر العباسى الأول ص ٥٤٣ – النثر ص ٣٦٣.

(٣) د . مصطفى الشكعة : الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية – النثر ص ٣١٣ .

(٤) د نبيه حجاب – بلاغة الكتاب فى العصر العباسى – ٢٣١.

(٥) ياقوت : معجم الأدباء جـ ١ ص ٤٣٦.

(٦) معجم الأدباء ، جـ ٤ ص ١٦٩.

كاتب معاوية ، وحسان النبطي كاتب الحجّاج ، ومنهم الربيع والفضل بن الربيع ، والفضل بن سهيل والحسن بن سهيل ، وأحمد بن يوسف ، ومحمد عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وإبراهيم الصولى ، فهؤلاء نبلوا بالكتابة واستحقوا اسمها »[1]

وقد بلغ أحمد بن يوسف مكانة عند المأمون حسده عليها الآخرون من أقرانه ، واستطاع أحمد الكاتب أن يحظى بهذه المكانة لعدة أسباب ، فلم يكن تقريب المأمون للكاتب اعتباطا أو عشوائيا ، فقد وجد المأمون فيه البلاغة التى كان يستهدفها فى كُتّابه ، وقد ازداد إعجاب المأمون بالكاتب بعد أن قرأ رسالته فى تبرير مقتل الأمين ، كما أن ذكاء الكاتب ونباهته ، وسرعة بديهته وقدرته على الارتجال ، فى إيجاز محبب إلى المأمون مما جعله من خاصته ، فضلا عن ترشيح أهل الثقة للكاتب ، حتى صار من ندماء المأمون ، يدخل عليه فى أى وقت ، يجالسه ويسامره ، حتى أخذ يرقى فى بلاط المأمون ، ويستحوذ على ثقته التى بدأت تزداد يوما بعد يوم ، حتى اختير للوزارة .

وكُتّاب الرسائل من أخص الرجال ، وأقربهم إلى الخلفاء والملوك ، وأسبقهم إلى مناصب الوزارة ، كما كان لهم ذوق أدبى جميل ، ورأى فى النقد محترم سديد وتوالت منهم طبقات كانوا عمال الدولة ، وألسنتها الناطقة ، ومستشاريها المأمونين »[2] .

وفى صبح الأعشى ما يُفيد أن أحمد بن يوسف أول من افتتح المكاتبة بتهنئة النيروز[3] . والمهرجان ، وقد أهدى الكاتب إلى المأمون سقط ذهب فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه ، وكتب معه : « هذا يوم جرت فيه العادة بإلطاف العبيد للسّادة »[4] . ويعجب المأمون بالإيجاز ، وقد جاء فى نهاية الأرب أن المأمون قال لعمرو بن مسعدة ، أكتب إلى فلان كتاب عناية بفلان فى سطر واحد فكتب واثق بمن كتب إليه ، مُعن بمن كُتب له ، ولن يضيع الثقة والعناية حامله[5] .

وقد سأل المأمون الحسن بن سهل عن رجل كفء يخلف أحمد بن خالد ، فذكر له رجلين أحمد بن يوسف وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازى ، قائلا أنهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٦٩

(٢) أحمد الكاتب – الأسلوب – السابعة – النهضة المصرية ص ١١٣ .

(٣) أول من اتخذ النيروز من الفرس جحا الملك ، وهو الذى بنى مدينة طوس ، ويقال إنه زمن هود عليه السلام ، لما ملك جدد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى يوم جديد ، عرّبته العرب ، فقلبوا الواو فقال نيروز – صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٩٠

(٤) صبح الأعشى – جـ ١ ص ٤٩٢

(٥) نهاية الأرب جـ ٧ / ص ٢٦٠ .

وخدمته وما يرضيه ، فقال له : اختر لى أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لذته قليلا ، فهو أحبهما إلىّ ، لأنه أعرق فى الكتابة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علما[1] . فأعجب المأمون بالرأى واستكتب أحمد بن يوسف ، وقد ولاه المأمون ديوان السر ، وبريد خراسان ، وصدقات البصرة ، وخصّ المأمون نصف صدقات البصرة طعمة له سبع سنين[2] .

ويُعجب المأمون بجمال خط أحمد بن يوسف ، حتى قال له : يا أحمد لوددت أنى أكتب مثل خطك وعلى صدقة ألف ألف درهم ، فقال له : لو كان فى الخط حظٌ ما حُرمه رسول الله[3] .

وفى كثير من مصادر الأدب نصوص عديدة حول الخط وتحسينه والاهتمام به[4] .

وفى زهر الآداب ونهاية الأرب وغيرهما بعض كتب لأحمد بن يوسف للمأمون يستعطفه فى العطاء لزوّار على بابه جاء فيه : « إن داعى نداك ، ومنادى جدواك ، جمعا ببابك الوفود ، يرجون نائلك العتيد ، فمنهم من يمت بُحرمه ، ومنهم من يُدلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه ويحقق ظنهم بطوله ، فعل فوقع المأمون فى عرض كتابه « الخير مُتبع ، وأموال الملوك مظّان لطلاب الحاجات ، فاكتب أسماءهم » .

وأخبار الكاتب مع المأمون تتسم بطابع فنى ، لم تغب البلاغة عنه ، حتى أن المصادر لم تدوِ غير الأخبار أو الأقوال التى تتصف بالجمال الفنى ، والبلاغة .

ومما لا شك فيه فإن رغبة الكاتب فى البقاء فى دائرة الحظوة لدى المأمون الأديب الناقد ، جعله لا يتأخر عن مصاف البلغاء ، ويبذل الجهد فى محاولة استرضاء الحاكم ، حتى وصل إلى الوزارة ، ولم يكن من وسيلة غير أن يبذل أقصى الجهد فى أن يتعامل مع الأدوات الفنية للكتابة تعامل الواعى المُجرِّب .

وقد كان المأمون معجبا بالإيجاز ، وتروى معظم مصادر الأدب والتاريخ الحكاية التى تدور حول إعجاب المأمون ببلاغة عمرو بن مسعدة ، ويرويها أحمد بن يوسف حين قال : « دخلتُ على المأمون ، وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته ، مرَّة بعد مرَّة فقال المأمون : أراك منكرا فيما تراه منى ، فقلتُ : نعم ، وقى الله أمير المؤمنين المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقول عن البلاغة ، فإنى سمعته يقول : البلاغة

---

(١) محمد كرد على – أمراء البيان ص ٢٠٠ .

(٢) الشيخ محمد الخضرى بك : الدولة العباسية دار الحكمة – بيروت – ص ٢١١ وأمراء البيان ص ٢٠٠ .

(٣) أمراء البيان ص ٢٠٠ ، والدولة العباسية ص ٢١٢ .

(٤) زهر الآداب – صبح الأعشى – نهاية الأدب – نوادر المخطوطات – المخلاة وغيرها .

التباعد من الإطالة والتَّقرُّب من البغية .

والدلالة باللفظ القليل على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت الكتاب من عمرو بن مسعدة إلىَّ فإذا فيه ، « كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من الأجناد والقواد فى الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أعطياتهم واختلت أحوالهم »[1] .

ويأمر المأمون أحمد بن يوسف بأن يكتب إلى الشعب فى زيادة قناديل شهر رمضان ، ويروى صاحب زهر الآداب عن أحمد بن يوسف قوله : « فأعيا علىّ ، ولم أجد مثالا احتذى عليه ، فبتُّ مغموما ، فأتانى آتٍ فى النوم فقال : اكتب : فإن فيها إضاءة لبيوت الله من وحشة الظلم ، فأخبرت بذلك المأمون فاستطرفه ، وأمر أن تمضى الكتب عليه »[2] .

ومن الأخبار التى تدل على متانة العلاقة بين المأمون وأحمد بن يوسف ، يوم دخل الكاتب على الخليفة صبيحة زفافه إلى بوران بنت الحسن بن سهل مهنئا له ، ورد المأمون عليه ردا بليغا ، اعتبره أصحاب مجامع البلاغة من أحسن الكنايات .

ولما طلب المأمون الدخول على بوران دافعوه لعذر بها ، فلم يندفع ، فلما زفّت إليه وجدها حائضا ، فلما قعد الناس من الغد ، دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب ، وقال يا أمير المؤمنين ، هنأك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة ، وشدة الحركة ، والظفر بالمعركة .

فأنشد المأمون :

فارس ماضى بحربته صادق بالطعن فى الظلم
رام أن يُدمى فريستـه فاتقتـــه مـن دم بـدم

يُعرِّض بحيضها ، وهو من أحسن الكنايات كما يحكى ذلك الجرجانى فى كتابه الكنايات ، وقد حدث هذا فى رمضان سنة عشر ومائتين »[3] .

---

(١) زهر الآداب جـ ٢ ص ٨٣٧ – والمحاسن والمساوئ للبيهقى – ومعجم الأدباء جـ ٣ . ص ٤٧٨ ، والعقد الفريد جـ ٢ ص ٢٧٢ ، وأدب الكاتب للصولى ص ٢٣٤ .

(٢) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ .

(٣) كتاب الكناية والتعريف للثعالبى – ابن خلكان جـ ١ . ص ١٨٩ ، والمنتخب من كنايات الأدباء للجرجانى .

الكاتب الوزير

أحمد بن يوسف كاتب المأمون ووزيره ، فقد وَلِيَ الوزارة فى خلافة المأمون ، بعد أن وَلِيَ ديوان الرسائل ، وبعد أن أظهر ذكاء ونجابه ، فقلّده المأمون الوزارة ، بعد وفاة وزيره أحمد بن خالد الأحوال ، وبعد أن استشار المأمون الحسن بن سهل ، وقد أشار الحسن على المأمون برجلين كما سبق الإشارة إلى ذلك .

والنبوغ فى الكتابة ، والتأنق فيها من أهم العوامل التى تُقرِّب الكتّاب من الخلفاء ، فيعينهم وزراء له ولم تكن السياسة بل كانت البلاغة هى الطريق ، فقد بلغ الكتّاب بحذقهم سياسة الملك ، ونبوغهم فى البلاغة أن ارتقوا عند خلفاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة »[1] .

وأول من ارتقى منهم إليها ، أبو سلمه الخلال ، ويحيى بن خالد بن برمك ، وأبناؤه جعفر والفضل ، ومحمد بن الزيات ، وقد كانت العناية بالكتابة هى التى توفِّر للكتّاب أسباب الرقى ، وقد وصل الفضل بن سهل إلى الرياسة حتى سُمى ذا الرياستين ، رياسة السيف ورياسة القلم ، كما وصل محمد بن عبد الملك الزيات إلى الوزارة لنبوغه فى أدبه .

ويحدد المأمون الشروط التى يجب أن يتحلى بها الوزير الكاتب : فقد قال المأمون لولده فى حضرة عمرو بن مسعدة ، ويحيى بن أكثم : « اعتبروا فى علو الهمة ، بمن ترون من وزرائى وخاصتى ، وإنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم ، وإنه من اتبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير ، فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرَّغوا لجلائل الأمور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكونوا مثل كرام السباع التى لا تشتغل بصغار الطير والوحوش ، بل بجليلها وكبارها ، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم ، ولا يعتنى الولى عنكم شيئا ما لم تعطوه حقه » [2] .

ويضع المأمون شروطا أخرى لوزيره[3] . أوردها صاحب حضارة الإسلام ، ومنها : « إنى التمست لأمورى رجلا جامعا لخصال الخير ، ذا عفةٍ فى خلائقه ، واستقامة فى طرائقه ، قد

---

(١) السيد أحمد الهاشمى – جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب – مكتبة المعارف بيروت – ط ١ . ص ١٦٣ .

(٢) البيهقى – المحاسن والمساوئ ص ١٧٠ .

(٣) يراجع فى الوزراء والكتاب للجهشيارى – الوزراء للصولى ، والفخرى لابن طباطبا ، ونهاية الأرب النويرى ، والأحكام السلطانية للماوردى ، وسراج الملوك للطرطوشى ، وحضارة الإسلام لصلاح الدين خودابخش .

هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أوتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض بها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللمحة ، له صبر الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أُحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده »[1] .

والوزارة فى ظل المأمون يقسمها المؤرخون إلى نوعين : تنفيذ وتفويض ، ووزارة أحمد بن يوسف وزارة تنفيذ ، فكان كاتبا من كونه وزيرا ، ولم تكن كلمة وزير فى عهده تعنى المهام المعروفة بالوزارة ، وتفيض المصادر[2] . فى تحديد معنى الكلمة وتطويرها كما جاء فى تحفة الأمراء من تاريخ الوزارة للصابى وتحفة الوزراء للثعالبى وضحى الإسلام ودائرة المعارف الإسلامية والإسلام والحضارة العربية وقصة الحضارة والوزراء العباسيون والوزارة العباسية والجذور التاريخية للوزارة العباسية وغيرها »[3] .

وتختفى الأخبار التى تحكى عن عمل أحمد فى الوزارة ، وتزداد أخبار المسامر والمنادم للخليفة ، فكانت كلها رسائل وتوقيعات وأخبار بليغة ، وأجوبة بديهية ، وبدائع مسكته ، والظاهر أن هذه هى المواصفات التى على أساسها طلب المأمون الكاتب وزيرًا ، ولكنه كان بعيدًا عن ممارسة المهام المعروفة بالمسئولية ، فلم يكن فى وزارته كما كان الفضل بن سهل .

مكانة أحمد بن يوسف الأدبية وبعض نثره :

أجمع المعاصرون للكاتب على علو همته ، وأثبتوا بعض قوله للبرهنة على صحة رأيهم ولم تهتم المصادر وأصحابها بتقييم نثر الكاتب قدر اهتمامها بتسجيل بعض أقواله وطرفه ونوادره . وبعضها لا يمكن تصديقه ، أما بعض المصادر فقد أوردت آراء بعض النقاد التى تجمع على براعته ، وهى آراء تتصف بما عُرِفَ به النقد القديم ، من عبارات موجزة ، تخلو من التفصيل والتعليل ، لا تظهر إلا الحسن ، وتجعل الفارس خير فرسان ميدانه ، مثل قول الخطيب البغدادى « كان أحمد بن يوسف من أفاضل كُتّاب المأمون وأذكاهم ، وأجمعهم للمحاسن ، جيد الكلام ، فصيح اللسان ، حسن اللفظ ، مليح الخاطر .

---

(١) صلاح الدين خودابخش – حضارة الإسلام – ترجمة . د . على حسنى الخربوطلى دار الثقافة – بيروت – ١٩٧١ جـ ١٠٦ .

(٢) جاء فى ضحى الإسلام أن « وزير كلمة عربية » وفى حضارة الإسلام أنها كلمة فارسية قديمة لها مرادفات فى البهلوية والأدامية ، وأن أبا سلمه أول من تلقب بلقب وزير فى عهد السفاح ووفيات الأعيان ط ١ ص ٢٢٩ والوزير كلمة مشتقة من الوزر وهو الثقل ، أو الوَزر وهو الملجأ ، جاء فى القرآن على لسان موسى « واجعل لى وزيرًا من أهلى هارون أخى » « وفى حديث السقيفة ونحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وفى طبقات ابن سعد أن أبا بكر كان وزير للنبى صلى الله عليه وسلم . ضحى الإسلام . جـ ١ . ص ١٦٤ .

(٣) قصة الحضارة – ول ديورانت . الوزراء العباسيون – محمد برانق – الوزارة العباسية : توفيق أبو زكى .

وعنه يقول جعفر بن يحيى : عبد الحميد أصل ، وسهل بن هارون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر .

وفيه يقول الفخرى : « كان كاتبا فاضلا أديبا شاعرا فطنا ، بصيرا بآداب الملك وآداب السلاطين »[1] .

وروى الصولى أن الكتّاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل ، فذكروا الماضين من الكتّاب فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بنى العباس : « أحمد بن يوسف »[2] .

وقال بعض القدماء فى وصفه كلامه : لم أر كلاما أحسن وصلا ، ولا أمتن فصلا ، ولا أمنع إنذارا ، ولا أقنع إعذارا ، ولا أرأب لصدع ، ولا أشعب لجمع ، من كلام أحمد بن يوسف .

أما عن المعاصرين فقد قال أحمد فريد رفاعى صاحب عصر المأمون « أما مكانته فى الكتابة فرسائله وتوقيعاته التى تحلت بها صدور الأدب ، وتزيَّنت بها كتب التاريخ ، ما تجعله فى مقدمة الكتاب ومن أئمتهم ، وهى بما فيها من جودة وإحكام ، وتخيُّر للألفاظ ، وسلاسة فى المعانى ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعنّه المعانى ونواصى الكلام »[3] .

ويرى صاحب نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول[4] أنه كاتب أديب على حظٍّ كبير من الثقافة الإسلامية ، وتتناثر أحكام د . شوقى ضيف فى كتابه فيراه « صاحب ثقافة عربية دقيقة غدا شاعرا يُحسن النظم للشعر وصوغه ، أعد احمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه ، وهو يعد فى الذروة من كتّاب الدواوين فى العصر العباسى الأول لبلاغته ودقة تفكيره وحسن تأتيه فى الرسائل الديوانية السياسية والإخوانية الشخصية[5] .

ويُعبِّر مصطفى الشكعة عن إعجابه بفن أحمد بن يوسف بأنه « كاتب على جانب من النباهة والبلاغة والثقافة لاتقل عن بلاغة كبير كتّاب المأمون ووزيره عمرو بن مسعده ، له دور فى رفع شأن فن الكتابة الديوانية فى عهد المأمون ، كانت ظروف السياسة والكتابة هى التى دفعت به من صفوف عامة الكتاب إلى مقعد الرياسة ، حيث تفتحت عبقريته وتفجرت ملكاته عن مجموعة كبيرة من الرسائل التى تعتز بها الكتابه العربية ويقر لها عينا الأسلوب الإنشائى

---

(١) الفخرى : الآداب السلطانية – ص ١٢٥ .
(٢) محمد كرد على – أمراء البيان – ص ٢٠٥ .
(٣) د . محمد فريد رفاعى : عصر المأمون ص ٤٣٤ .
(٤) د . إبراهيم سلمان الكردى نظام الوزارة . ص ٢٠٥ .
(٥) د . شوقى ضيف – العصر العباسى الأول ص ٥٤١ ، ص ٥٤٣ .

الرفيع »[1]

ويقول عنه صاحب بلاغة الكتَّاب إنه « نشأ فى بيت عريق فى الترسل والإنشاء ، كان يتقلب منذ صباه فى مهاد البلاغة ، فيرتشف أفاويقها طفلا ، ويستدر أخلاقها يافعا »[2] .

ويجعله صاحب تاريخ الإسلام العباسى والدينى[3] أحد الكتَّاب الذين لم يسمح الدهر بمثلهم كما يرى أنه من أشهر وزراء المأمون .

ويذكره د . طه حسين فيمن ذكرهم من كتَّاب المأمون ، ويشير إلى توزير الكتَّاب ، بأنها ظاهرة لم يعرفها الأمويون ، وهى سمو الموالى إلى الوزارة ، والمناصب الكبرى فى الجيش والولايات ، وأخذ هؤلاء الوزراء ينظمون الدولة ويسيطرون على الخلفاء ، ويُسيّرون الأمور بما ورثوا من جنسياتهم المختلفة .[4] .

ويكفى أحمد بن يوسف فضلا أن جعله ابن النديم صاحب الفهرست [5] أحد بلغاء الناس العشرة . بل جعله أولهم فى ترتيبه لهم ، كما جعل رسالته المعروفة برسالة الخميس واحدة من الكتب المجمع على جودتها بل جعلها أولى الكتب المجمع على جودتها قبل عهد أردشير وكليلة ودمنه ويتيمة ابن المقفع .

ويذكر صاحب أمراء البيان – أيضا – أن أحمد بن يوسف صورة جية من صور عشر لعشرة من أمراء البيان « وهم العشرة المبشرة بالبلاغة فى عصر العرب الزاهر ، يوم أضحى اللسان العربى لغة حضارة وعلم ، وكان فى القرن الأول لغة دين وأدب »[6] .

وتتبارى بعض مصادر الأدب فى تسجيل أقوال وآراء أحمد بن يوسف ففى بهجة المجالس قول لأحمد بن يوسف يرويه اسحق الموصلى يقول : سمعت أحمد بن يوسف وذكر رجلا كان يذهب بنفسه فى التيه فقال « يتيه فلان ، وماعنده فائدة ولا عائدة ، ولا رأى جميل »[7] .

---

(١) د . مصطفى الشكعة – الأدب موكب الحضارة الإسلامية - النثر ص ٣١٠ ، ص ٣١١ .

(٢) د . نبيه حجاب – بلاغة الكتاب : جـ ٢٣٠ .

(٣) د . حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى – الطبعة السابعة – النهضة المصرية – ١٩٦٤ جـ٢ . ص ٢٦٤ .

(٤) د . طه حسين – تاريخ الأدب – العصر العباسى الأول – المجلد الثانى – دار العلم للملايين – ط٢ ١٩٧٦ – ص ٢٤٧ .

(٥) ابن النديم : الفهرست : ص ٢٤٧ .

(٦) محمد كرد على – أمراء البيان : (المقدمة) .

(٧) بهجة المجالس ، وأنس الجالس ، وشحذ الذاهن والهاجس – النمرى القُرطبى – ت محمد محروس الخولى – د . عبدالقادر القُط – الدار المصرية – ص٤٣٧ .

ويعلق صاحب الصناعتين على قول لأحمد بن يوسف بأنه « من الكلام المهذب الصافى ، حين قال الكاتب : « يومنا يوم لين الحواش ، وطىء النواحى ، وهذه سماء قد تهلّلت بودقها ، وضحكت معابس غيمها ، ولامع برقها ، وأنت قطب السرور ، ونظام الأمور ، فلاتغب عنا فنقلّ ، ولا تفرونا فنستوحش ، فإن الحبيب بحبيبه كثير ، وبمساعديه جدير »[1] .

ويروى صاحب العقد الفريد بعض غرر أحمد بن يوسف ويجعلها غاية فى مضمارها سواء فى الشكر أو فى الذم أو فى « زيارة أو فى العتاب فضى الزيادة كتب اسحق بن إبرهيم الموصلى إلى أحمد بن يوسف يدعوه ، وكان عند أحمد إبراهيم بن المهدى فكتب إليه « عندى من أنا عنده ، وحجتنا عليك إعلامنا إياك »[2] .

ويستشهد المبرد بقول لأحمد بن يوسف فى التعزية فى ولد الربيع « عظم أجركم ورحم الله فقيدكم ، وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالا تجمع شملكم وتلم شملكم ، ولا تفرّت ملأكم »[3] .

وتتشكل بعض أقوال أحمد بن يوسف بقالب الحكمة ، لما فيها من بلاغة قول ، وإيجاز وتكثيف المعنى ، ومن ذلك « لا تجوز قطيعة الصديق لأنها لا تخلو من أحد وجهين : إما ضعف فى نفس الاختيار ، وإما ملل ، وكلاهما لا حجة فيه »[4] .

وفى خاص الخاص للثعالبى أقوال موجزة بليغة لأحمد بن يوسف الكاتب ، ومنها وصفه غناء إبراهيم المهدى « القلوب منه على خطر فكيف الجيوب » « بالأقلام تساس الأقاليم » وعقول الرجال تحت أسنة أقلامهم .[5] .

إن التعرف الحقيقى على الكاتب لايتحقق إلا من خلال استقراء إبداعاته ، فإن الاستشهاد ببعض أقوال الكاتب توضح أهم معالم فنه ، وقد يكون لأحمد بن يوسف الكاتب خصائص فنية أو بعض ظواهر أسلوبية تحملها إخوانياته ، دون ديوانياته وتحميداته ، وهذا أمر طبيعى من كاتب يوجز حين يكون الايجاز مطلوبًا ، ويُطنب حين يكون الإطناب قمة البلاغة والإعجاز .

وأحمد بن يوسف من خلال هذه النماذج القليلة التى أُشار إليها ، لم يحفل بالسجع ولم يقصد إليه ، إلا إذا أتى عفو الخاطر ، وإلا ما تفرضه الفصاحة وبناء الجملة ، ويمكن القول أنه يهتم بتنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، متوخيا السهولة ، متجنبا اللفظ

---

(١) العسكرى – الصناعتين – ص ٣٧ .
(٢) ابن عبد ربه – جـ٤ – ص٢٣٨ .
(٣) العقد الفريد – جـ٣ –ص١٩٥ .
(٤) العقد الفريد – جـ٤ – ص ٢٢٦ .
(٥) الثعالبى ، خاص الخاص – مكتبة الحياة – بيروت – ص٨ .

الخشن ، والمعنى الصعب ، فى دقة متناهية تقوم على التناسق والتآخى بين المفردات .

وكان يسقط من الكلام ، مايكون الكلام مع اسقاطه تاما غير منقوص ، ولا يكون فى زيادته فائدة ، مؤكدا أن البلاغة ، « قول يسير يشتمل على معنى خطير ، وأن البلاغة علم كثير تحت قول قليل [1] كما يبدو فى عبارته بالأقلام تساس الأقاليم .

خاتمة حياته :

أجمعت المصادر على أن سنة ثلاث عشرة ومائتين هى السنة التى مات فيها أحمد بن يوسف الكاتب ، أشار إلى ذلك صاحب تاريخ بغداد[2] وصاحب النجوم الزاهرة[3] الذى جعل وفاة أحمد بن يوسف فى حوادث سنة ٢١٣هـ .

ويروى ياقوت فى معجم الأدباء حكاية موت أحمد بن يوسف نقلاً عن صاحب غرس النعمة فى كتاب الهفوات ، يتهم فيها المأمون بتدبير قتل كاتبه ووزيره ، فقد كان المأمون إذا تبخّر طرخ له العود والعنبر ، فإذا تبخر أمر بإخراج المجمرة ، ووضعها تحت الرجل من جلساته إكراما له ، وحضر أحمد بن يوسف يوما ، وتبخر المأمون على عادته ، ثم أمر بوضع المجمرة تحت أحمد بن يوسف ، فقال أحمد : هانوا ذا المردود ، أو قال : أهانوا أصحاب المروءة ، فقال المأمون له : ألنا يُقال هذا ، ونحن نصل رجلا واحدا من خدمنا بستة آلاف دينار ، إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت ، فقد اقتسمنا بخورا واحدا ، ثم قال : يحضر عنبر ، فأحضر منه شيء في الغاية من الجودة ، فى كل قطعة ثلاثة مثاقيل ، وأمر أن تطرح قطعة من المجمرة ، ويُبخَّر بها أحمد ، ويدخل رأسه فى زيقه[4] حتى ينفذ بخورها ، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية ، وثالثة ، وهو يستغيث ويُصيح ، وانصرف إلى منزله ، وقد احترق دماغه ، واعتل ومات سنة ثلاث عشرة ومائتين[5].

رواية لا يقبلها المنطق ، ولا تقرّها الأحداث ، ولا تنسجم مع طبيعة العلاقة التى تربط الكاتب بالخليفة ، بدءا من رسالته فى المخلوع إلى رسالة الخميس إلى تحميداته إلى منادمته للمأمون ، ولعل هذا الخبر وضع ليشوه الصورة ، وهو خبر لم يتردد فى مصادر الأدب والتاريخ كلها ، ولم يُعوَّل عليه الباحثون ، ولم يُشر إليه الدارسون المعاصرون .

ويقال أنه أشرف ، وهو على وشك الاحتضار على بسنان داره ، وكانت مطلة على دجلة فظلَّ يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفسّ وقال :

---

(١) العسكرى – الصناعيتين – ص ٣٨ ، ص ٤٣ .
(٢) الخطيب البغدادى – تاريخ بغداد – جـ ٥ ص ٢١٨ .
(٣) ابن تغر بردى – النجوم الزاهرة – حوادث سنة ٢١٣.
(٤) ما أحاط بالعنق من القميص .
(٥) معجم الأدباء ، جـ ٥ ص ١٧٨.

ما أطيب العيش لولا موت صاحبه ففيه ما شئت من عيب لعائبه

وسرعان ما التقمه الموت وهى الرواية التى ذكرها البغدادى فى تاريخ بغداد[1] ، وقد ذكر صاحب عصر المأمون[2] الحكاية والبخور دون أن يُعلَّق ، وذكرها صاحب أمراء البيان ورفضها قائلا : وهى قصة منقوضة بالبداهة ، وذلك أن أحمد بن يوسف يعرف مقام الخليفة ، ولايجرؤ أن يقول مانسب إليه فى حضرته ولا فى غيبته ، والمأمون صاحب النفس العظيمة يعرف قدر الرجل ، فلا يرى مهما كان ذنبه أن يهلكه بالعنبر فى مجلسه ، وربما وضع هذه القصة من أراد إسقاط المأمون ، ونسبة ضعف العقل إلى وزيره[3].

ويقف صاحب الدولة العباسية موقفا آخر ، ويرى أن هناك من دسَّ الدسائس وكاد المؤامرات للإيقاع بين الخليفة والكاتب حسدا منهم .

وتتأثر جارية لموته وترثيه قائلة :

ولو أن ميِّتا هابه الموتُ قبلهُ لما جاءه المقدارُ وهو هيوبُ

وتقول أيضا :

نفسى فداؤك لو بالناس كُلِّهمُ ما بى عليك تمنَّوا أنهم ماتوا

وعاش القاسم أخوه بعده فقال يرثيه :

ولمثل أخيك فلتبك البواكى لمعضلة من الخطب الجليل[4]

ولم يشر أحد ممن رثاه إلى حادث موته ، مما يؤكد عدم صحة الرواية .

(١) تاريخ بغداد – جـ ١٠ ص ٢١٦.
(٢) محمد كرد على – أمراء البيان – ص ٢٠٥ .
(٣) الشيخ محمد الخضرى – الدولة العباسية – دار العلم ١٩٨٦ – جـ ١ ص ٢١ .
(٤) ياقوت ٥ معجم الأدباء ص ١٧٩ ، ص ١٨٣.

التَّحميدات والدِّيوانيَّات

التحميدات :

مطولات أحمد بن يوسف تظهر فى التحميدات والديوانيات ، وقد برع أحمد بن يوسف الكاتب فى تحميداته ، خاصة التى تتصل بالجليل من الأمر ، حتى أن البعض يخلط بين التحميدات والديوانيات فى مطولات أحمد بن يوسف لما فيها من حديث مشترك عن الخليفة المأمون ، فالتحميد كتب فى شكره ، وكذلك فى مطالع الديوانيات ، كان الكاتب يستهلهما بالتحميد ، حتى أن الأفكار ذاتها تتكرر وبعض العبارات تتردد عند الكاتب فى تحميداته ومطالع ديوانياته .

والتحميد لون من ألوان التعبير الفنى فى النثر العربى فى العصر العباسى ، أسهم فيها جمهرة من نوابغ كتّاب العربية فى ذلك العصر ، ومنهم ابن المقفع وغيره ، وقد حفلت مصادر التاريخ ، لأدب وجمهرة الرسائل بنخبة طيبة من ذلك اللون المعروف بالتحميد .

وكأن ابن المقفع وضع الأساس الذى التزمه الكتّاب ، وكان سبقه إلى ذلك اللون عبدالحميد الكاتب ، وكل الكتّاب ينهجون المنهج ذاته ، ولا يختلفون إلا اختلاف أسلوب وطريقة صوغ ، ومَنْ يطالع تحميد ابن المقفع يقارن بينه وبين تحميد أحمد بن يوسف يرى تشابها قريبا .

ويقول ابن المقفع فى تحميده : « الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يعجزه شيء ، ولا يمتنع منه ، ولا يدفع فضاؤه ولا أمره إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

« والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه ، لا معقب لحكمه ، ولا شريك له فى شيء من الأمور ، يخلق مايشاء ، ويختار ، ما كان للناس الخيرة فى شيء من أمورهم ، سبحانه وتعالى عما يشركون[1] .

ويستمر ابن المقفع فى تحميده ، يذكر الملائكة ثم الرسل ، ثم أولى الأمر مؤكدا قدرة الله ووحدانيته ، مسبحا إياه ، حامدا له ، شاكرا أفضاله مستشهدا بآى القرآن الحكيم ، وكأن التحميد خطبة دينية وعظية يلقيها على منبر ، أو درسا من دروس الفلاسفة المسلمين أو مقالة من مقالاتهم التى تؤكد الوحدانية بالدلائل والبراهين .

---

(١) ابن طيفور – اختيار المنظوم والمنثور – جـ ١٣ ص ٢٨٣ ، والجمهرة جـ ٣ ص ٥٤ ، ص ٥٠ .

وقد يطول التحميد ، وقد يقصر ، ولغسَّان بن عبدالحميدتحميد فى المطر ، جاء فيه : « الحمد لله الذى نشر رحمته فى بلاده ، وبسط سعته على عباده ، الذى لايزال العباد منه فى رزق يقتسمونه ، وفضل ينتظرونه ، لا ينقصه ماقبله ، ولا ينقضى ما بعده[1].

ولأبى عبيدالله معاوية بن يسار[2] – من كُتَّاب المهدى العباسى – تحميدات ، تشير حسب المنهج الذى عُرف عند ابن المقفع ، ولأنس بن شيخ تحميدات – أيضا .

أما كاتبنا أحمد بن يوسف فله تحميدات تختلف بين الطول والقصر ، وتختلف حسب الموضوع ، وهى جميعا على لسان الكاتب أو على لسان من يشكر الخليفة . وقد أتى بها صاحب المنظوم والمنثور ، وصاحب جمهرة رسائل العرب ، وفى مصادر شتى .

وله تحميد إلى الولاة عن الخليفة يستهله بقوله : أما بعد : فالحمد لله ذى المنن الظاهرة ، والحجج القاهرة ، الذى قطع بينه وبين عباده المعذره ورادف عليهم البيِّنة ، ومُهلة النظرة[3].

وله تحميد ثان كتبه عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود « أما بعد ، فالحمد لله الذى حفظ من دينه ما ضيَّع الملحدون ،ورأب منه ما ثلمته الصدعة ، وأعاد من حبله ما حاولوا نقضه ، حتى أعاد لعباده أحسن ألفتهم ، ورد إليهم أجمل عودهم »[4].

ولأحمد بن يوسف تحميد فى فتح السِّند ، بدأه بقوله :

« الحمد لله ولى الحمد ، وأهل الثناء والمجد ، خالق الخلق ، ومدبّر الأمر ، المسبغ على عباده ، والواجب عليهم حجَّته فليسوا يرجون إلا سعة فضله ، ولا يحذرون إلا ما اجترموا من معصيته »[5].

وخير تحميد لأحمد بن يوسف هو ذلك التحميد المطوّل ، الذى كتبه إلى المأمون ، على لسان الحسن بن سهل ؟ يشكر الخليفة على توزيره بعد قتل الفضل بن سهل فى سنة ٢٠٢ هـ .

والتحميد المطول ، ورسالة الخميس يشكلان أبرز معالم أحمد بن يوسف الفنية فى الكتابة ، ويوضحان سماته الأسلوبية ، ويحددان منهجه ، والتحميدات والديوانيات فنَّان لا ينبغ فيهما غير كاتب مقتدر مجيد ، يُسيطر على أدواته الفنية ، ويتعامل معهما بخبرة ودراية .

---

(١) ابن طيفور – اختيار المنظوم والمنثور – جـ ١٣ / ٢٨٣ – وجمهرة رسائل العرب – ص١٠٨.
(٢) ضمه المنصور إليه قبل الخلافة ، وكان الربيع بن يونس يحقد عليه ، سعى للمهدى بالزندقة وقُتل .
(٣) جمهرة رسائل العرب جـ ٣/٣٣٤ ، طيفور ١٣/٢٦٩ .
(٤) الجمهرة : ٣/ ٣٣٤/ ٣٣٥ ، المنظوم ١٣/ ٢٨٤ .
(٥) الجمهرة : ٣/ ٣٣٥ ، طيفور ١٣/ ٢٨٣ .

والتحميد يبلغ ما يقرب من عشر صفحات ، وتبدأ كل فقرة فيه بالحمد لله ، وكان أوله : « أما بعد ، فالحمدلله القادر الخالق الرازق ، فاطر السماوات والأرض ،الذى أحاط بكل شىء علما ، ونطق به خبرا ، وأتقنه حكمة وعلما ، وألّف بين مختلفه ومتفقه ، ليدّل بقوام بعضه على بعض على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه ، وأنه أحد صمد ، لا ضدّ له ولا ند ، قال عزّ وجل : ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ وحكى عن نجيه موسى عليه السلام : ﴿قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ وقال الله تعالى :﴿وكل شىء فصّلناه تفصيلا﴾[1].

وينتقل الكاتب إلى احمد الله الذى اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم ، نبيًا لرسالته ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ليدخل الكاتب – بعد ذلك – إلى الخلفاء الراشدين ثم إلى الإمام المأمون – أمير المؤمنين – « أعزّ الله نصره وجعله لكافة المسلمين غياثًا ورحمة ، فقد منح الرعية من عطفه ونظره ، واختار لولاية عهده الأمير على بن موسى الرضا ، ويمدح وزارة الفضل بن سهل ، ثم يبدأ فى شكر المأمون على لسان الحسن بن سهل ، آملا أن يكون عند حسن ظنه فى تأدية الواجب الذى أنيط به ، ويكثر من الآيات التى تدور حول الشكر والحمد .

« فإن الله تبارك وتعالى افتتح أول ما علم خلقه بالحمد ، وجعله بدء كتابه ، وخاتمة دعوة أهل جنته ،فقال عز وجل : ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ . وأعد الجنة لمن شكره والنار لمن كفر به ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ،ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾ .

ويصور الفضل الذى تفضل المأمون به عليه وهو « رياسة الحرم ، ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسهما علما فى رواية دعوة ، وقلده سيفهما ،وختمه بخاتم الخلافة ، وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرسه ، وصاحب شرطته ، وميسرة بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وخلفه ، وصيّر له الجلوس على الكرسى بحضرته ،فى صدر كل مجلس جلس ... وقدمه فى دخول دار الأمير راكبا إلى أقصى مكان ينتهى إليه أحد من بنى هاشم » .

ويختم التحميد بشكر لأمير المؤمنين المأمون ، ويعدد مناقبه « فيأيها الإمام المنصور المهدى الرشيد حزت فضائل الآباء ، واهتديت بهدى الأنبياء ، أنشكرك عن الإسلام ،فأنت القائم به الداعى له ،والناصر لحقه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المفتتح لمفتتحها عنوة ، والمتطوّل على أهلها بالرحمة ، أم نشكرك على المساجد ، فأنت الذى أسّستها على التقوى ، وعمرّتها

(١) عصر المأمون – المجلد الثالث – جـ ٣٩ جمهرة رسائل العرب واختيار المنظوم والمنثور .

بتلاوة القرآن ، أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام والحجر وزمزم ، ومشاعر الحج .. أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد ، أم نشكرك عن الأعداء ، أم نشكرك عن السلف ، أم نشكرك عن برد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وعن القضيب الذى شخص به ، حتى جعلتهما زينتك ،وسموت بهما فى أعيادك ، ثم يختم التحميد داعيا للمأمون : « بأن يتم الله نور أمير المؤمنين ، ويعلى كعبه ، ويُمَتعنا ببقائه ، ويلمَّ به الشَّعث ، ويرأب به الصدع ،ويصلح على يديه الفساد ، ويرتق به فتوق هذه الأمة ، حتى يؤتيه من نجح السعى ، ورغائب الخطى فى الدنيا ، ما يجزل عليه ثوابه فى الآخره ، وأرشد بأحبائه وأصفياءه الذين يقول لهم « فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »

إن الباعث لإنشاء هذا التحميد ، شكر الحسن بن سهل للمأمون . على توزيره بعد مقتل الفضل بن سهل وهو شكر إلى الخليفة كتبه أحمد بن يوسف .

ويمكن القول أن هذا التحميد من أطول التحميدات وأشهرها ، لإرتباطه بمناسبة تاريخية معروفة ، مقتل الفضل وتوزير الحسن والتوجه إلى المأمون ، ويمكن للباحث فى ذلك التحميد أن يقف على عدة أمور منها :

أولا : إن فن التحميدات – من فنون النثر العربى – لم يأخذ حقه فى البحث والدراسة وهو فى حاجة إلى دراسة قائمة بذاتها ،يُجمع فيها نصوصه ، وتحدد السمات الفنية – ويخلط البعض بينه وبين الرسائل الديوانية ، وذلك لسبب بسيط ، أن بعض الكتاب كان يستهل ديوانياته ببعض التحميدات ، وقد اعتبره صاحب أمراء البيان ، من مطولات أحمد بن يوسف ، وذلك صحيح ، وذكر إنه كتاب كتبه فى الإفاضة بمحامد المأمون ، وذلك صحيح أيضا ، وقال « ولعله كتبه إلى شيعة خراسان ليستميل قلوبهم . والحقيقة غير ذلك ، فالذى كتب إلى شيعة خراسان لاستمالة قلوبهم ، رسالة الخميس ، وهى من مطولات أحمد بن يوسف ، وفيها إفاضة بمحامد المأمون – أيضا .

ثانيا : تبارى الكتَّاب فى إنشاء التحميدات ، ولم يفلح فى ذلك اللون إلا قلة من خير الكتاب وكان الكاتب يحاول جاهدا ، أن يكتب فى ذلك اللون ليثبت أنه قادر على ذلك ،من الرفيع ، الذى يشبه فى بعض جوانبه الجانب التعليمى لحفظ العبارات والتراكيب والأدعية التى تدل على ثراء لغوى عظيم .

ثالثا : تنوعت التحميدات بين الطول والقصر ، أو بين الإطناب والايجاز ، يعود ذلك إلى قدرة الكاتب ، وثروته اللغوية ، وكان لأحمد بن يوسف تحميدات موجزة ، وكان له ذلك التحميد المطول ، ليدل بذلك على قدرته على الإطناب إذا أراد ، وعلى الإيجاز إذا أراد ، وربما

كان فى خطابه إلى المأمون وشكره على فضائله وتعداد مناقبه ،فرصة للإطاله والتفصيل ، وقد نجح الكاتب فى تحميده ، وقد وفق الحسن بن سهل فى اختيار أحمد بن يوسف ليكتب التحميد على لسانه .

رابعًا : سيطرت الجوانب الفقهية والوعظية على بعض أفكار التحميدات ،وبدا أشبه بمقالات المتكلمين ،التى تبحث فى أصول العقيدة ، وتعدد نعم الله سبحانه وتعالى ، وغلب على التحميدات الاقتباس من القرآن الكريم ، بما يتناسب والمعنى ، وغالبا ما تدور الآيات المقتبسة حول الحمد والشكر .

خامسًا : يُستهل هذا اللون غالبا ، وتُستهل فقراته بعبارة الحمدلله ، وتتكرر كثيرًا فى داخل السياق ، وقد يأتى التحميد قائما بذاته ، لا يوجه لأحد ، بل أن الكاتب يُسبح ربه ، ويجرّب مقدرته اللغوية على الإبداع ، وقد يكون التحميد موجهًا إلى شخص ما ، وقد يأتى الكاتب بهيئة التحميد فى بدايات بعض رسائله ، وقد يأتى بها فى ختام بعض رسائله .

سادسًا : ينوِّع الكاتب فى عباراته ،بما يتناسب وطبيعة التحميد ، بين شكر الله ،أو شكر لمتفضل من البشر ، وتخدم الألفاظ والعبارات والآيات المختارة الفكرة العامة .

وقد يعيب ذلك الفن ، أنه يستهدف العبارة أكثر من استهدافه المعنى ، وأنه فن يقوم على استعراض مهارة بيانية ، وإنه يعتمد على الإطالة غالبا ، ويسيطر عليه التقليد ، حتى أن بعض عبارات التحميد اختلطت بعضها ببعض ، وصارت أشبه بالتعابير الجاهزة ، أو الأقوال المأثورة التى لا فضل لصاحبها إلا فى استحضارها من مخزونه ، ورصّها فى السياق العام .

وتجنح التحميدات غالبا إلى أساليب الصنعة ،حتى ولو كان كاتبها من غير أنصارها ، إلا أنه يضطر إلى التعامل مع بعض فنون الصنعة اللفظية ، ولم يكن للتصوير نصيب إلا ما جاء عفو الخاطر ، فالكاتب ليس فى حاجة إلى التشبيهات أو الاستعارات وغيرهما ، إنما هو بحاجة إلى جمل متراصة ، ومترادفات متتالية ، فى عبارات منمقة ، لا تحمل عميق فكر .

ولم يهتم الباحثون بفن التحميدات ، إلا فى بعض إشارت بسيطة مختلفة مع الديوانيات ، وقد أشار إلى ذلك اللون د . الشكعة ورأى أن « هذه التحميدات سُنَّة من السنن الأسلوبية والبيانية ، التى ابتدعها عبد الحميد الكاتب ، وأظهر فيها الكثير من قدراته وبراعته .

ونهج نهجه من بعده ابن المقفع ،ثم تتابعت مدرستهما فى صناعة التحميدات حتى كادت أن تصبح بابا فنيا مستقلاً بذاته ، يطرقه الكتّاب ويتسابقون فى الإجادة فيه والتنويع فى معانيه »[1].

---

(١) د . مصطفى الشكعة – كتاب النثر ص. ٣١٤ .

الدِّيوانيَّات ورسالة الخميس

إذا كانت سمات الكاتب النفسية ، وخصاله الإنسانية ، يمكن الوقوف عليهما من خلال رسائله الإخوانية ، فإن سماته الفنية ، ومنهجه الإبداعى ، يمكن التعرف عليهما من خلال ديوانياته وتحميداته ، وذلك لسبب بسيط يتعلق بطبيعة المحتوى الذى تتضمنه الإخوانيات من شكر وعتاب وتعزية وتهنئة إلى آخر تلك المجاملات الاجتماعية المعروفة .

والكاتب فى هذه الأغراض المتنوعة ، السابق ذكرها ، يصدر عن ذاته ، ويُعبِّر عن شخصيته ، ويصور ما يحب أو يكره ، بينما فى ديوانياته يصدر عن رأى الخليفة أو الحاكم أو القائد أو الأمير ، ويعبر عن سياسة دولة ، ويترجم عن فكر سياسى حفظه له ، وعن عقيدة حزبية دبَّرت وأحكم تدبيرها ، وما على الكاتب إلا أن يصوغ تلك الأفكار ، ويترجم هذه الاتجاهات فى صياغة فنية .

يُضاف إلى ذلك هذا التبرير كون الرسائل الإخوانية تتصف بالإيجاز – غالبا – بحيث لا تظهر مقدرة الكاتب ظهورًا تامًا ، مثلما تظهره الديوانيات المطولة ، التى تهتم بالجليل من الأمر – غالبا – وتسجلها مظان التاريخ كوثيقة يعتمد عليها .

وشهرة الكاتب تعود إلى ديوانياته أكثر من إخوانياته ، وقد نال أحمد بن يوسف الحظوة لدى الخلفاء العباسيين ، وسجل التاريخ اسمه مع تلك الرسائل التى ترتبط بخلع الأمين ، أو برسالة الخميس وبغيرهما ، وكان من بين تلك الطائفة من الكتَّاب الذين انقطعوا لخلفاء بنى العباس ، وارتبط فنهم بتسجيل الوثائق والوقائع .

وقد كان أبو أيوب المرزبانى الأهوازى كاتبا لأبى العباس وأبى جعفر ، ومن بعده كان كاتب موسى الهادى إبراهيم بن ذكوان الحرانى ، وكان كاتب هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكى ، والفضل بن الربيع وإبراهيم بن صبيح ، وكتب الفضل بن الربيع – أيضا – لمحمد الأمين ، وكان للمأمون كتّاب معروفون منهم الفضل بن سهل والحسن بن سهل وعمرو بن مسعدة ثم أحمد بن يوسف .

ولا يشترط فى كاتب الإخوانيات ما يشترط فى كاتب الديوانيات ، وقد وضع ابن الأثير والنويرى والقلقشندى وغيرهم الأحكام لكاتب الديوانيات ، منها مايتعلق بأحكام القضاء والشرائع ، فللكتاب أحكام بيِّنه كأحكام القضاة يعرفون بها ، وينسبون إليها ويتقلدون التدبير ، وبهم تقام أمور الدين وأمور العالمين »[1] .

---

(١) ابن عبدربه : العقد الفريد . جـ ٤ . ص ١٦٠

ويعبرّ أحمد بن يوسف عن جمال الكتابة فى رأى سجله له صاحب العقد الفريد ، حين قال أحمد : « وما عبرات الغوانى فى خدودهن بأحسن من عبرات الأقلام فى خدود الكتب »[1] .

وقيل للشعبى : بأى شىء تعرف به عقل الرجل ، قال : إذا كتب فأجاد ، وقال الحسن ابن وهب « الكاتب نفس واحدة تجزأت فى أبدان متفرقة »[2] .

ويرى د . طه حسين أن هذه الرسائل كانت تصدر عن الخلفاء والأمراء ، كانت فى أول أمرها يسيرة سهلة لا تكلّف فيها ، إنما كانت ممثلة للطبيعة البدوية العادية ، ولم تظهر الرسائل الفنية التى تألّق أهلها ، واتخذوها موضوعا للكتابة الفنية فى هذا العصر إلا فى آخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى »[3] .

رسالة الخميس

لون من ألوان الرسائل الديوانية التى عرفها بعض الكتاب فى العصر العباسى ، ولم يعرف فى غيره من العصور ، وهى ليست كثيرة ، ومع قلتها تملك جانبا عظيما من جوانب التعبير والبناء الفنى ، فموضوعها جليل ، تهتم بالسياسة ، وتؤيد الدعوة العباسية ، وتشيد بالخليفة ، وتستميل قلوب الرعيّة إليه ، خاصة الجند ، وهم نواة الجيش ، وعماد الدفاع ، وسبيل القوة والأمن ، وترسم الرسائل « الخطة المستقبلية » ، وتحدد أهداف القائم على أمر الرعية .

وقد عُرف التاريخ الأدبى بعض الرسائل ، من ذلك النوع ، ووردت نصوصها فى مصادر التاريخ والأدب . فقد عُرفت رسالة خميس للكاتب عمارة بن حمزة كاتب المنصور، وهى قبل رسائل الخميس لأحمد بن يوسف بطبيعة الحال ، ولعل هذا التقليد بدأ فى خلافة المنصور على يد كاتبه عمارة ، وقد وجهت إلى شيعة الخليفة من أهل خراسان ، فالجند منهم ، وقد لفت عبد الله بن المقفع نظر المنصور إلى رعايتهم، والاهتمام بهم، فى رسالته المعروفة برسالة الصحابة .

وقد عُرفت رسالة خميس أخرى ، لإبراهيم بن المهدى ، فلما ثار العباسيون ببغداد على المأمون ونصبوا عمه إبراهيم بن المهدى خليفة عليهم ، عمل إبراهيم لنفسه رسالة خميس ، والمعروف عنه البلاغة والفصاحة ، وقيل أنه لم يعرف بين أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانًا ولا أحسن منه شعرًا .

وعُرفت رسالة خميس ثالثة لإبراهيم بن العباس ، كتبها للخليفة المتوكل ، وهى بعد رسالة أحمد بن يوسف بالطبع ، ولعل رسالة ابن العباس آخر رسالة خميس ، فلم تحدِّثنا المصادر عن رسالة خميس بعدها .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد – جـ – ص ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق : والصفحة ذاتها .

(٣) د .ط، حسين – تاريخ الأدب العربى . ص ٤٣٦ .

وقد ذكر ابن طيفور فى المنظوم والمنثور صدر رسالة إبراهيم بن المهدى ، وصدر رسالة إبراهيم بن العباس ، والظاهر أن التحميد كان غالبا عليهما ، فلم يهتم بتسجيل أفكار الرسالة أو وصفها قدر الاهتمام بمطالعهما فقط .

ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة الخميس لأحمد بن يوسف ، حظيت بشهرة لم تحظَ بها رسائل الخميس الأخرى ، وقد أشاد بها ابن النديم فى الفهرست ، وربما صنف ابن النديم كاتبها فى البلغاء العشرة من أجلها ، وجعلها ابن النديم من الكتب المجمع على جودتها .[1] .

ويرى بعض الباحثين أن الرسالة عرفت برسالة الخميس لأنها كانت تلقى يوم الخميس بخراسان فى جمع من الناس ، « أولئك الذين يحتشدون ليحددوا ولاءهم لبنى العباس وبيعتهم للخليفة »[2] . وربما عرفت تلك الرسالة بالخميس لارتباطها بالجيش والجند ، فكلمة الخميس تعنى الجيش عند العرب فى شعرهم وفى أيامهم وهى توجه – دوما – إلى أهل خراسان ، وجند الخليفة من خراسان ، والخليفة يستميل قلوبهم ، خشية تمردهم وخروجهم عليه ، والرسالة تجمع أفكارا حربية وتوجهات عسكرية لا تليق إلا بالجند والجيوش . كما تشمل وعودا جميلة لمن يطيع أمر القائد ويلتزم بالانقياد .

وقد جرت عادة بعض خلفاء بنى العباس على تكليف أبرع الكتّاب فى بلاطهم ، بكتابة رسالة الخميس ، لتأييد الدعوة العباسية ، وتوضيح شرعيتها ، ومساندة الخليفة والإشادة بمناقبه ، وبيان أنه أحق الناس بالخلافة ، وأولى بها من سواه .

ولم تحدثنا كتب التاريخ عن رسالة الخميس بعد عصر المتوكل ، وربما يعود سبب انقطاعها إلى سيطرة الترك على الخلفاء ، واستيلاء الديلم على بغداد وبداية انهيار الدولة الموحّدة ، وتفرّعها إلى دويلات مستقلة فى المشرق والغرب .

وربما كان نجاح أحمد بن يوسف فى الرسالة التى كتبها إلى المأمون فى تبرير قتل الأمين ، وإعجاب المأمون بها ، والنجاح الذى حققه أحمد بن يوسف فى ذلك التحميد الذى كلف به على لسان الحسن بن سهل إلى المأمون ، دافعًا إلى اختيار أحمد بن يوسف دون غيره – من كتّاب الديوان لإنشاء رسالة الخميس التى يقول عنها د . شوقى ضيف : وهى الرسالة التى كان يوجهها خلفاء العصر العباسى الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان وقادة جيوشهم وغيرهم يبسطون فيها حقهم فى الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها ، لما امتاز به من مناقب حميدة ، وما ينبغى على أهل خراسان من الولاء له ، وأحكم ابن يوسف الرسالة إحكاما دقيقا ، وأطال فيها نفسه ، حتى بلغت نحو خمس عشرة صفحة[3] .

---

(١) ابن النديم : الفهرست . ١٨٣ .

(٢) د . نبيه حجاب – بلاغة الكتاب فى العصر العباسى – ص ٢٣٢

(٣) د . شوقى ضيف – العصر العباسى الأول – ص ٥٤٤ .

البناء العام لرسالة الخميس

المطلع : يبدؤها الكاتب بقوله :

« من عبد الله الإمام[1] المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق ، والناصرين للدين من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام ، سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، أما بعد :

فالحمد لله القادر القاهر ... .

وظل الكاتب فى تحميدات ، فى محاور متتالية ، وهى :

(أ) حمد الله سبحانه وتعالى ، وذكر بعض صفاته ، فهو القادر القاهر الباعث **الوارث** ، فاطر السموات والأرض ، ومن دلائل قدرته الشمس والقمر والنجوم والأرض ، والنبات والشجر ، والليل والنهار ، والأنهار والجبال ... . إلى آخر آيات الله عز وجل ، ويستشهد فى ذلك كله بآيات من القرآن الكريم .

(ب) ذكر أول الخلق آدم عليه السلام ، الذى علم الله سبحانه وتعالى الأسماء كلها ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وكرم ولده وفضَّلهم « ولقد كرمنا بنى آدم وجعلناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

(جـ) الحديث عن رسل الله عز وجل ، وخاتمهم النبى الأمى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه الله إلى قوم يعبدون أصناما بكماء وحجارة صماء وأخذ يدعو إلى سبيل ربه ، فمثلا أمره تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، « حتى أعز الله كلمته ، وأظهر دعوته ، وأكمل لعباده دينهم الذى ارتضى لهم .

(د) الإشادة بأولى الفضل ، الذين تحملوا أعباء الخلافة من أهل البيت ، عملا بالمودة فى القربى ، مؤيدا نظرية إرث الخلافة ، ويستشهد بقوله تعالى « ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ و﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

ويظل الكاتب يسير مع الخلفاء إلى أن يصل إلى المأمون .

أهل خراسان :

ويوضح الكاتب فى هذا المحور الفكرى ، اهتمام أمير المؤمنين المأمون بهم ، ويشير إلى الأمين المخلوع ، ويؤيد قتله ، ويمتدح أهل خراسان بأمور ثلاثة هى :

١ – نصرة أهل البيت النبى وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين .

---

(١) د . شوقى ضيف – العصر العباسى – ص ٥٤٦ .

٢ – ما آثرهم الله به من نصرته فى دعوته الثانية بعد قتل الأمين .

٣ – صحة الضمائر .

ويشترك أهل خراسان مع غيرهم من المسلمين فى أمور ثلاثة هى :

١ – العهد بالوفاء لأمير المؤمنين ، وموقفهم من المخلوع .

٢ – الاستفادة والاعتبار بما يحدث لمن غدر للاتعاظ .

٣ – اجتماع أهل الفضل من المسلمين للدعوة إلى أمير المؤمنين .

وقد تحول أحمد بن يوسف بهذا التحميد « إلى مايشبه مقاله من مقالات المتكلمين فهو يورد الحُجج على وجود الله الذى أنشأ العالم ، وخلق الإنسان فى صورة مقدرة محكمة ، وقد أعطاه من العقل مايجعله إذا فكر فى خلق السماوات والأرض يؤمن بأن للعالم إلها لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لابد له من منظِّم .

ويُبالغ الكاتب فى تأييد الدعوة العباسية ، ويخلع عليها طابع الوراثة ، ويلوى أعناق آيات القرآن الكريم ليدلل على شرعية الوراثة ، والأنبياء لا يورثون ، وحتى يدخل فى روع الناس أنها مؤيدة بالقرآن » « وهى نفحة تتكرر عند الإمامية تكررها عند العباسيين »[1]

والكاتب يُدلِّل أهل خراسان ، على لسان المأمون ، ولاغرو فالرسالة موجهة إليهم ، دفعه إلى ذلك استقراء الأحداث ومنها :

١ – نشأة الدعوة العباسية بخراسان أول أمرها ، وقيام الفرس بالنصيب الأكبر فى تأصيلها .

٢ – القائد أبو مسلم الخراسانى ، ودوره فى نشأة الدولة العباسية .

٣ – دور أهل خراسان فى القضاء على الفتنة بين الأمين والمأمون .

٤ – أم المأمون فارسية وقيل خراسانية .

٥ – وقد أضحى للخراسانيين عند العباسيين ذات المكانة التى حظى بها أهل الشام عند الأمويين .

٦ – قادة الجيوش من الجند من أهل خراسان ، ورسالة ابن المقفع الصحابة تؤكد ذلك أيضا .

شكر المأمون :

فقد أحاطهم برعايته ، وهو يضمن لهم خير الجزاء ، فقد رفع درجاتهم ، ورفع من خساستهم ، وأعلى من أقدارهم . لذا وجب المحافظة على النعمة وعدم الاغترار بها « وإذا أنعمنا

---

(١) د . الشكعة – النثر – ص ٣١٩ .

على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » .

عهد وتحذير :

يجب على جماعة شيعة أمير المؤمنين ، أن يتذكروا نصر الله على الخارجين ،المارقين ، ويتذكرون أنهم حماة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، والتحذير من المنافقين المداهنين والتحذير من الركون إلى الراحة ، وضعف العزائم ، والتحذير من الغرور خشية زوال النعمة ، وينصحهم باستصلاح أنفسهم ، وبالانتصار على أهوائهم ، ويأمرهم بالطاعة .

أما عن أمير المؤمنين فإنه :

يلتزم بتوريث الحكمة والحق سنة عليه فى أخلاقه ، ويرى ورائة التركة فريضة واجبة ، ويحذرهم من الغدر ، ويلتزم بإصلاح أمرهم ، حتى يأنس بهم المؤتمرون ، ويقتدى بهم التابعون .

ويأمل الخليفة أن يجمع الله على رضاه ألفتكم ، وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يكفيكم كيد الكافرين ، وحسد الباغين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ماحفظ به إمام هدى فى أوليائه وشيعته .

ويستقرأ الكاتب بعض أحداث التاريخ ، دون التحديد أو التركيز ، ويهدف إلى وجوب الطاعة شيعة خراسان وانقيادهم ، وضرورة الامتثال لأمير المؤمنين ، ومن يغدر فإن العقاب معروف .

ويظل الكاتب يحذر ، وينصح ، ويأمر ، ويعد ، ويتوعَّد ، ويُمنِّى الخراسانيين أحلى المنى وبذكرهم بآلاء الخليفة عليهم ، ويرسم لهم صورة مشرقة للغد فى ظل طاعة المأمون .

وهذه الرسالة يستطيع الباحث فيها أن يقف على عدة أمور منها :

أولا :

الهدف هدف سياسى ، وضعت الرسالة فى خدمة الدعوة العباسية ، ومحاربة الخارجين ، والإشادة بآلاء الخليفة ، وبالنظام الذى يقوم على الإرث واستلهمت وقائع التاريخ للتحذير من بغية العصيان ، وحاول الكاتب توظيف بعض آيات القرآن الكريم فى خدمة القضية العباسية والخليفة العباسى .

وجاءت الرسالة أشبه بعهد قطعه الأمير على نفسه ، ويقطعه الخراسانيون على أنفسهم ، وقد أدت الرسالة وظيفتها السياسية أكثر مايؤديه الشعر لاعتمادها على الحوار والمنطق ومخاطبة العقل ، وبعدها عن الخيال والعاطفة ، حتى عُدَّت الرسالة وثيقة تاريخية وعهدا ودستورا بين الحاكم والرعية .

ثانيا : المقام والمقال :

الرسالة مناسبة للشخصية التى صدرت عنها وهى شخصية المأمون ، ومناسبة لعقلية من صدرت إليهم ، وهم الخراسانيون ، وبرع الكاتب فى إرضاء الطرفين ، مراعيا أصول الكتابة الفنية الواعية فى مخاطبة كل فريق على مقدار وعيه عملا بالتناسب بين المقام والمقال .

وقد عبرت الرسالة عن فكر الحاكم ، ورؤيته ، ورعايته للرعية والجند ، وبنص العسكرى فى الصناعتين على ضرورة وعى الكاتب بالمقامات فى الخطاب والكتابة . وفلاتكلم سيد الأمة بكلام ، ولا الملوك بكلام السوقة ، لأن ذلك جهل بالمقامات ، وما يصلح فى كل واحد منهما فى الكلام ، وأحسن الذى قال لكل مقام مقال ، وربما غلب سوء الرأى ، وقلة العقل ، على بعض علماء العربية ، فيخاطبون السوقى والمملوك الأعجمى بألفاظ أهل نجد ومعانى أهل السُّراه ، وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام ، فالواجب أن تقسَّم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السَّوقى بكلام السوقة ، والبدوى بكلام البدو ، ولايتجاوز به إلا مالا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتنعدم منفعة الخطاب »[1]

وقد أجاد الكاتب فى تصوير شخصية الخليفة ، والتزم بما يجب أن يكون عليه الخطاب الفنى فى رسالة موجهة إلى جند خراسان العجم ، وكأن الكاتب التزم بطبيعة العقلية الصادر عنها الرسالة ، وكأنه أراد لها الحفظ والبقاء فى وثائق التاريخ ، ولايغيب على الأذهان أنها تعبر عن منهج كاتب وبلاغة يفخر بهما .

وقد استوقفت هذه الظاهرة د. الشكعة الذى عبّر عن شكه فى فهم أهل خراسان الرسالة البليغة ، ولكنه دفع هذا الشك بمبرر حركة التعريب والاستعراب بين العجم فإن الحديث عن صلة الرسالة بأهل خراسان فرس أعجام ليسوا بالعرب ، والرسالة مكتوبة بلغة عربية رفيعة ، مزدحمة بالمعانى ، غنية بالصور مليئة بالألفاظ التى يحتاج بعضها إلى شرح وتأويل ، وليس من المعقول أن توجه رسالة طويلة كهذه إلى قوم لايفهمونها ، ولايحسنون تذوق معانيها »[2] ثم يدفع د . الشكعة الشك فى قوله « إذن فلقد كان أهل خراسان خاصة وأهل فارس عامة يعرفون العربية ، ويجيدونها ، لقد ختمت عقليات القوم بالخاتم العربى ، وأصبحت لغة الكتابة والقراءة والثقافة هى اللغة العربية ، كما أصبحت العربية لغة الحديث والتفاهم ، بين الكثرة الساحقة من خاصة القوم وصفوة المثقفين بينهم ، وهى عملية استعراب جديدة لقوم كانوا يتعالون على العرب ، وينظرون إليهم نظرة الحضرى إلى البدوى ، ونظرة المتمدين إلى المتخلف »[3] إن الفترة

(١) العسكرى – الصناعتين – ١١٤ .
(٢) د . الشكعة – النثر – ٣٤٠ .
(٣) د . الشكعة – النثر – ص ٣٤١ .

التى وجّهت فيها الرسالة لأهل خراسان ، كانت بعد انتشار اللغة العربية ، وازدهارها ، ونبوغ الكثيرين فيها ، حتى من أهل خراسان خاصة والفرس عامة ، وأضحوا يتنافسون على الإجادة فيها حتى ينالوا المكان اللائق فى الجيش أو فى الديوان .

ثالثا : بلاغة الرسالة :

ترجع بلاغة الرسالة واعتبارها إحدى الكتب المجمع على جودتها ، إلى ذكاء الكاتب ونباهته ، فقد عبَّر عن وجهة نظر الحاكم تعبيرًا دقيقًا ، يدل على فهمٍ واعٍ ، للخليفة الذى أحبّه وقرَّبه ، وقدَّمه على غيره من الكتّاب ، فلم يكن الكاتب بعيدًا عن فكر الحاكم ، وكان الكاتب يعرف عقلية الجند ، ويعرف مخاوف ومطامع أهل خراسان ، ويعلم حدود أحلامهم ، كما كان الكاتب ملمًّا بأهم أحداث التاريخ ، فعبّرعن هذا كله فى حسٍّ مرهف ، يفوق تعبير وتفكير صاحبها ، إذا حاول أن يكتب أو يعبّر ، فكأنه أكثر حرصا وأشد طمعا من الخلافة فى تحقيق أمن البلاد واستقرارها .

رابعًا : الرسالة والخطبة :

مالت الرسالة فى بعض جوانبها إلى قالب الخطبة فى تكوينها وهدفها ، فقد ألقيت الرسالة على شيعة خراسان ، ولكون الخطبة تثير حماس المستمعين وتحدد اتجاه الحاكم ، فقد كانت الرسالة كذلك .

ولقد بدت بعض الصفات التى تُقرِّب بين الفنين الرسالة والخطبة ، منها أن ألفاظ الخطبة والرسالة ألفاظ سهلة واضحة ، بعيدة عن الغرابة والحوشية ، وأنهما يخاطبان العقل والمنطق مما أدى بهما إلى البعد عن التوسل بالخيال وأساليبه وصوره .

كما أنَّ الأفكار قد سيطرت على الرغبة فى إظهار القدوة على الابتداع والابتكار ، إضافة إلى هذا أن الأفكار التى تدور حولها الرسالة هى ذات الأفكار التى تدور حولها الخطب فى مثل هذه المناسبات غالبا .

وقد اتفقت فواصل الرسالة فى أغلب مواضعها مع فواصل الخطبة ، وقد أوضح العسكرى فى الصناعتين مدى التشابه الذى يقع بين الرسائل والخطب فى كونها « كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه ، وقد يتشاكلان من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب ، مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعُل رسالة ، فى أيسر كُلفة ، والخطابة والكتابة يختصمان بأمر الدين والسلطان[1] .

---

(١) الكلاعى : أبى القاسم محمد بن عبد الغفور – الكلاعى الأشبيلى (أحكام صنعة الكلام) – ت د . محمد رضوان الداية – عالم الكتب – الطبعة الثانية– ١٩٨٥ – ص ٢٤٣ .

ورسالة الخميس تقرأ وكأنها خطبة إلى جند خراسان ، وقد فاقت الخطبة فى كون الكاتب قد تفرَّغ لها ، ولم تكن شفاهة أو مرتجلة ، بل أُعدَّت إعدادًا طيبا جعلها رسالة باقية .

خامسًا : البناء الفنى :

يشهد البناء الفنى لرسالة الخميس لصاحبها بالمقدرة والإجادة ، ويبدو ذلك فى مطلع الرسالة ، وفى تتابع أفكارها ، وترتيبها الترتيب المنطقى ، وكذلك يبدو فى الخاتمة الطبيعية التى تتفق وطبيعة القول .

أما عن المطلع فقد أجاد فيه أحمد بن يوسف حتى أضحى من التحميدات المعروفة التى يقتدى بها الكتّاب يتابع الأفكار فكرة ففكرة ، حتى وصل إلى خاتمة رسالته ملتزما بما يجب أن تكون عليه خواتيم الرسائل ، كما أشار إليها الكلاعى صاحب صنعة الكلام حين قال : « يجب أن يستجاد آخر الرسالة ويتقن ، حتى يكون قفلاً لمحاسنها كما أن أولها مفتاح لذلك ، فلا يكون الكاتب كاتبا ، حتى لا يستطيع أحد تأخير أول كتابة وتقديم آخره وأفضل الكتّاب ما كان فى أول كتابه دليل على صاحبه » .

بعض الظواهر الأسلوبية فى مطولات أحمد بن يوسف :

تبدو سمات الكاتب الفنية فى مطولاته أكثر وضوحا منها فى غيرها ، فالكاتب فى مطولاته ، يُبدع ويجتهد ليرضى أذواق النقاد ـ وليحقق الهدف الذى من أجله أُنشئت تلك المطولات ، بينما فى إخوانياته أو فى التوقيعات فإن الايجاز الشديد قد لا يظهر السمات الكاملة لأسلوب الكاتب ، فهو فى إخوانياته يترك النفس على سجيتها ويُعبِّر عن ذاته ، فهو يخاطب إخوانا له .

أمَّا المطولات التى عادة ما تدور بين الدِّيوانيات والتّحميدات فإنه يُعبِّر عن رأى السلطان ، ويعلم أن المطوّلة وثيقة مهمة .

وقد زاد الاهتمام بالدراسات الأسلوبية زيادة ملحوظة ، واهتم نقاد الغرب بهذا الاتجاه الأسلوبى ، وتأثر بعض نقاد الشرق بهم ، فترجموا أقوال الغربيين ، وأضافوا إليها لتحديد هذا المنهج الأسلوبى وتوضيح مصادره واتجاهاته .

والأسلوبية طريقة من طرق درس النص الأدبى ، وهى محاولة لمعالجة الأثر الأدبى لاستظهار ما يمكن فيه من قيم جمالية ، تظهر طريقة الكاتب ، وتوضح منهجه فى التعبير ، ومعالجته لمادة الكتابة والتعامل مع المفردات والتراكيب ، فى محاولة منه لإثارة عواطف القُرَّاء فهى تحدد طريقة تعامل الكاتب مع اللغة وطريقة صياغتها لإحداث الأثر المنشود .

وقد عُرِّف الأسلوب بأنه « الطريق أو المذهب أو الاتجاه »[١] . وأن « الأسلوب طريقة التعبير ، ومنحى الرجل فى صياغة أدواته ووسائله التعبيرية[٢] . ويربط الجرجانى بين جهد الكاتب فى صياغة لغته فى أسلوب معين وجهد الصائغ فى صياغة الذهب والفضة على شكل ما .

ويرى هوجو مونيس[٣] « أن الأسلوبية جديدة فى لغتنا ، ويرجعها كروميناس إلى القرن العشرين » وهى تهتم بدراسة الصور البلاغية التى تحسن التعبير من صور واستعارات والجرس المتعدد والتكرار والمعجم والعروض وإيقاع وسلاسة اللفظ .

ويعّرفها بوفون[٤] . بأنها طريقة الأديب فى أدائه وتعبيره وسياق تفكيره ، فى محاولة لمعرفة الطابع الوحيد الذى يتميز به أسلوبه من أقرانه الكتاب .

ويرى ريفاتار[٥] . أنها علم يُعنى بدراسة الآثار دراسة موضوعية ، وهى تنطلق من اعتبار الأثر الأدبى بنية ألسنية تتحاور مع السياق المضمونى تحاورا خاصا .

أما بير جيرو[٦] . فيرى أن الأسلوب هو وجه للملفوظ ،ينتج عن اختيار أدوات التعبير ، أو هو استخدام أدوات التعبير استخداما واعيا لغايات جمالية ، يدخل فى إطار الإلمام بالأصوات والصرف والنحو وعلوم الدلالة .

ويعرفها جاكسون[٧] بأنها . بحث عما يتميز به الكلام الفنى عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر فنون أصناف الفنون الإنسانية ثانيا .

وتنحصر مهمة الدراسة الأسلوبية فى معالجة النص الأدبى على أساس منطلقات مبدئية تحتكم إلى فاعلية معرفية ، وقد يقتصر التفكير الأسلوبى على النص فى حد ذاته بمعزل عن كل ما يجاوره من مقاييس تاريخية أو نفسية[٨] .

والأسلوبية علم هدفه الكشف عن العناصر المميّزة التى بها يستطيع المؤلف الباحث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المتقبّل ، والتى بها يستطيع أن يفرض على المستقبل وجهة نظره فى الفهم والإدراك ،فهى تُعنى بالعلاقة الحادثة بين المتقبّل والنص ، أكثر مما تعنى بعلاقة النص

---

(١) لسان العرب – مادة سلب

(٢) الأسلوب والفرد – المجلة العربية د . وليد قصاب – العدد ٥ أغسطس ١٩٨١ ص ١٨٨ ص ٩٠ .

(٣) الأسلوب والأسلوبية – د . زكى المحاسنى .

(٤) الأديب والأسلوب – د . زكى المحاسنى .

(٥) ريفاتار – محاولات الأسلوبية الهيكلية – تقديم – د .عبد السلام المسدى ص ٢٧٧ .

(٦) بيير جيرو – مهمات الأسلوبية – ترجمة منذر عياشى – الموقف الأدبى – عدد ٢٠٤ ص ٣٥ .

(٧) د . عبد السلام المسدى الأسلوب والأسلوبية – الدار العربية – تونس – ١٩٨٣ – ص ٣١ .

(٨) المرجع السابق ص ٣٥.

بصاحبه ، وهدف دراسة الأسلوب : « استكشاف نمط الإبداع الفنى كما تحقق بواسطة أدوات لغوية مخصوصة ، وهو فى بحث دائم فى داخل النص الإبداعى عن جماع الخصائص التى تحولت فى سياقها المحدد ذاك إلى مميزات فنية .[1] .

إنَّ دراسة الأسلوبية تهتم بالبحث عن علة الخطاب الأدبى مزدوج الوظيفة ، حيث يؤدى ما يؤديه الكلام عادة وهو إبلاغ الرسالة الدلالية ، ويسلط مع ذلك على المستقبل تأثيرا ضَاغِطًا به ينفعل للرسالة المبلغة انفعالات ما[2] ومهمة دارس الأسلوب أن يبحث فى الأسس غير المنظورة التى تعامل معها الكاتب ، فكان الإبداع ، وكان التأثير .

وقد اتخذ بعض الدارسين من شخصية الكاتب سببا فى اختلاف الأساليب وتنوعها ، وردد معظم الباحثين فى الغرب والشرق مقولة « بوفون » وهى الأسلوب هو الإنسان . Le Style C'cest l'homme أو الأسلوب هو الرجل ذاته ، وصاغ الباحثون العبارة ذاتها فى جمل أخرى ، فقال بول كلولال الأسلوب خاصية طبيعية يوهب الإنسان إياها ، هو نغم شخصيته [3] .

ودى لوفر يقول : الأسلوب إمضاء وخاتم أو طابع وتوثيق[4] . ولوروند يطلق كلمة الأسلوب على ماندرودتى من خصائص الخطاب التى تبرز عبقرية الإنسان وبراعته فيما يكتب .

ويرى دى لوفر أن الأسلوب الفردى حقيقة ، بما أنه يتسنى لمن كان له بعض الخبرة أن يتميز عشرين بيتا من الشعر إن كانت لراسيد Racide أم لكورنك وأن يميز صفحة من النثر إن كانت لبلزاك Balzac أم لستا ندال Stendnd'nal .

إن الأسلوب هو طريقة الكتابة ، ومنهج تعبير الكاتب ، وفن التراكيب ، وإيراد الفكرة فى صورة مؤثرة بليغة ، ترجع إلى جمل ذاتها ، وإلى طريقة تركيب هذه العبارات ، وإلى طريقة تناول الألفاظ ، وانتقائها من المعجم ، وإلى تعامل الكاتب مع البديع والخيال ، وإلى الإطالة أو الإيجاز ، ولا تعد الظاهرة ظاهرة أسلوبية ، إلاَّ إذا ترددت كثيرًا وتكررت ، وألحَّ الكاتب عليها ، حتى تضحى علامة من علاماته وظاهرة أسلوبية فى كتابته .

والكاتب أحمد بن يوسف ، لكتابته بعض الظواهر الإسلوبية ، عرف بها ، وأشاد به من أجلها النُّقَّاد ، وقرّبه الخلفاء ، وفُضّل على غيره فى التعبير عن المهام الخطيره ، اختاره طاهر ابن الحسين والفضل بن سهل والحسن بن سهل وأحب المأمون كتابته ، فما أهم تلك الظواهر الأسلوبية التى كان أحمد بن يوسف يحافظ عليها فى مطولاته حتى حظيت برضا الأحباء والنقاد .

---

(١) الأسلوبية بين المعارف الموروثة والمعارف المستحدثة – د .عبد السلام المَسدى – ص ٥٨ .
(٢) المَسدى : الأسلوب والأسلوبية : ص ٣٦ .
(٣) المرجع السابق .ص ٦٨ .
(٤) المسدى : الأسلوبية : ص٧٠ .

أولى تلك الظواهر التى تبدو فى مطولاته « الإطناب » فقد بلغت رسالة الخميس أكثر من خمس عشرة صفحة ، وبلغ التحميد ما يقرب من ذلك أيضا ، وقد أفاد للإطناب الكاتب فى أن يُجيد ، وفى أن يعبر عما يُريد ، وفى إبراز الكثير من الظواهر الأسلوبية ، التى أتيحت الفرصة لها فى التكرار .

وقد أشاد البلغاء بالايجاز ، وعرّفه ابن الأثير[1] بأنه حذف قيادات الألفاظ ، وهو أمر لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة ، لعلو مكانه ، وتعذر إعطائه ، ورب لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ، ويرى صاحب حسن التوسل[2] أن الايجاز مطلوب مرغوب من الكتاب « إذا كتب فى أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه وإلى مقدمى الجيوش ، والسرايا فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط ،« ويرى السكاكى[3] أن الإيجاز أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط » ، ويحدد قدامه[4] الطبقة التى يصلح الإيجاز فى مخاطبتها بأنها طبقة الخواص وذوى الأفهام الثاقبة الذين يجترئون بيسير القول عن كثيره ، وبمجملة عن تفسيره ، وفى الجوامع التى تعرض على الرؤساء ،فيقفون على معانيها ، والإطالة تصلح فى مخاطبة العوام ، ومن ليس من ذوى الأفهام ، ولا يكتفى من القول بيسيره ، وقد أشاد د . طه حسين[5] ببلاغة أرسطو وإقليدس لأنهما « لم يأتيا فى شىء من كلامهما بما يتهيأ لأحد أن يختصره ، أو يأتى بأقل من لفظهما » ويضرب المثل بجالينوس ويوحنا النحوى فى الإطالة والإسهاب .

وتظهر بلاغة الكاتب أحمد بن يوسف فى إيجازه فى إخوانياته ، وفى إطنابه فى مطولاته ، فإن مقتضى المقام يجبر الكاتب على الهيئة المناسبة من التعبير ، والنابه الذى يُجيد النقيضين إجادة المتمكن ، فلا يمكن القول أن الإطناب ظاهرة أسلوبية عند الكاتب دون الإيجاز ، ولا يمكن القول أن الكتّاب والبلغاء أعجبوا بالإيجاز دون الاطناب .

وقد كان الكاتب يميل إلى الإيجاز فى رسائله وتوقيعاته ، وقد ذكرت مصادرالأدب والتاريخ الأخبار التى تؤكد إعجاب المأمون بالايجاز ، فقد كان الخلفاء يأمرون كتابهم بالايجاز ومراعاة لروح اللغة ، واقتداء بسيرة أئمتها ، وحرصا على ألا يصدر عن دواوينهم ما تنبو عنه الأذواق ، ويغنى قليله عن كثيره .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر – ت – الحوفى – نهضة مصر – القسم الأول جـ ٢ ص ٢٥٢ .
(٢) الحلبى – حسن التوسل إلى صناعة الترسل – أكرم عثمان يوسف – ١٦٨٠ – ص ٣٣٠ .
(٣) السكاكى : مفتاح العلوم – ت :نعيم « زرزور – العلمية – بيروت – الأولى – ١٩٨٣ – ص ٢٧٧ .
(٤) قدامة بن جعفر : نقد النثر ص ٩٧ .
(٥) د . طه حسين : مقدمة نقد النثر ص ٢٢ .

وقد مُدحت الإطالة ، كما مدح الإيجاز ، وقيل البليغ من يحوك الكلام على حسب الأمانى ، ويحيط الألفاظ على قدود المعانى »[1] .

ويذكر صاحب حسن التوسل[2] أن الإطناب مطلوب فى إصلاح ذات البين وإذا كتب عن الملك أو الخليفة فى أوقات حركات العدو إلى أهل يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم ، فليبسط القول فى وصف العزائم وقوة الهمم وشدة الحمية لدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة وتقوية القلوب ، وإذا كتب التهانى بالفتوح فليس إلا بسيط الكلام والإطناب فى شكر نعم الله والتبرى من الحول والقوة إلا به ؟ ووصف ماأعطى من النصر ، وذكر ما منح من الحسنات وتعظيم ما يسر من الفاتح ، ووصف العزائم والإقدام والصبر .

وإن طبيعة الموضوع فى مطولات أحمد بن يوسف فرضت عليه الإطناب ، حين أراد أن يصنع دستورًا من الحاكم للجند فى رسالة الخميس ، يذكرهم بآلاء الخليفة عليهم ، ويعذّرهم من الخروج والثورة ، ويعدهم بالخير إذا أطاعوا ، كما كان فى تحميده ، يشكر الخليفة على فضله ، ويُعلى من قدر الحاكم ، ويؤيد دعوته ، ويرى العسكرى[3] أن الاطناب مطلوب فى الكتب « التى تدور حول الأمر والنهى ، سبيلها أن تؤكد غاية التأكيد ، وكذلك فيما يكتبه العمال إلى الأمراء فمن فوقهم ، وكذلك الكتب الصادرة عن السلاطين فى الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلة ، للترغيب فى الطاعة والنهى عن المعصية .

وكانت مطولات الكاتب أحمد بن يوسف تدور حول هذه المحاور التى تقتضى الإطناب ، فكان فى توسله به بلاغة .

ثانيًا : الاقتباس من القرآن الكريم :

سمة غالبة فى مطولات أحمد بن يوسف ، عرف بها ، وعرف من خلالها ، فلم يكن الاقتباس من القرآن الكريم فى موضع أو موضعين أو ثلاث ، بل كان فيما يقرب من عشرين موضعًا فى رسالة الخميس ذات الست عشرة صفحة ، وفى اثنى عشر موضعا فى التحميد .

وقد جاءت الآيات الكريمة كاملة دون اختصار على بعض عباراتها ، وربما دفع الكاتب إلى ذلك عدّة اعتبارات منها :

---

(١) زهر الآداب : جـ٢ ص ٨٣٧ .
(٢) الحلبى – حسن التوسل – ص ٣٣٥ .
(٣) العسكرى – الصناعتين : ص ١٣ .

١ – الثقافة الإسلامية التى تعد من مصادر تكوينه الفكرى ، فقد ربّى تربية إسلامية ، وقد حفظ القرآن الكريم .

٢ – الاقتباس من القرآن الكريم من رسوم الكتابة الفنية المتعارف عليها فى عصره ، وحدث عند عبد الحميد وعند ابن المقفع ، ولكنها لم تكن بإفاضة أحمد بن يوسف .

٣ – رغبة الكاتب فى إيراد الحجة القاطعة ، والدليل الذى لا يتحمل الشك فى تأكيد القول الذى يريده ، فكان القرآن حجته ودليله المؤكدين .

٤ – ذكاء الكاتب فى مخاطبة القوم الذى دخل الإسلام ، ويحمسهم من أجل الحفاظ على الإسلام ، ومحاربة أعداء المسلمين والخارجين على خليفة الإسلام ، فكان لاستشهاده بآيات القرآن ، ذلك الوقع الطيب الذى يجمع الأفئدة . ويحقق الإقناع .

٥ – لُقّب الخليفة بإمام الهدى ، وعُرف بأمير المؤمنين ، وكانت أولى وظائفه الدعوة إلى حماية الدين ، ومحاربة المارقين ، فكان للقرآن فى المطولات أبلغ التأثير .

٦ – أبرز الكاتب أظهر صفات الحاكم المسلم فكان الإكثار من الآيات الكريمة على لسانه تحدد منهجه الإسلامى فى التكامل مع الرعية المسلمة .

وقد كان للاقتباس من القرآن عند أحمد بن يوسف أسلوب فى اختيار الآيات ، ومنهج فى الاستشهاد بها ، وقد يُحْمد منهجه وقد يُعاب أيضا .

أما عن سمات الكاتب الفنية فى اقتباسة للقرآن الكريم ، فإنها تتحدد بمعايير فنية أهمها :

١ – أن عدد صفحات رسالته ست عشرة صفحة ، وعدد الآيات التى اقتسبها الكاتب عشرون آية ، وكلها آيات طويلة ، يأتى الكاتب بها كاملة ، دون الاقتصار على جزء من الآية ، أو صفة الله كما يأتى فى خواتيم الآيات ، كذلك فى رسالة التحميد إثنتا عشرة صفحة فيها أربع عشرة آية ، وذلك يدل على كثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وكان الكاتب فى كل آية يأتى قبلها بقوله قال عز وجل ، أو قال تعالى ، أو قال جلّ وعلا . ماعدا فى مواضع التهديد والتحذير كان يأتى بالآية مباشرة دون أن يقدّم لها بقوله قال تعالى ، أو قال عزّ وجل .

٢ – وزّع الكاتب الآيات القرآنية على المحاور الفكرية فى مطولاته توزيعا متناسقا ، وكان يكثر من الاقتباس فى المحور الرئيسى للرسالة ، ففى رسالة الخميس كثر الاقتباس عند تناوله فكرة للقرابة والأرحام والإرث ، وفى رسالة الشكر أو التحميد أكثر من الاقتباس فى محور الحمد والشكر .

ويظهر فى الجدول التالى توزيع للآيات القرآنية فى المطولتين حسب المحاور الفكرية :

رسالة الخميس	عدد الصفحات	عدد الآيات	دلائل قدرة الله ٥ الإرث والقربى ٥ تبرير قتل الأمين ٢		آدم والرسل ٣ التهديد والتحذير ٣ الدعاء والاستجابة ١
	١٦	٢٠		والرضا والقناعة ١	
رسالة الشكر	١٢	١٤	نعم الله وفضله ٥	الحمد والشكر ٨	أنصار الخليفة ١

٣ – عاب الكاتب فى اقتباسه أنه أتى بآيات لم يُحسن توظيفها ، ولم تتفق والموقف الفكرى ، وحاول أن يلوى أعناق الآيات القرآنية ليؤكد فكرته ، وحاول أن يفعل ما فعله الشيعة فى بعض تفسيره لآيات القرآن الكريم لتأييد أئمتهم ، فقد أتى الكاتب بآيات القرابة وصلةالرحم ، وجعلها تؤكد فكرة إرث الخلافة ، وكأن الآيات تدعو إلى ذلك ،والآيات من هذه الدعوة بريئة ، ويعلق الكاتب على هذه الآيات بقوله « قد أوجب الله لهم به حق الوراثة فى محكم تنزيله ومن هذه الآيات ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فىالقربى﴾ « و﴿أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ ، وقوله تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

٤ – استلهم الكاتب الأحداث من النص القرآنى ، وحاول الربط بين أخبار السابقين ومع مجديات العصر ، فأشار إلى حكاية اليتيمين والجدار ، وحكاية يوسف ، يبرر قتل الأمين المخلوع .

٥ – لم يكتف الكاتب بآية واحدة حينما تُلحُّ عليه الفكرة الرئيسية مثل الشكر فى تحميده ، فكاد يجمع آيات الشكر ، ليحث أصحاب النعم على شكر أولى وأفضل ، وليجعل شكر المأمون واجبا : « ومَنْ تطوّع خيرا فإن الله شاكر عليم » .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليما » ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى شديد » وقليل من عبادى الشكور﴾ .

٦ – التضمين ، فلم يكتف الكاتب باقتباس الآيات ، بل أتى ببعض جمل أدخلها فى سياقه ، ويبدو بينها وبين كلام التلاحم ، وهى لا تخفى على القارئ ، وقد وزعت هذه العبارات القرآنية توزيعا متناسقا فى المطولتين ، ولم يُشر الكاتب إليها ، ولم يفصلها عن كلامه ، ومنها فاطر السماوات والأرض والقمر والنجوم مسخرات ، جل عما يشركون ، أولو الزيغ ،

فعلمه الأسماء كلها ، وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا ، وفى التحميد جاءت هذه الصفات والعبارات القاهر ، القادر ، الخالق ، الرازق ، أحاط بكل شيء علما ، أحد صمد ، مساجد سست على التقوى ، أتوا من كل فج عميق ، الركع السجود ، وظل الكاتب يمزج بين كلامه وبين العبارات القرآنية حتى أضحى ذلك من سماته الأسلوبية ، ويبدو ذلك مثلا فى حديثه عن النبى ﷺ فقال « فصلى الله عليه بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وقد أوضح الهدى بعد الدروس ، ومعالم الرشد بعد الطموس ، وكان بالمؤمنين رحيما ، فأنزل عليه كتابه العزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[1] .

ثالثا : التراكيب والأساليب :

يتكون الكلام من جمل ، وتتكون الجملة من ألفاظ ، وينتقل الكاتب فى تعبيره ، بين نوعى الجملة ، الإسمية والفعلية ، وقد يترك الكاتب الجملة فى ترتيبها الطبيعى ، وقد يحدث منها لونا من التقديم والتأخير ، وقد يستهل الفعلية بالماضى أو بالمضارع ، وقد يبدؤها بأفعال الأمر ، وقد يتنوع فى أساليبه بين الإنشاء والخبر ، وقد يأتى بالاستفهام فى غير وظيفته الحقيقية ، كما يأتى بأساليب الشرط والنداء ، والتعجب والاستثناء ، ويربط الكاتب بين جمله بأدوات الربط المعروفة التى تظهر خصوصية من خواصه فى طريقة تناوله لهذه الأدوات واستخدامها .

وتختلف وظيفة الجملة حسب وضعها وطبيعة التركيب فيها ، والكاتب ينوِّع فى طرائق تعبيره ، ويظهر استعمالات غير عادية مع كلمات عادية ، ويحدث تراكيب خاصة ، وليحدث آثارا أكثر خصوصية ، ويتعامل مع اللفظ معاملة فنّان يعرف أسرار صنعته ليحدث الاقناع المنشود . ولو أراد الكاتب المعانى العادية ، ما لجأ إلى مثل هذه الحيل الفنية .

أما عن الجمل الخبرية التى اشتملت عليها المطولتان عند أحمد بن يوسف ، فقد غلبت الجملة الفعلية قرينتها الجملة الإسمية ، وسيطرت الفعلية وانتشرت وترددت بكثرة ملحوظة فاقت تردد الجملة الإسمية تفوقا ملحوظا ، وقد تعامل الكاتب مع أزمان الفعل ،وكان لكل زمن استخداماته الخاصة ، ودلالاته التعبيرية .

استخدم الكاتب الفعل الماضى ، حين يذكّر العباد أو الرعية بنعم الله وأفضاله ، فهى حقائق مؤكدة ، حدثت وتمت وكملت ، ووضحت ، تدل على وحدانيته وقدرته ، كما استخدم الفعل الماضى – أيضًا ليدل على بداية الخلق من آدم وتعاقب دلائل العظمة الإلهية والهداية فى الأنبياء والمرسلين حتى النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) جمهرة رسائل العرب – جـ ٣ ص ٣٤٦ .

وجاء الفعل الماضى فى حديث الكاتب من مكارم الأمير ، وعن سمو أخلاقه ، ورقى أصله ، وعلو نسبه ، وذلك كله أمر واقع ، وحقيقة واضحة ، ظهرت فى أسلافه ، فهى ليست حديثة العهد ، وليس جديدا عليه طيب الأصل ، ورفعة الخلق .

وكان الفعل الماضى حين يقارن الكاتب بين ما كانت عليه الرعية قبل أن يشملهم عطف الأمير ، حين يذكرهم بأفضال الخليفة عليهم ، فهو يصور به ما كان الحال عليه قبل أن يكونوا فى هذا الفضل .

وتوسل الكاتب بالفعل المضارع حين يعالج الأمور التى يريد الحاكم تأصيلها ، وتأكيدها ، وتثبيتها فى أذهان الرعية ، ويستخدمه حين يصور تعاقب الأمر ، واستمرار حدوث الحدث ، الذى لا ينقطع أثره ، ولا يذهب ، أو يزول ، ومنها دلائل عظمة الله ووجوب عبوديته ، ومنها أفضال الأمير وواجبه فى الدفاع والحماية ، ورعاية أمور المسلمين .

وأكثر الكاتب من أفعال الأمر ، استخدمها فى إفراط ، دفع إليه ، فطبيعة موضوع رسالة الخميس ، الموجهة إلى الجند الصادرة على لسان الخليفة ، أوامر ونواه ، فهى حديث قائد يطلب بل يأمر جنده بالطاعة والامتثال ، فهى ترسم سياسة ، تصدر عن طبيعة عسكرية صارمة ، تعتمد أساسا على الأمر ، ولا تخلو من التحذير .

ويبدو الفعل الماضى – كما ذكر – فى حديث الكاتب عن نعم الله سبحانه وتعالى ، أجلت ولطفت ، وخصت ، عمَّت ، علت ، سمت ، وتمت ، ودامت[1] .

وفى حديث الكاتب عن خصال الخليفة « حُزْت فضائل الآباء ، اهتديت بهدى الأنبياء ، أطفئت النار ، أخمدت اللهب ، أسست المساجد على التقوى ، عمرّتها بتلاوة القرآن ، وطهرَّت المنابر »[2] .

والماضى – أيضًا – فى فضل الخليفة على الرعية : « ألبست المسلمين ثوب الأمن ، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة ، وعذلت بينهم ، وتوليت دونهم النصَّب ، وآثرتهم بالراحة ، ورفعت منازلهم ، ورقدت عدوهم ، ووليتهم من الثغور والأمصار ، وأدررت عليهم من الأرزاق ، ونعشتهم بعد البؤس ، وأتتهم بعد الوحشة »[3] .

أما الفعل المضارع فتراه فى حديثه عن الأمور ويرى ضرورة استمرارها ، « وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والزمام سنة عليه فى أخلاقه التى يرعاها ، ويحافظ عليها ويرىوراثة التركة

(١) جمهرة رسائل العرب : ٣٤٨/٣ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٣٥٣/٣٠ .
(٣) الجمهرة ٣٥٤/٣ .

فريضة واجبة ، يخلف السلف الصالح من يتلون به من أهل .. ثم يتلوهم ..ثم يتبعه ، .. ثم يتلوهما ..[1]

والمضارع فى واجبات الخليفة : « ترعيهم من جنابك ، وتفضى عنهم الآفات ، وتقل عنهم جبابرة الكفر ، وتفضى من جيوش الشرك ، وتفتح من الحصون .. وبتعهدهم بالعظة ، وينبهكم على حظكم ، ويثبت من بصائركم ، ويقطع طمع الشيطان ..[2]

وكان الأمر يُصاغ فى الجمع ليأخذ العهد به على شيعة أمير المؤمنين وغيرهم . « فتعهدوا – معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكر .. « واحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين . من الركون إلى الدعه .. « وليكن أول ما تعهدون به أنفسكم ، تناصف الحق بينكم »[3]

وأفعال الأمر تكثر فى رسالة الخميس ، وتغيب عن التحميد ، وهذا أمر طبيعى فرسالة الخميس توجيه ، ورسم السياسة وتحذير ، وهى من قائد إلى الجند ، أما فى التحميد ، فالأمر مختلف فى الهدف والطبيعة .

والكاتب فى أفعال الأمر يبدأ عادة مطالع فقرات رسالته ، ويستهل بها محاوره الفكرية ، والكاتب مع أفعال الأمر يعطف عليها أفعال أمر أخرى ، حتى يجمع بين الأوامر فى سلسلة من العبارات المتصلة ، ويفسر الأمر بالأمر ويعلل ضرورة تنفيذها .

والكاتب يُغيِّر ويُبدّل فى صيغ أفعال الأمر فتارة يأتى بها موجبة ، وأخرى يأتى بها مسبوقة بلا الناهية ، وفى ثالثة يتصل الفعل بلام الأمر ، وذلك كله ليتجنب رتابة التراكيب الواحدة ، واستخدام الكاتب للأفعال فى صيغها الزمنية المختلفة يدل على وعيه التام بأسرار صنعته ، فاستطاع أن يفجِّرها فى أزمنة الأفعال من طاقات إيجابية ، ومن شحنات تعبيرية وتأثيرية أرادها ليحقق الهدف من نصه الذى أبدعه .

أما عن الأساليب فقد تنوعت تنوعا يشهد الكاتب بالقدرة على امتلاكها ، والسيطرة عليها والقدرة على النبوغ فى استخدامها ، ليحدث النتائج والآثارالمترتبة للأفكار التى يعبر عنها .

نوع الكاتب فى الأساليب ، بين استفهام ونداء ، وتعجب واستثناء وشرط وقصر . إلى آخر تلك الأساليب المعروفة ، وقد برع الكاتب من أن يودع الأسلوب محله الذى يناسبه ، ويوظف الأسلوب فى أداء المهمة التى من أجلها جاء ، ومن خلال هذا التنوع يهدف الكاتب للوصول إلى معنى المعنى ، الذى لا يأتى من التعابير البسيطة ، أو التعامل العادى ، مع ألفاظ

---

(١) الجمهرة ٣/٣٥٥ .
(٢) الجمهرة ٣/٣٣٣ .
(٣) الجمهرو ٣/ ٣٢٧ .

اللغة وتراكيبها .

والكاتب فى أساليب الشرط ينوّع فى الأدوات ، وفى طول الجملة الشرطية ، وفى قصرها تبعا للموقف الفكرى والوظيفة الفنية مثل قوله : « ولو لم يكن له مُفتتح عدد ، ولا منقطع أمد ، ما ازداد بشيء ، ولا يحيفه نقصان »[١]

والكاتب يعطف على جملة الشرط ، ويعطف أيضًا على جملة جواب الشرط ، ليحدث التوازن المطلوب ، وفى أخرى لا يعطف على الشرط ، بل يعطف على خبره أو جوابه . « ولولا توحده بالتدبير ، لكان الشركاء جدراء أن تختلف بهم .. ، ولم يكن التخطف فيه ..[٢] وفى ثالثة يعطف على الشرط ، ولا يعطف على صوابه ، ولولا ما تقدم به من تلافيهم واستدراكهم بفضل رحمته لاجتاحهم التلف »[٣] .

ويطيل الكاتب – أحيانا – فى جملة الشرط ، وتبعد المسافة بين أجزاء الجملة الشرطية « ولو كان الأئمة المقلدون أمر عباده ، خاملة أنسابهم ، منقطعة أسبابهم ، غير مخصوصين بفضيلة يدونهم يهادون غيرهم .. ولم تعد ..[٤] .

وكأن الموقفُ يحتّم على الكاتب أن يكثر من أساليب الشرط ، فهو يأخذ العهد على الجند ، ويعدهم بجزاء الالتزام ، ويستلهم أحداث التاريخ ، ويصوغ أحداث الغابرين ، فيأتى القول أشبه بالتعابير الحكمية ، أو الوعظ يقوم على المقدمات والنتائج ، ويربط الأعمال بخواتيمها .

ويقرب من أسلوب الشرط فى الاستخدام أسلوب القصر ، الذى يجمع بين النفى ، والاستثناء فى عبارة واحدة ، تحمل معنى الشرطية – أحيانا – وتقترب فى الأداء الوظيفى ، حتى يعلق الجزء الثانى من العبارة بالجزء الأول ، « ولم يكونوا ليطيعوا أمر الأمر ، ولا نهيا لناهٍ إلا بحجة متنبهين بها الحق لمن خالفه من المبطلين[٥] « فلم يجد المكذبون مساغا إلى دفع ما أقيم عليهم من لازمه الحجة إلا المعاندة والمجاهدة [٦] « إنه لا يُعين على ذلك إلا هو »[٧]

وقد أدى الكاتب بأسلوب القصر دوره فى حصر المعنى فى الدائرة التى أرادها ، وفى تسليط الضوء على الفكرة التى يريدها ، وكان يأتى به فى خواتيم محاوره الفكرية ، وكأنه يعطى

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٣١١ .
(٢) الجمهرة ٣/٣٢٠ .
(٣) الجمهرة ٣/٣٢٠ .
(٤) الجمهرة ٣/٣٢٣ .
(٥) الجمهرة ٣/٣٢٠ .
(٦) الجمهرة ٣/٣٢١ .
(٧) الجمهرة ٣/٣٥٥ .

خلاصة الموقف الذى كان بصدد معالجته .

وأكثر الكاتب من استخدام الأساليب التقريرية التى تبدأ بكلمة « أَوَلَيْسَ » وجاء بها متتالية ، يعقب بعضها بعضا ، فى إلحاح ، يقترب من العبارة الخطابية ، وذلك حين يدعو للخليفة ، ويرسم سياسته ، ويُشيد بها ، ويذكّر الآخرين بالنعم والأفضال .

« أوليس المجاهد عن دين الله .. أوليس مُسكن الهيج بالمشرق أوليس سائس الثغور ومحصن عوراتها ، وفاكّ العناة من رق الإسار »[1].

وكان الكاتب يتعامل مع أساليب الاستفهام التى تبدو فى صورتها الطبيعية ، ولكنه يهدف بها إلى أغراض بلاغية أخرى ، يؤكد بها الفكرة ، ويحصر المعنى فى الدائرة المطلوبة كما جاء فى قوله : « وهل اقترن لأحد من الأئمة ما اقترن فى الملك والدين .. وهل ترك معشر الأولياء ، والأخوان فى الدين غاية لم يسمُ بنا إلى شرفها »[2]

والكاتب لا يقصد نفيا أو إثباتا ، ولكن لا يعنى غير الإثبات للفكرة التى يريد فرضها فرضا ، فهو من دعاة الحاكم ومن كتّابه ، ووزيره ، فلا يرى لغيره ما يراه فى خليفته ، ولم يعبّر عن إعجابه بالخليفة فى صيغ عادية ، بل انحرف بتعبيره عن المسار الطبيعى إلى الاستفهام البلاغى الذى يؤكد من خلال المعنى الذى أراده ، حتى أضحى التعامل مع الاستفهام بأساليبه من سمات الكاتب الأسلوبية .

ويأتى بالهمزة الدالة على الاستفهام ، ويجعلها بداية محور فكرى ، يرتب الأفكار فيه ترتيبا متواليا ، ويرصّ أفضال الخليفة رصا ..

« فيأيها الإمام : أنشكرك عن الإسلام ؟ فأنت القائم به ، الداعى له .

أم نشكرك عن الأمصار ؟ فأنت كذا وكذا وكذا

أم نشكرك على المساجد ؟

أم نشكرك على البيت العتيق ؟ .. أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم نشكرك عن العوام .. ؟ أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد .. ؟ أم نشكرك عن الأعداء .. ؟ أم نشكرك على مكارم الأخلاق .. ؟ أم نشكرك عن السلف .. ؟ أم نشكرك عن بُرد رسول الله .. ؟ أم نشكرك عن المسلمين .. ؟ أم نشكرك عن الدين .. ؟[3] .

---

(١) الجمهرة ٢٥٢/٣ .

(٢) الجمهرة ٢٥٢/٣ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٥٥ .

ويظل الكاتب يفند الأمور التى تستوجب شكر الخليفة . وكان ذلك فى التحميد ، وغلبت عليه النزعة الخطابية ، وغلب الترادف والتكرار وتوليد المعانى ، وتعاقب الجمل وتعداد المناقب ، حتى صارت سمات ظاهرة فى أسلوب أحمد بن يوسف .

أما صيغة التعجب فلم تأت فى مطولات أحمد بن يوسف فى صيغها المشهورة ما أفعل ، وأفعل به ، ولكنها جاءت على هيئة صيغ أخرى على هيئة الاستفهام وهيئة النداء ، ليخرج بهما أحيانا ، من حدود الوظيفة التى حددها نظام اللغة إلى الاستخدام المجازى ليؤدى بهما معنى التعجب ، ليحدث المبالغة فى وقوع الحدث ، والتضخيم فى تحديد أثره .

إنه يتعجب ممن يحاول أن يعرف نفسه أو جهده بجهد الأمير الذى يقتدى بهداه « كيف يوجد إلى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جهد أو بلوغ حشد ، فإنما نقتدى بهداه »[1] .

ويُشيد بنعم أمير المؤمنين وأفضاله ، وكأنما يُسبِّح بحمده وآلائه ، فأية نعمة أجلُّ قدرًا وأسمى أمرًا من نعمة أمير المؤمنين[2] .

كما يستغل الكاتب أساليب النداء فى وظائف غير عادية ، يخرج بها عن أغراض النداء ، ويخاطب أمير المؤمنين ، ويُجيد فى استخدامه ، ويُبدع فى توظيفه ، فهو لا ينادى أمير المؤمنين كى يلبى نداءه ، ولكنه يُناجيه ، متغنيا بآلائه ، واصفا له بصفات تليق به ، فيا أيها الإمـام المنصور الرشيد ، حزت فضائل الآباء ، واهتديتَ بهدى الأنبيـاء »[3] . فقد وصفه بعدة صفات أخذهـا الكاتب الذكى من ألقاب الآبـاء والأجداد من الخلفـاء العباسيين .

وفى أسلوب نداء آخر يناجيه قائلا « فيا من اتصل شكره بشكر الله عز وجل ، ونعمته بنعم الله تعالى[4] . وهذا أسلوب نداء ، جاء لغرض بلاغى لا يعنى بالنداء التلبية أو الاستجابة ، إنما يعلن به حبه ، فيظهرمكانه المنادى ، ويتغنَّى بمجده ، ولم يذكر اسمه اتقانا لنفعه وبراعته .

أما عن الجمل فى مطولات أحمد بن يوسف فقد اتسمت بعدّة سمات تدور حول التركيب والترتيب والوظيفة ، وقد تعددت وظائف الجملة فى مطولات الكاتب ، وعرفت بعض الجمل بأداء أفكار خاصة ، وأسهمت فى تفجير مضامين غير عادية تفوق وضع الجملة فى ترتيبها

---

(١) الجمهرة ٣/ ٣٤٩.
(٢) الجمهرة ٣/ ٣٥٠.
(٣) الجمهرة ٣٥٣/٤ .
(٤) الجمهرة ٣/ ٣٥٥ .

الطبيعى . ومن أنواع هذه الجمل :

أولا : الجملة الاعتراضية :

لم يأت الاعتراض بصيغة المتنوعة ، ولم يؤد الكاتب الوظائف المتنوعة أى للاعتراض من نداء أو ظرفية أو شرطية ، بل جعل الاعتراض مقصورا على الدعاء فقط ، والدعاء لأمير المؤمنين المأمون . والجملة الاعتراضية جاءت ليقرّر الكاتب من خلالها معانٍ قد لا تتحمّلها لجملة النّحوية فى وضعها العادى ، فاضطرا الكاتب إلى الفصل عمدًا بين متعلقات الجملة النحوية بجملة اعتراضية .

ولما كانت المطولات على لسان الخليفة والأخرى على لسان الحسن بن سهل ، يشكر الخليفة ، فإن الجمل الاعتراضية جاءت فى رسالة الشكر « التحميد » ولم يأت فى رسالة الخميس الصادرة عن الخليفة .

والجمل الاعتراضية وإن اتحدت فى الوظيفة ، إلا أنها تنوعت فى أشكالها ، وفى ألفاظها ، فمرة يدعو للخليفة بطول العمر ، ومرة بحفظ الله ، وثالثة بالبقاء ، وكثيرا ما كان يدعو له بالتأييد ، والقارئ للمطولتين يرى الجمل الاعتراضية فى التحميد ولا يراها فى رسالة الخميس ، ولا يليق أن يدعو الإنسان لنفسه ، وهو يخاطب الآخرين ، أما فى رسالة الشكر فقد التزم الكاتب فى كل موضع جاء فيه ذكر المأمون بالدعاء له بالبقاء والحفظ والتأييد ، وكان الدعاء كما حدد معالمه واضعو رسوم التقاليد الفنية للديوانيات .

وأبرز سمات جملة الاعتراض فى مطولات أحمد بن يوسف أنها :

(أ) جميعها فى الدعاء للأمير .

(ب) تأتى بين الفاعل ومتعلقاته غالبا وبين المبتدأ والخبر نادرًا .

(جـ) جمل فعلية جميعها .

(د) جمل قصيرة لا تتعدى ركنى الجملة الفعلية .

ثانيا : الجملة الشارحة أو المفسرة :

جملة وظيفتها تفسير سابقتها وتعليل ما جاء قبلها وتبريره ، وقد أعدها الكاتب لأداء هذا الدور ، وكانت واضحة كثيرة شكّلت ملمحا من ملامح الظواهر الأسلوبية فى مطولات الكاتب ، وقد دفعه الموقف الفكرى إلى التوسل بذلك النمط من أنماط الجمل المفسِّره أو الشارحة ، فحين يدعو الجند إلى الطاعة بيَّن لهم الجزاء ، وحين يحذرهم من التمرد يفسِّر لهم عاقبته ويُشيد بسياسة المأمون ويبرهن على أحقيته فى الحكم . كما جاء هذا النّمط من الجمل الشارحة أو المفسرة كذلك فى رسالة التحميد وهى جمل متعلقة بما قبلها ليست مبتورة ،

أدت دورها فى التعليل والتفسير خير أداء .

كما أتى الكاتب بعبارات تفصل المجمل قبلها ، وليثبت بها الحجة والبرهان ، وإقامة الدعوى ، بالدليل ، فكان إذا وصف قوما أو أمرا بصفات عده تفرَّعت إلى تفصيلات ، والكاتب يبدو فى رسالته صاحب قضية ، تستلزم منه الشرح والتفسير ، والتفصيل والتفريع .

وقد جاء الكاتب بالجمل المفسره حين يبرز اختيار الخليفة الذى يُوحِّده لإقامة الشرائع المفترضة ، وإنقاذ حكم الله المُنزَّل ، واقتفاء ألسنة المأثورة ، وحفظا له فى قرابته ، ومجيبى دعوته ، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة ، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به[1] .

لقد أعقب الفكرة الأولى وهى اختيار النخباء خلفاء من بنى العباس ، سلسة من الجمل الموضحة أو المفسرة الشارحة ، تعلل وتبرهن وتُفَصِّل . وكانت هذه الجمل أن تصل فى بعض الأحيان إلى عشر جمل أو أكثر لخدمة جملة واحدة .

وكان الكاتب يجمع الفكرة فى كلمة أحيانا ثم يفصلها فى عبارات تفسيرية ، وحين حديثه عن معشر أهل خراسان الذين اجتمع لهم « ثلاث » خلال اختصموا بها ، وثلاث أخرى جمعتهم مع غيرهم يأخذ فى التفصيل فيقول « أما الأولى .. وأما الثانية .. وأما الثالثة .. » .

وأما الثلاث اللواتى هن لكم ولغيركم ، فمنهن ، ومنهن ، ومنهن [2] . حتى كان هذا اللون من الجمل من أبرز وسائل الكاتب فى إقرار دعوته ومن أفصح ظواهره الأسلوبية .

ثالثا : الجمل الحكمية :

تناثرت بين جُمل الكاتب بعض الجمل المصاغة فى هيئة الحكمة ، أو هى جمل وظَّفها الكاتب لأداء دور الحكمة فى مطولاته ، وهى عبارات خاصة بالكاتب أحمد بن يوسف ، وليست من التعابير الجاهزة ، والعبارات المأثورة ، مما يجعلها تحمل سمة من سمات الكاتب الأسلوبية ، فهى ليست بأمثال ، وهى ليست بحكم ، وهى ليست بحكم ذائعة معروفة ، بل هى حكم خاصة لفظا ومعنى .

والحكم تتعلق بطبائع الإنسان ، وتتردد على ألسنة المثقفين ثقافة راقية غالبا بينما المثل يذاع بين العامة ، وبلغة غير خاصة أحيانا ، وحكمة أحمد بن يوسف لم يكن قد استمع إليها أو نقلها أو ضمنها كتابته ، ولكنها توحى بتخليص موقف من الحياة وتخليص تجربة وانتقالها إلى الموقف الخاص فى إنشاء الكاتب .

---

(١) الجمهرة : ٣٢٢/٣

(٢) الجمهرة : ٣٢٤/٣ ، ٣٢٥

وهذه الجمل التى وظفها الكاتب لأداء دور الحكمة أو هى توحى بذلك ، تعد من الظواهر الأسلوبية فى مطولات الكاتب ، وذلك لكثرة ترددها ، فجاءت رسالة الخميس أكثر من عشر مرات مثل « ومن أقوى الأساليب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكرها كانت عليه الحال فيها »[١] و« إن أكثر من يلجأ إلى استباحة الحيلة ، من عجز عن المبادرة والإظهار »[٢] و« عند ظهور الحازم غيلته يحترز من لطيف الخدع ، وخفىّ الاستدراج[٣] و« فإنه لا يخاف الضلال على من اهتدى » ولا اعتماد الجور على من انتصف »[٤] « ومتى يجمع المرء لزيَّه من فوقه واغتباط من دونه كفى ماترك » [٥] .

ويستدل من جمل الحكمة عند أحمد بن يوسف عدة أشياء فيها :

١ – أن تلك الجمل وردت فى مطولة واحدة ولم ترد فى الأخرى ، كثرت فى رسالة الخميس وانعدمت فى التحميد ، وذلك طبيعى فالمفروض فى رسالة الخميس أنها تدل على فكر القائد ، والحكمة تدل على وعى وثقافة وخبرة ، ودراية ، والقائد يعطى تجربته وحكمته من فكره الخاص ، يخاطب أقل منه حكمة ومنصبا ودراية ، وهذا طبيعى ، أما فى التحميد أو رسالة الشكر فكان الكاتب ذكيا ، حين جنب الحكمة طريق هذه الرسالة الصادرة إلى المأمون ، فهو لا يقبل أن يقف بين يديه موقف الواعظ ، الذى يقدم الخبرة بالحياة إلى من يجهلها .

وليس معنى ذلك أن التحميد خلا من الحكمة ، ولكن الكاتب جاء بالمعانى ذاتها ، ولم يُضعها فى صياغة الحكمة ، بل جعلها عادية تتساب مع المعنى ، وتتلاحم مع الفكرة بعيدا عن صيغ الحكمة المعروفة .

ويصوغ الكاتب ذات الحكمة التى وردت فى الخميس فى صياغة أخرى فى التحميد وهى « من أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعم فذكر ما كانت عليه الحال قبلها » .

فيجعلها فى التحميد « قد جُعل ذكر النعم من أسباب الشكر » [٦] والجملتان تؤديان معنى واحدا غير أنها فى الحالة الأولى صيغت صياغة حكيمة وفى الثانى جاءت فى شكل جملة عادية .

---

(١) الجمهرة : ٣/ ٣٢٦ .
(٢) الجمهرة ٣/ ٣٢٨ .
(٣) الجمهرة ٣/٣٢٨ .
(٤) الجمهرة ٣/ ٣٢٩ .
(٥) الجمهرة ٣ :٣٣٠
(٦) الجمهرة ٣/٣٤٩ .

ويقصد بالصياغة الحكيمة انسلاخ القول من الإطار المباشر فى الحديث ، والتقديم والتأخير ، والشرط ، وتعلق النتائج بالمقدمات ، وجعل القول دستورا ، وربطه بالمعنى والسياق .

٢ – المعانى التى اشتملت عليها جملة الحكمة معانٍ عالية راقية ، تتفق والهيئة الاجتماعية والفكرية التى صدرت منها فلم تكن معانٍ سطحية .

٣ – استطاع الكاتب أن يُسلط الضوء على مضمون الحكمة ، وينقله من التجربة الذاتية الخاصة ويجعله محورًا حياتيا ، هاما عاما ، وكأنه قانون بشرى ، يُجسد معالم التجربة الإنسانية .

٤ – أدّت هذه الحكمة دورها فى الوعظ والتحذير والترغيب ، وفى الإرشاد والتقويم ، تحدد طرق الأمن والخير اعتمادا على تجربة السلف .

٥ – التركيب والأسلوب ، أو الصوغ والبناء ينسجم مع المضمون والأداء انسجاما فنيا ملحوظا ، فقد صيغت فى جمل متوازنة ، وعبارات محكمة ، من ألفاظ واضحة فى غير حاجة إلى عناء لتفسيرها . وأخذت قوالب شرطية ، تعلق الجواب على المقدمات ، وهى موزعة توزيعا عادلا ، وتأتى غالبا فى نهاية الفقرة ، أو فى ختام الفكرة ، لا يبدأ بها كلام ولا تأتى كلها فى موضوع واحد ، حتى لا يشعر القارئ أنه يقرأ لحكيم أو فيلسوف .

والكاتب يعترف بهذه الأساليب الفنية فى إحدى رسائله حتى ، لا تمر كتاباته بالأسماع صفحا ، وتجتاز القلوب سهوا حتى تؤكد بالشواهد والبرهان ليبقى ذكرها ونفعها فى المخلوف والأعقاب »[١] .

وقد ظهرت جمل فى مطولات الكاتب تعتمد على الترادف ، وأخرى تتصف بالقصر ، وثالثة بالطول مع التواصل ، ورابعة تتسم بالتوالد والتتابع .

أما عن هذه الجمل المترادفة ، بمثل قوله « تولى غسله وتكفينه ، ومباشرة لجهازه إلى حضرته السيدة ، وقاسى من الغصص برجاء [٢] الحزن وإذراء[٣] العبره ، وإراقة الدمعة ، ماحال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعه من القول[٤] .

ومن الجمل القصيرة المتوازنة « سهل الله لكم من الحزونة ، وذلل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُرَّاق المِلّة ، ومخاليف أهل القبلة ، فأصبحتم حماة الدين وأنصار الأئمة الراشدين[٥] .

---

(١) الجمهرة ٣/٣٥٥ .
(٢) برجاء – شديد الأذى .
(٣) أذريت العين الدمع – صبّته .
(٤) الجمهرة – ٣ / ٣٤٩ .
(٥) الجمهرة ٣ / ٣٢٧ .

وأما الجمل المتواصلة المترابطة حول معنى واحد فمنها ، القاهر ، القادر ، الخالق ، الرازق ، فاطر السماوات والأرض ، الذى أحاط بكل شيء علما ، ونطويه خيرا وأتقته حكمة وعلما ، وألّف بين مختلفه ومتفقه ، ليدل على أنه أحد صمد ، لا صَدّ له ولا ندّ[1] .

وتبدأ بعض الجمل عند أحمد بن يوسف من ختام سابقتها ، فتوالد بعضها البعض مثل : « فإن الأيدى إنما تُبسط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنما تنفذ بثبات الحجة ، إنما تثبت إذا كانت عن الحق [2] وكانت الجمل من اعتراضية إلى شارحة مفسرة إلى جمل حكمة إلى مترادفة أو متوازنة أو متوالده ، يمكن أن تمثل ظاهرة من ظواهر الكاتب الأسلوبية وهى تعدّ وظائف الجملة وتنوع وصيغتها .

بعض الخصائص التركيبية :

التقديم والتأخير :

لجأ الكاتب إلى التقديم والتأخير كثيرا ، ولما كان النظم هو توخى معانى النحو بعلاقاته ، حسب ما يعتمل فى نفس الكاتب من مشاعر ومعاناة هى صدى لتجربته ، لذا يلجأ الكاتب إلى التصرف بالتقديم والتأخير ، والفصل بين المتعلقات التى يلازم كل منها الآخر فى لغة الكلام العادية .

ويعد التقديم والتأخير من عناصر التحويل حسب إرادة المتكلم فى نقل المعانى التى يقصدها ، فيغير فى الترتيب ، وينقل للفظ من موقع أصل له إلى موقع جديد ، مغيرًا بذلك نمط الجملة ، ناقلا معناها إلى معنى آخر أكثر تركيزاً ، وأشد إيضاحا .

وإذا أراد الكاتب أن ينقل الجملة إلى السامع بتركيز على جزء من أجزائها ، وهو عادة ، يقدم لغاية الاهتمام بالمقدم .

وقد تقدّم الخبر على المبتدأ ، وعلى النواسخ الحرفية والفعلية ، وتقدم المتعلق على الفعل والفاعل ، وتقدم جواب الشرط على فعله ، وأتى بمتعلقات بين الفاعل ومفعوله ، وفصل بين الاسم والخبر ، وهو فى الحالتين الآخيرتين يؤخر الفاعل كثيرا عن فعله ، مع المحافظة على وضعه فى السياق ، ويؤخر المفعول به عن فاعله مع المحافظة على ترتيبه .

وقد يفسر هذا التقديم والتأخير ، بأنه يرتبط بنفسية الشاعر ، وما فيها من أحاسيس ودفعات شعورية ، تتطلب منه الاهتمام بأمور قبل أمور .

---

(١) الجمهرة ٣ / ٣٤٥ .

(٢) الجمهرة ٣ / ٣٣١ .

ويرى د . إبراهيم أنيس أن التقديم والتأخير يرتبط بنفسية الشاعر ، ومشاعره التى قد تكون من الأهمية له ، فتشغله ، بحيث تتصدر كلامه ، فيقدمها ، وقد تشغله عناصر أخرى فتأتى متأخره وتتقدم العنـاصر الأخرى[1] والتقديم والتأخير تغيير فى ترتيب عناصر الجملة ، مع بقاء هذه العناصر محافظة على مواقعها وإعرابها ، ووظيفتها فى السياق .

وقد تعدَّد تقديم الخير على أسمـاء النواسـخ الحرفية والفعلية فى مواضع كثيرة فى مطولات الكاتب مثل : ليس لهـم فى شىء منها تلطُّف[2] ولم يكن له نصر ولا أزر[3] لم يكن لهم فى الإمامة عليهم مجاز إلى التخلص إليهم [4] إن منكم المُبرّز[5] .

وقد يقدم الخبر وجوبا ، لأن المبتدأ نكـرة ، ولا يجوز الابتداء بها ، أو للاختصاص ، أو لأن الخبر من ألفاظ الصدارة ، أو لإظهار الاهتمام به ، ولفت الأنظار إليه .

وقد طال سفر الكلام حتى ربما يُنسى أوّله ، لكثرة ما جاء به الكاتب من متعلقات بين الاسم والخبر ، لو كان الأئمة المقلدون أمر عبادة خاملة أنسابهم ، منقطعة أسبابهم ، غير مخصوصين بفضله يودونهم بها دون غيرهم ، لم تعد طلبتهم[6]

وقُدم الجار والمجرور أو المتعلق على الفاعل والفعل ، إلى الله يرغب أمير المؤمنين[7] بالله يستعين أمير المؤمنين » ، « وبه يرضى نصرا ووليا »[8] .

وفصل بين الفعل والفاعل ، والفاعل على مفعوله كقوله ، يستولى عليكم الفشل[9] « لم يبق وراء ما قلنا غاية »[10] وتلين به القلوب[11] ينتفع به من حضرنا[12] « ويأنس بكم المؤتمون ، ويقتدى بكم التابعون »[13] .

---

(١) د . إبراهيم أنيس أسرار اللغة ص ٣٣١ .
(٢) الجمهرة ٣١٩/٣٠ .
(٣) الجمهرة ١٢٥/٣ .
(٤) الجمهرة ٣٢٣/٣ .
(٥) الجمهرة ٣٢٩/٣ .
(٦) الجمهرة ٣٢٣/٣ .
(٧) الجمهرة ٢٦/٣ .
(٨) الجمهرة ٣/ ٣٤٣ .
(٩) الجمهرة ٣٣١/٣ .
(١٠) الجمهرة ٣٣١/٣ .
(١١) الجمهرة ٣٥٢/٣ .
(١٢) الجمهرة ٣٥٣/٣ .
(١٣) الجمهرة ٣٥٥/٣ .

كما فصل بين الفاعل والمفعول ، « قد أفرخ اللهم عنهم نفر التجارب والتجاذب[١] .

وقدم بعض المتعلقات على المفعول « يجد من ضعف العزائم معينا[٢] « ولا هتك لأحدٍ سترا »[٣] وعقد له علما وصيَّر له الجلوس على الكرسى [٤] « يصلح على يديه الفساد ، ويُلم به الشعث ، برأب به الصدع ، ويرتق به فتوق هذه الأمة »[٥] « كما قدَّم الظرف فى قوله ، « عند ظهور الحازم يحترز من لطيف الخدع »[٦] ويمكن أن يبرر التقديم والتأخير عند الكاتب بعده مبررات منها :

– تقديم الله سبحانه وتعالى ، المنشىء المبدع ، والخالق المصور ، على كل من خلقه ، ومن يستعين به ، ومن يلجأ إليه ، أو يدعوه .

– تقديم الخليفة الحاكم على أعماله وأفضاله ، وحاجة الرعية إليه .

– الاهتمام بالحدث ، وتسليط الضوء عليه ، فهو محور الكلام وأساسه

– تقديم النتائج على المقدمات ، فى محاولة تحذير المخاطبين ، وقرع أسماعهم ، وإحداث ما يشبه بالصدمات الكهربائية ، لشحذ الأذهان .

– التقديم والتأخير والفاصل بين أجزاء الجملة بمتعلقات خدم الإطناب أو التطويل الذى استهدفه الكاتب فى مطولاته .

– حقق الكاتب بالتقديم والتأخير كثيرا من الآثار الصوتية ، والإيقاع التنغيمى أكثر مما كان عليه الكلام فى ترتيبه الطبيعى ، وربما كان فى التقديم محافظة على الفواصل والازدواج بينها ، وكان الكاتب لا يلتزم بالتقديم والتأخير فى جملة واحدة ، بل غالبا ما كان يأتى به فى سلسلة من الجمل المتتالية .

إضافة إلى هذه الظواهر الأسلوبية كانت هناك بعض الظواهر التى تتعلق باستخدام الأدوات ، مثل حروف الجر الزائدة ، أو حروف العطف بوظائفها المختلفة ، ومثل صيغ الجمع ، أو الأفعال الخمسة التى ظهرت كثيرا ، وبالجملة الوصفية وجملة الصلة . وغيرها .

---

(١) الجمهرة ٣/٣٣١ .
(٢) الجمهرة ٣/٣٢٦ .
(٣) الجمهرة ٣/٣٢٨ .
(٤) الجمهرة ٣/٣٣٢ .
(٥) الجمهرة ٣/٣٥٦ .
(٦) الجمهرة ٣/٣٥٦ .

وقد جاء قول الكاتب متوسلا بحروف الجر الزائدة ، « وليس أحد منكم بخارج من المحنة »[1] وإن أمير المؤمنين لعلى لعلى ثقة[2] . وليس عجزنا تواضع عنا مؤنه الدءوب فى التحدى لتأديته[3] وفى جملة الصفة أو جملة الصلة جاء قوله ، « إنه له بارئًا هو أنشأه »[4] السماوات التى بنى والأرض التى دحا[5] وإلى قوم يعبدون أصناما »[6] .

وقد لا تتسع الدراسة لحصر أدوات العطف وحروف الجر ، وغيرهما من الأدوات ، للوقوف على مدى توزيعها ، وتفريعها ودلالاتها ، ويبقى بعد ذلك الحديث عن ظاهرة أخرى من الظواهر الواضحة فى مطولات أحمد بن يوسف وهى الظاهرة التى تتعلق بالناحية الصوتية .

الظاهرة الصوتية :

لا يميل الكاتب فى نثره إلى السجع ، ولا يتوسل به ، أو يعمد إليه ، ونثره مرسل ، يقوم فى موسيقاه على مصادر غير تقليدية ، يهتم بالمعنى أكثر من انتقاء اللفظ الذى يحدث به موسيقاه خاصة ، ورنينًا واضحا .

ولعل هذا الاتجاه الصوتى كان سمة غالبة على نثر المدرسة التى ينتمى غليها الكاتب أحمد بن يوسف ، وهى مدرسة الترسل الطبيعى .

وليس معنى ذلك أن الكاتب لم يحفل بالإيقاع الصوتى ، ولم يحافظ على موسيقى النثر فى إبداعه ، بل كان التنغيم الصوتى فى مطولاته ينبع من التوازن والإزدواج ، ومن الطباق والمقابلة أحيانا ، كما اهتم الكاتب باختيار المفردات وانتقائها ووضوحها . وتركيب الجملة وترتيبها أو تقسيمها ، وملاحظة الانسجام أو التلاحم بين أجزاء الكلام ، كل هذا أسهم فى إحداث الايقاع الصوتى الذى ظهر فى مطولاته ، وشكل ظاهره صوتية لا تعتمد على الموسيقى الخارجية ، بل على مقاطع الكلام ، وتجانس الحروف ، وتوافق المفردات .

ويأتى التوافق الصوتى من تلك الهندسة الرائعة فى صياغة وتأليف الجمل حتى يظهر ، ما يعرف بالتوازن الذى يظهر من تعادل بعض الفقرات على نحو السجع ، ولكنه ليس بسجع ، ويختلف عنه فى عدم التقيد بالقوافى ، ويلتزم الكاتب فيه بضرورة كون فواصل الكلام على زنه واحدة ، ولم تكن فاصلة الجزء الأول بعيدة فى المشاكلة عن فاصلة للجزء الثانى ، مع

---

(١) جمهرة رسائل العرب . ٣٢٦/٣ .
(٢) الجمهرة ٢٣٢/٣ .
(٣) الجمهرة ٣٤٩/٣ .
(٤) الجمهرة ٣٥٠/٣ .
(٥) الجمهرة ٣١٩/٣ .
(٦) الجمهرة ٣٢١/٣ .

كون العبارات قصيرة متساوية .

ولم تأت عبارة أطول من الأخرى ، ليحدث الكاتب بهذه الصياغة الهندسية ، ذلك الأثر الصوتى الذى يشكل ظاهرة من الظواهر الفنية فى استخدام الكاتب لأدوات اللغة .

وقد تُعرف تلك الظاهرة بالازدواج الذى يقول عنه صاحب الصناعتين :

« هو الكلام الذى ازدوج بينه بالفواصل ، أى كانت كل فاصلتين فيه على قافية واحدة ، ولا يحسن منثور الكلام ، ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد بليغ كلامٍ ، يخلو من الازدواج[1] ويرى صاحب المثل السائر أن التوازن لا يجعل للكلام طلاوة ورونقا ، وسببه الاعتدال ، لأنه مطلوب فى جميع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة ، ووقعت فى النفس موقع الاستحسان[2] .

ويشير العسكرى إلى السجع والأزدواج وكتابة الرسائل ، فيقول : « واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مسجوعة ، كان أحسن ما لم يكن فى سجعك استكراره وتنافر وتعقيد ، وكثيرا ما يقع ذلك فى السجع ، وقلما يسلم إذا طال استكراره أو تنافر[3] .

ويمكن الوقوف على تلك الظواهر الصوتية فى بعض فقرات الكاتب ومنها ، فى حديثه عن النبى محمد ﷺ : « نبيا لرسالته ، وائتمنه على وحيه ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فأدى إلى خلقه الرسالة ، واستنقذهم من الضلال ، وصرع بأمر ربه ، وجاهد فى سبيله ، ونصح لأمته ، حتى أتاه اليقين من ربه ، بعد استنارة الحق وظهور الحجة ، فصلى الله عليه بشيرًا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، جمع الألفةُ بعد الفرقة ، وأوضح الهدى بعد الدروس ، وكان بالمؤمنين رحيما »[4]

ولم يكن الاهتمام بالصورة الفنية يدخل فى إطار إهتمامات الكاتب ، فلم يحفل بالخيال ، ولم يخطب ، والتشبيهات والإستعارات ، ولم يأت بها إلا عفو الخاطر ، فقد استغنى الكاتب عنها ، واعتمد على الواقع واستلهم التاريخ ، واستقرأ الأحداث ، وتعمق فى فهم نفسية من يكتب عنه ، وعقلية من يكتب إليهم ، وتوسل بأدوات وأكثر منها حتى أضحت من أبرز ظواهره الأسلوبية ، التى عرف بها ، والتى بها أنشأ مطولاته ، فقد حقق بذلك أحلى الأثر فى إبداعه الذى يتسم بعبقرية الفنان ، وأصالة الكاتب فكان لمطولاته البراعة والإتقان والجمال .

---

(١) الجمهرة ص ٢٠٠ .
(٢) ابن الأثير ١ ص ١٦٩ .
(٣) العسكرى – الصناعتين – ص ١٦٥ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٥٠ .

obeikandl.com

القسم الثانى

التوقيعات والرسائل
دراسة فنية

obeikandl.com

التوقيعات والرسائل
دراسة فنية

عكف البحث فى قسمه الأول على دراسة مطولات أحمد بن يوسف ، وهى التحميدات والديوانيات ، وكانت رسالة الشكر أطول تحميداته ، ورسالة الخميس أطول ديوانياته ، ولعل ذكاء الكاتب بدأ فى اختياره فنون مختلفة لمطولاته ، فلم تكن جميعها فى أمور سياسية أو كتابة ديوانية ، ولم تكن جميعها – أيضا – فى أمور أدبية أو إخوانية ، حتى يؤكد براعته فى تناول فنون النثر العربى بمختلف فنونه وتعدد ألوانه .

ولم يكن البحث كاملا إذا برز على هذه الصورة التى فرغنا فيها منها فى القسم الأول ، وربما قيل أن أسلوب الكاتب – دوما – أسلوب واحد لا يتغير فى مطولاته أو فى غير هذه المطولات من الفنون ، ولكن الباحث رأى أن يعطى للقارئ أو المكتبة العربية صورة لما كتب الوزير أحمد بن يوسف فى أبهى مناظرها وفى أتم أشكالها بعد ما استطاع الباحث أن يعثر على ما أتيح له من آثار الكاتب الوزير النثرية ، وهذه الآثار تتوزع بين الديوانيات والتحميدات والحكم والتوقيعات والكتب والرسائل ، وبين هذه الفنون المختلفة ، وقوالب النثر المتعددة ظهر فكر الكتب الوزير كما ظهرت وسائلة الفنية وأدواته البيانية التى تجعل من نثر أحمد بن يوسف مدرسة فنية قائمة بذاتها لها ملامح خاصة ، وطوابع مميزة ، لا يقلد غيره ، ولا ينتمى إلى فكر مسبوق ، أو صنعة يشترك فيها مع غيره من الكتاب فكان وزيرا فى كتابته مميزا له أسلوب حق للبحث أن يتناوله تفصيلاً فى بعض رسائلة للوقوف على أهم معالمه .

وقد تناول البحث مطولات أحمد بن يوسف تناولاً أسلوبيًا ، ويتناول فى القسم الثانى فنون النثر الأخرى عند أحمد بن يوسف تناولا فنيا ، وربما كانت المطولات تُعطى لدارس الأسلوبية الكثير من ظواهرها نظرًا لطول النص الذى يشتمل على العديد من فنون التنوع الأسلوبى ، بيد أن فنون أحمد بن يوسف النثرية – غير مطولاته – لا تعطى لدارس الأسلوب شيئا يفيده ، وإن أعطت فهو قليل ، ولذلك مال البحث فى تناوله هذه الفنون إلى الوجهة الفنية التى ربما تهتم بدراسة بعض الظواهر الأخرى التى لم يهتم البحث بها فى القسم الأول .

... .

ومن المعلوم أن ثراء النثر الفنى العربى يؤكده وفرة الموروث ، ويشهد له تنوع هذا التراث النثري الفني ، تنوع أشكاله ، وتهدُّد أنماطه ، وتفنّن الكتّاب العرب فى التجديد فى أطر الصياغة ،وقالب التشكيل .

ولم يكن النثر الفنى جوهرًا لوعاء واحد ، أو روحًا لجسد لا يتغيرّ ، بل أمدنا التراث النثرى العربى بعدة أشكال فنية ، ربما لم تعرف فى غير أدبنا العربى ،وربما عرف بعضها ولم تعرف جميعها فى غير أدب العرب .

ولعل هذا الثراء فى المعرفة أو التعرف على أنماط التشكيل المتنوعة ، وقد يعود لعدة عوامل تحكمها ظروف أدب العرب ، وإمكاناته الفائقة وبراعة الكتاب ، والطفرة الواضحة التى حققتها الكتابة العربية فى عصورها الزاهرة ، ويسهم فى هذا الثراء – أيضا – طبيعة الظروف السياسية ، وملامح المناخ الفكرى ، والتطور العقلى ، والتعرف على أجناس الكتابة فى الآداب غير العربية ، وتدخل بعض الأعاجم من أصحاب الرياسة فى توظيف القلم فى ساحة الكتابة العربية ، فضلاً عن الحاكم والقائد والظرف التاريخى ، والتقدير الفائق للكاتب المتجدد على المستوى المادى والشعبى .

... ...

وقد يسود الاتفاق بين الباحثين على أسبقية الشعر ، وتأخر النثر – الفنى – زمانًا ،وإن هذا الفن اللاحق – النثر الفنى – حقق أنماطًا وصيغا للتعبير فاقت كل فنون الفن السابق – الشعر – ، فقد التزم الشعراء قرونًا طويلة بأنماط للتعبير ،لم يجرؤ بعضهم أن يجدد فى هذه القوالب ، وإن كان التجديد فى المضمون والمعنى وطريقة التعبير ، تشهد ببراعة الشعراء فى عصور الأدب المتعاقبة ، وإن الكتاب اكثروا فى التوسل بقوالب لصياغة أفكار النثر فاقت الأغراض ذاتها ، وهذه القوالب النثرية فى عصور الأدب القديمة قد تتعادل عددًا ، وتختلف شكلاً مع التجديد فى أطر النثر العربى فى العصور الحديثة ، فالنثر الحديث وإن كان يفخر بالقصة والمسرحية والرواية وغيرها ، فإن النثر القديم يفخر بأشكال وأنماط اقتصرت عليه ، ولم تتعد عصوره ، وربما كان للتطور الحضارى ، وتوظيف الكلمة فى مجالات الحياة الإنسانية أكبر الأثر فى تأكيد هذا الأمر .

... ...

والكاتب الوزير أحمد بن يوسف يؤكد حقيقة تعدد أنماط التشكيل فى النثر الفنى العربى ، وهو أحد هؤلاء الكتاب الذين أسهموا بأقلامهم فى التعبير فى عدة قوالب فنية متعددة ، وقد يفوق بعضهم غيره فى قالب دون الآخر ، يعرف به ،ويشهد له بالبراعة والاتقان ، بيد أن كاتبنا أحمد بن يوسف استطاع أن يسهم فى فنون القول المختلفة ، وأن يؤكد علمه بهذه الفنون .

... ...

وكاتبنا هذا يعطى لكل مقام شكله فى القول ، فالتحميدات لها دواعيها ، والديوانيات تؤدى وظيفتها ، وكذلك فنون النثر الأخرى كانت له عنده أنماطها الخاصة ، ودورها الذى

أعدّ له ، ومن هذه الفنون الحكم والتوقيعات والكتب والرسائل بأنواعها الفنية المختلفة وأدوارها المتعددة .

وكان لكل فن من فنون النثر المختلفة عند الكاتب الوزير أحمد بن يوسف سمات فنية خاصة بالكتاب تجعل منه رائدًا لمدرسة فنية فى الكتابة لها طوابعها وملامحها وسماتها الفنية الخاصة .

ولعل من هذه الفنون التى تحمل خصوصية تعامل الأديب الكاتب فن الرسالة ، فيجد القارئ فى تراث أحمد بن يوسف النثرى رسائل يختار فى وضعها أهى فى الاخوانيات أم فى الديوانيات وقد يصل فى النهاية إلى كونها تحمل سمات الإخوانية والديوانية فى الوقت ذاته ، وذلك لسبب بسيط وهو أن الكاتب المبدع لم يكن كاتبا فحسب شأن غيره من الكتاب الآخرين ، بل كان وزيرًا وكاتبًا ، حق له أن يتعامل مع بعض الولاة والقادة وكبار المسئولين معاملة الأخ والصديق ، وحق له أن يعبّر عن بعض قضايا عصره ، وأمور حكومته تعاملا قد يتسم بروح المودة والصداقة ولكنه يحمل كثيرا من سمات الكتابة الديوانية ،أو الأمور السلطانية .

والرسائل الإخوانية تعارف الكُتّاب عليها بأنها تلك المكاتبات التى يكتبها كاتب لصديق عزيز عليه ، تدور حول بعض أمور الإخوان من ود ومحبة وشوق وعتاب واعتذرا وتهنئة وغيرها ، وقد يجد الباحثون فى التراث النثرى رسائل تحمل له هذه السمات من الإخوانيات فى بعض رسائل الكاتب الوزير أحمد ابن يوسف ولكنه لا يكتبها إلى صديق بل يكتبها إلى حاكم أو والٍ ،وهل تضع هذه الرسائل فى الديوانيات أم فىالإخوانيات ؟ ، رسالة من كاتب إلى قائد أو إلى خليفة وهى رسالة ليست ديوانية لأنها لا تدور حول قضايا الحكم أو مسائل السياسة أو مشاغل الخلافة ،وهى أيضا لا توضع فى الإخوانيات فالخليفة ليس صديقًا للكاتب ، ولا يمكن أن يكون وهى رسائل تحمل سمات أخرى غير سمات الديوانيات وغير سمات الإخوانيات ، ومن الطبيعى أنها تحمل سمات أخرى للفنين المعروفين من الرسائل ، أو يمكن القول أنها تحمل سمات مشتركة تجمع بين الفنين فى طريقة عرض الأفكار المراد التعبير عنها (إخوانية) وفى طريقة التعامل مع المكتوب إليه من أدب الحوار (ديوانية) ، وكان لأحمد بن يوسف نصيب واضح فى إثراء المكتبة العربية من هذا اللون من المكاتبات ، وسوف يبدو هذا الأمر واضحًا حين يصل هذا البحث إلى التعامل مع هذا اللون من الرسائل فى نثر الكاتب الوزير أحمد بن يوسف .

وإذا كانت هذه الدراسة قد تفرغت فى قسمها الأول لمطولات أحمد بن يوسف وهى التحميدات والديوانيات فإن هذا القسم من الدراسة يكرس جهده لدراسة فنون النثر الأخرى المتنوعة فى نثر أحمد بن يوسف وهى تدور بين إطارين هما :

أولا : الحكم والتوقيعات .

ثانيا : الكتب والرسائل .

أولا : الحكم والتوقيعات

التوقيعات شكل من أشكال التعبير النثرى ، وفن من فنون القول العربى ، له ملامحة وله سماته ، وله دوافعه وله يواعثه ، وله كتابه الذين عرفوا به وعُرِف بهم ، ولعل فى اسم هذا الفن الكثير من الدلالات التى تعبر عن شكله وهيئته – وأيضا – عن دوره الذى أُعد له .

وهو توقيع أو أشبه بالتوقيع أو التعليق الموجز المكثف ، أو القول المحكم الذى يتسم بالإيجاز والإعجاز معًا فى التعبير عن المراد وفى تصوير المطلوب ، ولا يحمل التوقيع لفظه يمكن الاستغناء عنها ، ولا يحمل عبارة يمكن تبديلها ، وهو فن يحمل من ذكاء الكاتب وذكاء المكتوب إليه ما يجعل منه فنًا متبادلا بين الفئة الحاكمة والطبقة المحكومة .

وقد دار هذا الفن فى الإطارين المعروفين وهما إطار الأمور الديوانية التى تتعلق بالحكم ووسائلة وإطار الإخوانيات أيضا .

وقد زخر التراث النثرى العربى بوفرة هائلة من هذه التوقيعات حتى كادت أن تجعل لذاتها شكلا خاصًا من أشكال الصياغة النثرية أو أنماط التعابير المكتوبة .

وقد أسهم أحمد بن يوسف فى هذا الأمر بعدة توقيعات ، جمعها صاحب جمهرة رسائل العرب ، وتصل إلى سبع توقيعات دارت موضوعاتها فى مجالات الإنسانية المختلفة .

ومن المؤكد أن هذه التوقيعات لا تمثل كل موروث الكاتب الوزير فى هذا الفن وذلك لطبيعة دوره الذى كان يؤديه فى حكومة عصره أو فى ديوان الخليفة المأمون العباسى فقد كان كاتبا ووزيرا له بطبيعة الحال توقيعات تفوق هذا العدد ربما قد أغفلها الجامعون لصغرها أو لضياعها فى زحام ركام التراث النثرى الهائل لأقلام كتاب العربية ، ومن المؤكد أن الباحث فى ذخائر التراث العربى وخاصة فى مصادر التاريخ وفى مصادر الأمور السلطانية سوف يجد بعض توقيعات لهذا الكاتب الوزير .

وهذه التوقيعات السبعة التى بين أيدينا ليست قليلة ويستطيع الباحث أن يجد فيها سمات فنية خاصة تؤكد ملامح هذا الكاتب فى ذلك اللون من الكتابة المعروفة بفن التوقيعات ، وهو من قد نجد له إمتدادا فى عصرنا الحالى وخاصة فى موافقات أو تأشيرات الرؤساء والوزراء والمسئولين فى تعليقاتهم والتعبير عن رأيهم فيما يعرض عليهم فى أمور تدور جميعها فى إطار المصلحة العامة بعيدا عن الصداقة والإخوانيات فهى عبارة أو جملة أشبه بالتوقيع ، أى تحمل معنى الموافقة أو الرفض وكلاهما يؤكد معنى التوقيع أو المصادقة على ما جاء من قول أو تعبير .

... ...

وقع أحمد بن يوسف إلى عامل ظالم ، ووقع فى كتاب رجل يحثه على إستتمام صنائعه عنده ، ووقع إلى بعض العمال يحثه على العناية بإنسان ، ووقع إلى رجل غصب رجلا على ضيعة ، وكان غائبا فاستغلها سنين ، ووقع إلى عامل قد أخر حمل مال ، ووقع إلى رجل إستماحه ، وتوقيع آخر وأخير يعد أكثر توقيعاته إيجازا كتبه لإنسان يحمل معنى الذم .

والتوقيع فن أسهم فيه كثير من كتاب عصر أحمد بن يوسف ، ولعله فن يحمل معنى العصر العباسى الذى اتسم بالإتساع فى التداول وتعقد أمور الحياة وتشابك مسائل الخلافة وضيق وقت الولاة والقادة الذى لا يتسع للتعابير المطولة ، وقد عرف فى هذا الفن كتاب أضحى لهم فى الريادة فى فن التوقيعات ومنهم عمرو بن مسعده ، ومحمد بن يزداد ، ويوسف بن القاسم ويوسف بن القاسم هذا هو والد كاتبنا أحمد بن يوسف .

وروى الصولى فى كتاب الأوراق[1] أن يوسف بن القاسم كان يخلف يحيى بن خالد على التوقيع فى داره ودار أمير المؤمنين .

ومن توقيعاته إلى عامل :

« إن كنت منصفًا من نفسك فلم تظلم لغيرك ؟

وإن ظلمت لغيرك فكيف تنتصف من نفسك ؟ » .

ووقع فى رقعة رجل استماحه :

« قد أمرنا لك بشىء هو دون قدرك على الإجتهاد ، وفوق كفايتك مع الاجتهاد »[2] .

ويقول عمرو بن مسعدة :

كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحى البرمكى ، فرفع إليه غلمانه ، يستزيدونه فى رواتبهم ، فرمى بها إلىّ ، وقال : أجب عنها ، فكتبت :

« قليل دائم خير من كثير منقطع » .

فضرب بيده على ظهرى وقال :

« أىّ وزير فى جلدك ! » .

وفى كتاب خاص الخاص : رفع إلى يحى بن خالد قوم من حشمة يستزيدونهم فى أرزاقهم ، فأمر أنس بن أبى شيخ بالتوقيع فى رقعتهم ، فوقع بين يديه : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فأعجب بن يحىّ وقال : قد فاحت منك رائحة الوزارة .

---

(١) الصولى ، كتاب الأوراق جزء (١) ص ١٥٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب جـ (٤) ص ٣٩٤ .

ومن توقيعات محمد بن يزداد آخر وزراء المأمون[1] .

« أبواب الملوك معادن الحاجات ، ومواطن الطلبات ، وليس لاستنجاحها واستنجازها كالصبر والملازمة ، والحضارات والمراوحة » .

وتفوح رائحة الحكمة الطيبه بنشرها الذكى من توقيعات يوسف بن القاسم والد أحمد بن يوسف ، وهذه سمة ظاهرة تغلب على فن التوقيعات ، وإن الإيجاز الذى يغلب على التوقيعات جميعها يقربها من هيئة الحكم العربية ومن شكلها الفنى ، وهذا الاتجاه الحكمى يظهر فى توقيعات يوسف ومنها أيضا توقيعه إلى بعض ولده :[2] .

« إذا لم يكن معروفك إلا عند من تعرفه ، لم يجز معروفك رواق بيتك » .

ووقع :

« من جَوَرَ أنها لا تعطى أحدا مايستحق ، إما أن تزيده وإما أن تنقصه » ووقع إلى بعض ولده :

« إياك وصحبة فلان ، وإن كان قريب النسب منك ، فإنه بعيد الشبه بك ، فقد يفسد على الإنسان بعض جسده فيقعه وهو أولى به وأقرب » .

ووقع :

« إن أساءة المحسن أن يكف عنك إحسانه .

وإحسان المسيء أن يكف عنك إساءته ، وبُعْدَ ما بينهما ! » ..

ومن الطبيعى أن يؤثر عن أحمد بن يوسف بعض التوقيعات ، وهو الكاتب الوزير ، الأديب الأريب ، كان وزيرا لخليفة معروف ومرموق وهو المأمون ، وقد نيط بالكاتب شئون الدولة فى أزهى عصور الأدب ، وأثُر عنه أيضا كثير من الحكم كما أثر عن أبيه يوسف بن القاسم وقد يبدو الفنان متقاربين ، وهما الحكم والتوقيعات يجمع بينهما ويفرق بينهما أمر آخر ، يجمع بينهما المعنى والصياغة ، المعنى المكثف والقول الهادف ، والدرس المستفاد ، والعظة النافعة ، والعبرة الصالحة ، والخبرة التى تبنى جيلا وتبنى مجتمعًا ، تدعو إلى الصلاح ، وتهدف إلى الإرتقاء فى كلمات قليلة تحمل معانى كثيرة ، ويفرق بينهما المناسبة التى تدفع الكاتب إلى إبداعها ، فهو فى التوقيع يرد على طلب ، ويكتب ليهدئ ويستجيب لطالب ويعطى رأيا فيما يعرض عليه ، اما فى الحكمة فهو يكتبها لذاتها حين يريد أن يبنى ويعلم على أساس من النصح الصالح والقول النافع ، غير مجبر على كتابتها وغير مطالب بإبداعها ، وقد يتبادل الفنان مواقعهما

(١) الفخرى ص ٢٠٨ – الجمهرة جـ ٤ ص ٣٩٧ .

(٢) الجمهرة جـ (٤) ص ٣٩٤ .

فى كثير من الأحيان فتصلح الحكم توقيعات كما تصلح التوقيعات حكمًا .

ومما احتفظت به مصادر النثر العربى القديم ، من أقوال الحكم البليغة للكاتب أحمد بن يوسف :

- عبرات الأقلام فى خدود كتبها ، أحسن من عبرات الغوانى فى صحون حدودها .
- بالأقلام تُساس الأقاليم .
- القلم لسان البصر ، يناجيه بما استتر عن الأسماع ، إذا نسج حلله وأودع حكمه .
- مجالسة البغضاء تثير الهموم ، وتجلب الغموم ، وتعم القلب ، وتقد فى النشاط ، وتطوى الإنبساط .
- إذا لم تستطع أن تعض يد عَدوك فقبلها .

هذا ولقد بلغ من إهتمام الكاتب بالكتابة ، وشدة حرسه بها أن شغلت عقله الباطن ، وسيطرت على منامه ، ونستمع إلى ما جاء فى بلاغة الكتاب عن هذا الأمر[1] .

أمرنى المأمون أن أكتب إلى النواحى من الاستكثار من القناديل فى المساجد فى شهر رمضان ، فأعيا علىّ ، ولم أجد مثالا أحتذى عليه ، فنمتُ مغمومًا ، فأتانى آتٍ فى منامى : اكتب :

« فإن فى ذلك عمارة للمساجد ، وإضاءة للمتهجدين ، وأنسًا للسابلة ، ونفيًا لمكامن الريب ، وتنزيهًا لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظلم » فإنتبهت وقد انفتح لى مأأريد ، فابتدأت بهذا وأتممت عليه[2] .

ومن الطبيعى فإن النشأة الدينية ، وتمرّس الكاتب بأسلوب القرآن الكريم ، كان لهما أوضح الأثر فى نثره وقد حق فيه قول الخطيب البغدادى :

« كان أحمد بن يوسف من أفاضل كتاب المأمون وأذكاهم ، وأجمعهم للمحاسن جيد الكلام ، فصيح اللسان ، حسن اللفظ ، مليح الخط » .

والكتاب هم أصحاب الحكمة الشرعيون ، عبَّرت عن فكرهم ورؤاهم العميق وإحساسهم بالحياة من حولهم ، صاغوها فى إيجاز ، يشهد لهم ببراعة الكتابة وبلاغة الإنشاء ، وهى سمة عرف بها كثير من كتاب العصر العباسى المشهورين .

---

(١) بلاغة الكتاب فى العصر العباسى ص ٢٤١

(٢) الأوراق جزء ١ ص ٢٣١ – الصناعتين ص ٢٢ – زهر الأداب جزء (٢) ص ٤٠ – كتاب بغداد جـ (٦) ص ٢٣٧ .

وقد رويت بعض الحكم لعمرو بن مسعده .

- النفس بالصديق آنس منها بالعشيق .
- نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .
- العتاب حياة المودة ، وبقى الود ما بقى العتاب .

والحكمة فى نثر أحمد بن يوسف تقليد فنى ، سار عليه كثير من كتاب عصره ، وقد سبقهم فى هذا الفن رائد هذا القول عبد الله بن المقفع ، فقد جمع كثيرا من المأثور الذى يأخذ قالب الحكمة فى المضمون والصياغة فى يتيمة السلطان ، وفى الأدب الصغير ، وفى الأدب الكبير .

والأدب الصغير ، والأدب الكبير من أثار بن المقفع النثرية المعروفة يدوران حول الأدب بمفهومه الأخلاقى فى التربية والتهذيب والتوجيه والإرشاد .

ومن قول الحكمة فى الأدب الصغير .

- العلم زين لصاحبه فى الرخاء ، ومنجاة له فى الشدة .
- الورع لايَخدع ، والأريب لا يخُدع .

ومن حكم الأدب الكبير :

- تحرز من سكر السلطة – وسكر المال – وسكر العلم – وسكر المنزلة – وسكر الشباب ،
- احترس من سورة الغضب ، وسورة الحمية ، وسورة الحقد ، وسورة الجهل ومن حكم يتيمه السلطان :
- من جمع السخاء والحياء ، فقد جمع الإزار والرداء .
- الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يعاقب .

ومن ثلاثيات الحكم قول ابن المقفع :

- الكمال فى ثلاثة : الفقه فى الدين ، والصبر على المصائب ، وحسن التقدير فى المعيشة .
- ثلاث لا تدرك بثلاث : الغنى بالمنى ، والشباب بالخضاب ، والصحة بالدواء .

ومن الرباعيات :

- أربعة أشياء القليل منها كثير : المرض ، والدَّين ، والنار ، والقدوة .
- أربعة خصال إذا أعطيتهم فليس يضرك ما فاتك فى الدنيا :

عفاف فى طعمة ، وصدق حديث ، حفظ أمانة ، وحسن خليقه .

الحكمة إذن فن من فنون القول النثرى ، كما هى فن من فنون الشعر ، والحكمة أعرق وأقدم وأعمق فنون الأدب نظمًا ونثرًا فى الأدب العربى ، وأكثر فنون القول ذيوعًا وانتشارا وبقاءً ، تتداولها الأجيال ، وتتعلم منها البشرية خبرات أصحاب العقول والأقلام . وأحمد بن يوسف الكاتب أحد هؤلاء الذين نُسب إليهم بعض هذا التراث من الموروث الحكمى ، ويمكن اعتبار الحكمة من الفنون الذائعة بين فنون النثر وأشكاله وأنماطه ، وهو فن لم يأخذ حظه من التسجيل العلمى والدرس الفنى حتى الآن ، وهو فى حاجة إلى من يتصدى له من الباحثين المهتمين بأمور الأدب وعلوم الاجتماع والأخلاق وشئون الحياة وفلسفة البشرية ، فتجمع الحكمة العربية فى عصورها الزاهرة فى صدر الإسلام وقبله ، وفى عصور ازدهار الأدب وتفاعل الحضارات ، حتى تُصنّف حسب أغراضها ومصادرها وأنماطها ، وتُرصد وظائفها ودورها فى رسم ملامح الشخصية العربية ، لمعرفة مدى ماتحمله الحكمة العربية من سمات النثر الفنى فى انتقاء اللفظ واختيار الكلمة المعبرة فى سرعة إيقاع ، وإيجاز غير مُخلّ ، وصورة مكثفة ، وتعبير مركز ، وقول هادف .

والحكمة فى فنون النثر أشد قربًا من فن التوقيعات ، فهى أشبه ما تكون توقيعا ، تمدّه التجربة ، ويبعثه الواعز إلى النصح ، والإفادة من الخبرة ، وتكثيف المشورة فى كلم قليل ، وعبارات رصينة معبرة ، تفيد الأجيال التالية من خبرات الجيل الذى سبق ، وجرّب وخبر الحياة وشئونها .

وتختلف الحكمة عن التوقيعات فى الهدف ، فالتوقيع يرتبط فى معظم أموره بشئون الرعية ، واحوال الحكم ، ومسائل الخلافة ، فى رد الكتّاب على كُتب العمال وأفراد الرعية ، أو ردّ الخليفة على الكاتب أو رد الكاتب عليه ، وهى تقل حين تقترب من التعامل الإنسانى ، وما يدور بين الإخوان ، فالكاتب يُفسّر وَيُفَصِّل ويُعللّ ويبّرر ، وهذا الإيجاز الذى يتسم به التوقيع له ضرورته وله دواعيه ، وفى التوسل به ضرورة ، وإذا طال القول فسد الهدف ، واختلت الهيئة ، وضاع وقار النمط الفنى المنشود .

وكاتبنا الوزير صاحب التحميدات والديوانيات أو المطولات هو نفسه صاحب الحكم والتوقيعات ، كاتب أطال فأجاد وأوجز فحقق الكمال البليغ ، وقد يحدث فى بعض الحكم نوع من البخل أو الوضع ، وقد تُنسب بعض هذه الأقوال لغير من ابتدعها أو صاغها ونطق بها ، وذلك يتنازع على نسبتها إليه ، ويفخر بابتداعها ، ورب جملة أو قول من أقوال الحكمة يفوق المطولات والرسائل والمكاتبات ، وقد يذاع قول فى الحكمة وتغيب المطولات وتختفى .

والحكمة ، كما استشهد البحث ببعض نماذج لفرسانها ، فن يشترك فيه معظم أصحاب الأقلام ، وتعد مرحلة النضوج عند الكاتب ، وثمرة العطاء الفكرى ، ومرحلة خبرة الحياة

وممارسة شئونها ، لا تأت فى بدايات الكتابة ، أو فى بواكير الحياة الفنية ، فالكاتب لم يكن له التأثير الذى يجعل لقوله صدى فى نفوس المتلقين ، كما أن ابن المقفع كان قد عرك الحياة بعد ، ولذا فالحكمة من أقوال ابن المقفع كانت مسجلة في أثاره الأدب الصغير والأدب الكبير والدرة اليتيمة ، كما أن الحكمة لم تكن عند الجاحظ مثلاً – إلا بعد أن يبحث عنها الباحث بين أقواله ، بين ثنايا رسائله وكتبه ، أما عند أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعده ويوسف بن القاسم وغيرهم ، فقد كرسوا أقلامهم لصياغتها ، وجعلوها قولا مميزًا وفنا خالصًا يحكم الكاتب فيه دواعى نفسية وتدفعه إليه بواعث أخلاقية .

ولعل العصر وطبيعة العصر ، وما يموج فيه من أحداث وصراع بين المتناقضات ، ولعل فى قرب الكاتب من الحاكم ، وما يراه مفروضًا ويرفضه ، وما يتمناه كاتبا وهو غير كائن ، وما يحلم به ولا يزال وهما ، يجعله أقرب ما يكون إلى الواعظ أو الناصح الذى يُوجّه بالقلم ويرشد بالفكر ويقرّب الكلمة من صياغة الحكمة وشكلها .

ومما لا شك فيه فإن طبيعة الحكمة التى تجرى على أقلام الكُتّاب المقربين للحكام لها طبيعتها ومذاقها الخاص الذى يميزّها عن الحكمة فى فنون النثر عند الكتاب الآخرين ، فإن ابن المقفع كثيرا ما صاغ الحكمة ، وكثيرا ما نقلها عن الآداب الأخرى غير العربية كما كان الحال فى كليلة ودمنة ، وكثيرا ما حددها عامل البيئة والمكان والمناسبة ، وربما جاء فى بعض أقواله ما عجل بنهايتها .

وطبيعة التعامل مع الحكام ، والقرب من أسوار حياتهم تجعل الكاتب أقرب ما يكون إلى القول الحكيم ، وإلى الجملة البليغة ، والكلمة المؤثرة ، فى إيجاز وتركيز وتكثيف وكأن الحكمة قول يوضع حسب مقاييس من الذهب ، لا طول فيها أو حشو يُعدّ فضولاً ، ولا نقص فيها أو خلل يعدّ تشويها وتقصيرا .

ويغلب على طبيعة الحكمة عند الكاتب أحمد بن يوسف اعتداده بطبيعة مهنته ، وحبّة لأداة توصيل فكره ، وتعامله مع الكلمة معاملة الجراح لمشرطه ، ومفجرّ الثورة الأخلاقية ، فقد وضع الكاتب على عاتقه مسئولية الحكم وإدارة دفته ، وبالأقلام تُساس الأقاليم – على حد قوله .

وبالنظر فى طبيعة موضوعات الحكمة فى نثر أحمد بن يوسف يجد القارئ أنها تدور فى معظم الأحوال حول اهتمام الكاتب ، وحول الكتابة ، والقلم ، فالقلم لسان البصر ، يناجيه بما استتر عن الأسماع ، إذا نسج حلله وأودعها حكمه .

ويتفنن أحمد بن يوسف فى بعض حكمه ، وينسج صورًا رائعة ، يستمدها من طبيعة الكتابة ، ومن دور القلم ، فقد جعل للأقلام عبرات ، أو دموعًا يذرفها القلم على خدود

الأوراق ، ويرى أحمد بن يوسف أن دموع القلم فوق صفحات الكتاب ، أجمل وأحلى من دموع الحسان فى صحون الخدود .

ويذهب الكاتب فى بعض حكمه إلى ميدان الصداقة وعالم الأخاء ، فيعطى دروسا فى معاملة الإخوان ، وينصح بتجنب مجالسه البغضاء ، فإن مجالسة البغضاء تثير الهم وتزيد الحزن ، وتبعث على الكآبة ، وتؤذى القلب ، وتفتر النشاط ، وتقضى على السرور والانبساط .

هذه أهم سمات فن الحكمة فى نثر أحمد بن يوسف ، وهى سمات تدور فى قالب من التركيز والتكثيف ، واختيار اللفظ المؤثر ، فى بساطة ويُسر ، وينسج الصورة المعبرة فى حيوية خلاّقة ، وجمال مُبدعٍ حتى أن بعض الحكم فى نثر أحمد بن يوسف أذيع واشتهر مع جهل قائلها ، وادّعى البعض ملكيتها ، وعرفها آخرون دون أن يهتم بمعرفة القائل ، ويمكن القول أن بعض حكم أحمد بن يوسف أخذت سمات القول الجمعى فى الأدب الشعبى ، حين لا يهتم بالقائل قدر الاهتمام بالقول ، فيصبح القول تراثًا شعبيًا ، ذائع الصيت ، مجهول المؤلف ، يقول أحمد بن يوسف :

« إذا لم تستطع أن تعضّ يد عدوّك فقبّلها » .

وقد نبعث هذه الحكم من قلم كاتب بليغ ، وزير وكاتب مجرّب فجاء القول فى مستوى القائل ، يؤدى دوره المعدّ له فى براعة وإتقان .

أما عن التوقيعات فى نثر أحمد بن يوسف ، فقد احتفظ التراث النثرى بعدة توقيعات للكاتب الوزير أحمد بن يوسف ، وهى مختلفة فى محاورها الفكرية ، وتتفق فى صياغتها الفنية ومنها أنه وقع إلى عامل ظالم ، فقال :

« الحق واضح لمن طَلَبه ، تهديه مَحَجَّتُهُ ، ولا تخافُ عَثْرَتُه ، وتَؤْمن فى السِّرِّ مغبّته ، فلا تنتقلنّ منه ، ولا تعدلنّ عنه ، فقد بالغت ، فى مناصحتك ، فلا تحوجنى إلى معاودتك ، فليس بعد التقدمة إليك إلا سطوةُ الإنكار عليك » .

ووقع فى كتاب رجلٍ يحثه على استتمام صنائعه عنده :

« مستَتِمُّ الصنيعة مَن صابَرهَا ، فَعدَّل زَيْغَها ، وأقام أَوَدَّها ، صيانة لمعروفه ، ونصرة لرأيه ، فإن أول المعروف مستخفّ ، وآخره مستثقل ، تكاد أوائله تكون للهوى ، وأواخره تكون للرأى ، ولذلك قيل : ربُّ الخاتمة أشدُّ من ابتدائها » .

ووقع فى عناية بإنسان إلى بعض العمال :

« أنا بفلان تامُ العناية ، وله شديد الرعاية ، وكنت أحب أن يكون ما أدعيته طرْفَك من أمره فى كتابى ، مستودعًا سمعك من خطافى ، فلا تعدلن بعنايتك إلى غيره ، ولا تمنحنّ

تفقدك سواه ، حتى تنيله إرادته ، وتتجاوز به أمنيته ، إن شاء الله » .

ووقع إلى رجل غصب رجلا على ضيعة وكان غائبًا فاستغلها سنين ، وقدم الرجل مطالبه فقال :

الضيعةُ لى وفى يدى ، فوقع إليه أحمد بن يوسف :

« الحق لا تخلقُ[1] جدته ، وان تطاولَتْ بالباطل حدته ، فإن أنطقت حجتك بإفصاح ، وأزلت شكلها بإيضاح – غير لى وفى يدى ، فكثيرا ما أراها ذريعة الغاضب ، وحجة المغالب – وُفر حقك عليك ، وسيق بلا كدٍّ إليك ، وإن كنت من البيان اليها ، ووقفت من الاحتجاج عليها ، وكانت حجته بالبينة أعلى ، وكان بما يدعيه أولى ، إن شاء الله » .

ومن توقيعاته :

« ما عند هذا فائدة ولا عائدة[2] ، ولا له عقل أصيل ، ولا فعل جميل » .

ووقع إلى عامل قد أخر حملَ مالٍ :

« قد استبطأك الإغفالُ ، وأبطرك الإهمالُ ، مما تصحب قولك فعلا ، ولا تتبع وعدك إنجازا ، وقد دافعت بمال نجم[3] لَزِمَك حَملُه ، حتى وَجَب عليك مِثلُه ، فاحمل مالَ ثلاثةِ أنجُمٍ ، ليكون مايُتعجَّل منك أداء ما أُخِّر عنك إن شاء الله » .

ووقع إلى رجل استماحه :

« وددتُ لو ملكتُ بغيتك ، لبلَّغتكُ لأمنيتك ، ولكني فى عمل قصدتُ فيه اتخاذ المحامد ، وعدلت اقتناء الفوائد ، فخسَّ[4] نصيبى من الوفْر ، وَوَفَرَ حظى من الشكر ، وقد أمرت لك بما يجلُّ عنه قدرك ، غيرَ مختارٍ له ، بل مُضطرا إليه ، فلَيكن معك عُذرٌ فيه ، وشكرُ عليه إن شاء الله » .

هذه بعض نماذج من التوقيعات التى إحتفظت بها المكتبة العربية لكاتبنا أحمد بن يوسف ، وهى شكل من أشكال التعبير الفنى ، أسهم فيه الكثيرون من الكتّاب وإن لم يكن كلهم ، وذلك لطبيعة عمل الكاتب ودوره فى شئون الحكم والرياسه وتكليف الحاكم له بالرد على بعض

---

(١) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى

(٢) العائد : المنفعة والمعروف .

(٣) النجم والقسط : الحصة ، وكانت العرب توقت بطلوع النجوم ، لأنهم كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجمًا تجوزا لأن الأداء لا يعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا ما يؤدى نجما لوقوعه فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه النجم فقالوا . نجمت الدين تنجما إذا جعلته نجوما .

(٤) فى الأصل « فخس » وأرى انه محرفة وصوابه فخس وهو ما يقتضيه المقام والوفر : الفتى .

المكاتبات بهذا الشكل الذى يقتضى أن يكون توقيعًا .

والتوقيع على هذا الشكل فن خاص ، له ملامح مستقلة ، وله ما لقوالب الأدب نظمًا ونثرًا هدف معنوى وملمح شكلى فنى ، وكما يقول شفيق جبرى فى مقال له عن (ما وراء البيان) إن وراء هذا البيان الذى يبلغ منا كل مَبلغ عقولاً راجحة ، وفطنًا ثاقبة ومداخل ومخارج فى أمور الحياة تُعلمنا وترشدنا أبلغ تعليم وإرشاد ، « فإذا وقع نظرنا فى مطالعاتنا على جُمل لبلغاء كتابنا فلا ينبغى لنا أن تشغلنا بلاغة هذه الجمل عن التدقيق فى الذى تنطوى عليه ، فلا ينبغى لنا أن تصرفنا حلاوة الألفاظ عن حلاوة ماتعبر عنه هذه الألفاظ » .

وطبيعى أن بلاغة هذه التوقيعات لم تكن قائمة على اختيار الألفاظ وحدها ، والتأنق فى تنسيقها والجهد فى وصفها ، وإنما جمعت بين بلاغة اللفظ وبلاغة المعنى الذى يفصح عنه هذا اللفظ . والألفاظ وحدها إن لم تدل دلالة صحيحة على المعانى كانت باطلة لا عمل لها فى النفوس ، وشهرة الأثر الأدبى إنما تعود للموازنة بين اللفظ والمعنى ، وقد أعجب المأمون بكتاب لعمرو بن مسعده وصرح بهذا لوزيره وكاتبه أحمد بن يوسف ، فقد كان الكتاب يتبارون على الإدلاء فى هذا الشكل الجديد من أشكال النثر وهو التوقيعات ، فقد كتب عمرو بن مسعده للمأمون :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده ورؤساء أخباره فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة[1] تراخت أعطياتهم فاختلت لذلك أموالهم والتاثث[2] معه أمورهم » .

وقد أدى وقع هذا الإيجاز والتركيز فى نفس المأمون إلى أن أمر للجند بأعطياتهم لسبعة أشهر وأمر لعمرو بن مَسعْدة برزق ثمانية أشهر ، وبلغ من حسن أثر هذا الكتاب إلى أن قال المأمون لأحمد بن يوسف .

لله دَرُ عمروٍ ما أبلغه ! لا ترى إلى إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعطائه سلطانه من الاكتثار .

إذن فالسلطان يجب أن يعفى من أن يطال عليه ، أو يكثر معه فى الكلام ، والتركيز مطلوب ، ولهذا برع ابن يوسف فى توقيعات واستطاع أن يجعل منها فنًا يسهم فيها كما أسهم غيره وأن تجمع فى بلاغتها بين المعنى واللفظ .

ونجد فى كتاب أمراء البيان لمحمد كرد على حديثًا عن ابن الزيات وعصره ونماذج من الإنشاء ، فقد أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ويُعلمه انه حَرَفه عن أمير

(١) كفاة « جمع كافء وهو التابع أو الخادم .
(٢) التاثث : اختلطت وافطريت .

الجزائر والعواصم وقوَّض ذلك لابن عمر اسحق بن إبراهيم ، فكتب ابن الزيات .

« أما بعد فإن أمير المؤمنين روى أن يخلع ما فى يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله فى شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » ويقول كرد على فى خاتمه هذا القول : وليس فى الوصول إلى الغرض مع مراعاة المكتوب إليه أوجز وألطف من هذا .

أما عن مضمون التوقيعات أو المعنى فى توقيعات أحمد بن يوسف فقد زادت فى بعض محاور فكريه أهمها حث المسئول على اتخاذ العدل طريقا الظلم وحث آخر على إتمام الفضيلة وإصلاحها وألا ييأس من مواصلة طريق الخير ، وكان يدعو فيها واليًا إلى العناية بإنسان وتحقيق أمنية لينال إرادته وتوقيع رابع يدفع به غاضبًا عن ترك ماغصب وأن يعود إلى الحق ويعطى الحق لصاحبه ، وآخر يدفع به مسئولا إلى عدم تأخير دفع المال المستحق للمسلمين وهكذا دارت التوقيعات فى أمور تعمل على حسن سير الأداء ، وإنضباط العمل ورعاية أمر المسلمين وتوجيه الولاة والمسئولين .

فهذا العامل الظالم ويقصد بالعمال الولاه المسئولية عن تلك الأقاليم وتنفيذ سياسة الدولة العليا فى الأقليم التى وكل إليهم رعايتها ، فلم يخرج الكاتب عن عدة جمل اوضح فيها وضوح الحق ، وخطورة الحيدة عنه ، وألاّ يعدل الوالى عن طريق الحق حتى لا يضطر كاتب مرة أخرى إلى معاودة الفصح وإن لم يفعل الوالى ويتخذ الحق طريقًا والعدل شعارًا فيفرض ذاته لسطوة الأفكار عليه ، وقد سار المعنى فى هذا التوقيع فى ثلاث درجات .

الأولى : بيان فضل الحق وحلاوته (تهديه حججه وتؤمن فى السر مغبته) .

والثانية : نصح بالتزامه (فلا تتثقلن منه ، ولا تعِدلن عنه) .

والثالثة : تحذير البعد عنه (بالغت فى مناصحتك ، لا تحوجنى إلى معاودتك) .

حتى لا يعرض نفسه إلى سطوة الأفكار عليه ..

وهكذا فعل أحمد بن يوسف فى توقيعه الرأى يوحى به والى بإنسان يهمه يجدد فى المعنى أولا : قرب الإنسان منه وإهتمامه بمصالحه .

(أنا بفلان تام العناية ، وله شديد الرعاية والأمل فى تنفيذ وصيته (فلا تعدلن بعنايتك إلى الخير ، ولا تمنحن تفقدك سواه) .

والثالثة تحقق الأمنية فى الاهتمام بهذا الإنسان (حتى تنيله إرادته ، وتتجاوز به أمنيته) .

وكذلك فعل الكاتب الوزير مع المغتصب لحقوق الغير ، الذى غصب ضيعة ليست له سنتين ، ورفض التنازل عنها فأوضح الكاتب هذا المعنى فى توقيعه عبر درجات متنامية ، ينمو المعنى بها ويتقدم حتى يصل إلى كمال المقصود وقمة المراد .

يسير المعنى فى درجته الأولى موضحًا الحق ودوامه ، والباطل وضياعه وفى المرحلة الثانية يطلب من الغاصب الدفاع عن وجهة نظره ، بعيدا عن التذرع كفلسفة الغاصبين وحجة المغالبين .

وأخيرا فى تمام المعنى تتضح الحجة ويعود الحق إلى صاحبه فهو به أولى .

ويصل الكاتب الوزير فى بعض توقيعاته إلى قِمَّة البلاغة والتعبير ، فلا يشغل التوقيع سطرًا واحدا بل أقل ، ولا يزيد على جملتين أو ثلاث ، وتكاد كلماته تعد عدا ، وهى أقل من عشر كلمات ، ويعد هذا التوقيع دليلا على بلاغة الإيجاز ، وقمة التعبير ، والقدرة على صياغة الفكره فى كلمات قليلة ، وجمل بسيطة ويصل بهذا الفن إلى ما يشبه فى عصرنا تعبير المسئول بكلمة الموافقة أو عدمها ، فيقول ابن يوسف الكاتب :

(ماعند هذا فائدة ولا عائدة ، ولا له عقل أصيل ولا فعل جميل) وتكاد هذه المفردات القليلة فى عباراتها البسيطة أن تهدم إنسانا أوضح الكاتب رأيه فيه حين طلب منه المسئول ذلك فصوب كلماته التى تشبه الرماح المسنونة ، تقتل من تصوب إليه ، فحسب إنسان لا فائدة منه ترتجى ، ولا عائد خير منه ينتظر ، فهو محروم من متعة التفكير ، جانبه الصواب فى فعل الخير وخاصم الجميل .

ويلتزم الكاتب أحمد بن يوسف فى توقيعه المكثف هذا بمنهجه الفنى الذى سار عليه فى جميع توقيعاته يصوغ الحقيقة أو جوهر الفكر مع تحليل وتعليل وتفسير وتبرير مكثف ، يؤكد الفكره ويرسخها ويفند أسرارها ، فهذا الأنسان الذى لا يرجى منه خير ، سبب ذلك أنه لا يملك عقلا سليما فترتب على هذا عجزه عن أداء الفعل الجميل ، لذا فلا فائدة منه ، ولا عائدة فيه .

وهذا عامل من عمال الدولة ، يتولى أمر جمع المال حسب شريعة المال فى جمعه وفق للأنصبة المفروضة وإيداعه بيت مال المسلمين ، فيهمل هذا العامل فى أداء ما كلف به من حمل المال ، ويطلب من الكاتب مكاتبته ، فيصوغ أحمد بن يوسف هذا التوقيع الذى يجمع فيه كل أطراف الفكرة ، ويسد ثغرات التساؤل فيقول :

« قد استبطأك الإغفال ، وأبطرك الإهمال ، فلا تصحب .قولك فعلا ، ولا تتبع وعدك إنجازًا ، وقد دافعت بمال نجم[1] لزمك حمله ، حتى وجب عليك مثله ، ماحمل مال ثلاثة

(١) النجم والقسط : الحصة ، وكانت العرب توقت بطلوع النجوم ، لأنهم ماكانوا يعرفون الحساب وأنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجمًا تجوزا لأن الأداء لا يعرف بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا ما يؤدى نجمًا لوقوعه فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه فقالوا : نجمت الدين تنجيما إذا جعلته نجومًا .

أنجم ، ليكون ما يتعجل منك أداء ما أخر عنك إن شاء الله » .

ويلتزم الكاتب بالخط الفنى الواضح الذى عرف به فى توقيعاته ، لا حشو ولا طول ، ولا يمكن الاستغناء عن كلمة أو عبارة ، يُرتِّب أفكاره ترتيبا يَنمّ عن عقل كاتب يقظ ، يفهم الموقف ، ويستوعب المراد ، فيصوغ المقصود فى كلمات قليلة تسير بالهدف فى خطوات ، تتبع كل خطوة سابقتها ، وتسلم كل حلقة إلى الحلقة التالية .

فقد أوضح الكاتب للعامل الذى أخر حمل المال حقيقة الأمر فى ثلاث خطوات :

الأولى : ماوقع من العامل وهو الإبطاء والإغفال والإهمال .

الثانية : تعنيفه وتأنيبه (فالقول يخالف العمل ، والوعد لا يقرن بالإنجاز) .

الثالثة : ما يجب عمله وهو أن يدفع العامل مقابل التأخير ، ويعجل بالقديم والجديد ليعوض ما أصاب المسلمين من تأخير فى جمع هذا المال .

وعلى العامل أن ينفِّذ ماجاء فى توقيع الكاتب الذى يعبر عن رأى المسئول فقد جاء التوقيع يوقظ المهمل من سباته ، ويحرك الهمة ، ويثير النشاط فى تركيز غير مخل ، وتكثيف يجمع شتات الأمر كله ، فكان التوقيع أداة تعجز المطولات عن تحقيق إصابة التوقيع الهدف المنشود ، وتبدو صياغة التوقيع الفنية فى توقيع له ، كتب أحمد بن يوسف إلى رجل إستماحه ، أو طلب مالا وفوائد ، من الكاتب الوزير ، فيكتب إليه موضحًا رغبته فى تحقيق طلبه ، وتلبية أمنيته ، ويوضح عدم تلبيته لها بحكم ظروف واقعة فى الدولة ، ومكانته فى العمل مع الرؤساء ، والهدف من القول الشكر قبل افتناء الفوائد ، وهو مع ذلك يعطيه القليل ويطلب منه العذر والشكر .

والخطوات التى سارت فيها الأفكار فى التوقيع تلتزم بذات الخطوات العريضة التى يحافظ الكاتب عليها فى جميع توقيعاته ، والمعنى يسير فى تموجات تسلم كل منها خيط الفكرة إلى تاليها بعد أن أخذته من سابقتها ، فى وضوح رؤية ، وترتيب نقط ، ينم عن تفكير سليم ، وعقل منظم ، جعل أفكار النص المكتوب وكأنها سائل فى إناء ، لا يزيد قطرة فتسقط منه ، ولا ينقص قطرة فيبدو النقص أو الخلل ، وهذه الخطوات الثلاث فى هذا التوقيع الأخير يتضح فى هذا الترتيب المنطقى المحكم .

أولا : رغبة الرجل استماحة الكاتب الوزير أحمد بن يوسف ، وأمنية الكاتب الوزير تحقيق الرغبة .

ثانيا : علة إمتناع الكاتب تحقيق الهدف ، لطبيعة العمل الذى يُراد تحقيقه .

ثالثا : منع الرجل القليل الذى لا يوازى قدره مع الرغبة فى قبول العذر وتوقع الشكر عليه إن شاء الله .

هذه بعض نماذج من توقيعات الكاتب الوزير أحمد بن يوسف أو بمعنى آخر التوقيعات التى أمكن للباحث أن يقف عليها فى مصادر التراث النثرى التى احتفظت بآثار أحمد بن يوسف فى فنون النثر ، وهى سبعة توقيعات ، استعرض البحث فيها أبرز أفكاره التى أراد الكاتب التعبير عنها . ويتضح أن ثلاثة توقيعات منها كتبت إلى عمال ، أى رعاة أقاليم ، ورجال الحاكم فى أطراف الدولة الإسلامية . أحدهم عامل ظالم والآخر أهمل فى جمع المال وتأخر فى أرساله ، والثالث يوصى بإنسان أن يهتم بأمره كى يعتنى به ، والتوقيعات الأربعة الأخيرة فى غير العمال ، أحدها فى رجل ميئوس منه ، لا فائدة ترتجى ولا عائد ينتظر ولا أمل فى خيره . وآخر اغتصب أرضا ليست له فيعنف ويؤنب ويؤمر بتركها مع التحذير من عواقب التمادى فى الظلم والإغتصاب ، والتعدى على حقوق الغير .

والثالث فى رجل يطلب الكاتب منه أن يتم جميله ، وأن يكمل صنائعه ، ويستمر فى طريق الخير ، ويوجه الشكر له ويحثه على استتمام المعروف واستكمال الفضيلة . والتوقيع الأخير فى رجل يطلب الكثير فيعطيه القليل ويعتذر إليه .

والتوقيعات جميعها بناء على هذه المضامين أو الأفكار تقترب من مضمون الرسالة الفنية بنوعيها المعروفين الديوانية والإخوانية ، فكان من بين التوقيعات ديوانية وتوقيعات إخوانية ، والتوقيعات الديوانية – إن صح هذا التعبير هى التى صاغها الكاتب الوزير إلى ولاة الأقاليم – إلى العمال – تدور فى أمور تخص الحكم وشئون الرياسة يعبر الكاتب فيها عن فكر المسئول ، أما عن توقيعات الإخوانية – إن جاز هذا التعبير–فجاءت إلى رجال بعيدين عن السلطة ، ودارت فى أمور لا ترتبط بشئون الحكم أو الرياسة .

والكاتب الوزير فى توقيعاته يرتدى ثوب الوزارة ، تشع منها روح المسئولية ، فيها تحذير من مغبة التمادى فى الخطأ وفيها روح الأمر والبعد عن التمنى والرجاء وفيها شموخ المسئولية وكبرياء المسئولين .

وهى توقيعات تختلف عن توقيعات الكُتّاب الآخرين غير الكاتب الوزير حيث دارت معظمها حول طلب مال أو تحقيق أمنية أو الرغبة فى أمر جاء أو الإعتذار عن الخطأ أو الإهمال ، بيد أن توقيعات أحمد بن يوسف عبَّرت عن كونه كاتبا ووزيرا .

وقد بدت إمارات ومخايل المسئولية وتعالى رجال الحكم فى التعبير والأمر والإرادة ، وقد جمعت التوقيعات سمات الكاتب الفنان والأديب العبقرى الذى يعبر عن الفكرة فى تمكن وإقتدار ، دل على هذا ما يجده القارئ المتعمق فى قدرة الكاتب على صياغة الأفكار وفى منهجه على التشكيل الفنى والجمالى . ومن أبرز سمات التوقيعات الفنية فى نثر الكاتب الوزير أحمد ابن يوسف :

– وضوح الفكرة ، وتجنب الغموض ، والبعد عن التعقيد المعنوى والإحالة .

– التركيز والتكثيف مع أداء المعنى المقصود فى غير خلل باد أو نقص يؤخذ عليه .

– قصر الجمل وتجريد الألفاظ وتجنب الترادف والبعد عن الحشو لفظا أكان أم معنى .

– البعد عن التصوير أو الخيال وخطاب العاطفة وجمال اللفظ فى أداء المعنى المقصود مع تجنب السجع أو مظاهر البديع وفنون البيان .

– الالتزام بمنهج موحد فى بناء التوقيع الفنى الذى لا يتخطى الدرجات الثلاثة وكأنها مقدمة وموضوع وخاتمة أو تهيئة وحدث ونتيجة فى هيئة المقدمات والنتائج وهو الأسلوب المنطقى المنتظم الذى بدأ واضحًا فى توقيعات الكاتب الوزير .

– صياغة القول الحكيم ونسجه فى بعض توقيعاته حتى يصبح وكأنه بيت القصيد فيذاع أمره ويستوى وتتناوله العقول وقلوب الحفاظ ، مثلما يبدو فى بعض عباراته عن الحق حين يقول الكاتب :

- الحق لا تخلق جدّته ، وإن تطاول بالباطل مدته .
- أول المعروف مستخف وآخره مستثقل .
- الحق واضح لمن طلبه ، تهديه محجته ، ولا تخاف عثرته ، وتأمن فى السر مغبته .

وهذا الأمر يضفى على توقيعات الكاتب الوزير عمق التجربة الإنسانية التى تخرج عن المحدود الخاصة بالتوقيع لتعم بين البشرية وتعد مصدرًا من مصادر القول الحكيم البليغ فى أصول التعامل الإنسانى .

– يكثر فى عبارات الكاتب الوزير فى توقيعاته أساليب النهى ، وهذا أمر يعود إلى طبيعة الأمراء ، ودور الأثر الأدبى بالتوجيه والتوبيخ واللوم والعتاب ورسم السياسة المستهدفة بعبارات مكثفة ، مثل قوله :

- فلا تتثقلن منه – ولا تعدلن عنه ، فلا تحوجنى إلى معاودتك ، فلا تعدلن بعنايتك إلى غيرك ولا تمدحن تفقدك سواك .

– التوقيعات فى بنائها الفنى تختلف تمامًا عن البناء الفنى لمطولات الكاتب فى الديوانيات والتحميدات – كما تختلف بطبيعة الحال – عن الرسائل الديوانية والإخوانية ، كما يغيب . عنها شخص موقع اليه ، وكأن التوقيع يزيل به شكايا أو يعلق به على رسالة ، أو هو ردّ وإجابة على مطلوب من الكاتب ، ولا يصدر التوقيع أول الأمر من فكر الكاتب وإرادته بل هو يعارض به رأيا ويناقد به موقفا فيتسم بالتفاعل الفكرى والالتحام الوجدانى .

وإذا جاز لنا أن نتعامل مع تراث أحمد بن يوسف النثرى فى مصادره الثلاثة وهى :

(أ) المطولات فى التحميدات والديوانيات .

(ب) الموجزات فى الحكم والتوقيعات .

(جـ) الكتب والرسائل الإخوانية .

جاز لنا أن نرى فى أحمد بن يوسف ثلاثة جوانب .

(أ) أحمد بن يوسف الكاتب

(ب) أحمد بن يوسف الوزير

(جـ) أحمد بن يوسف الإنسان

ولعل شخصية الكاتب الفنية ومدرسته فى الكتابه ، وسمات النثر الأدبى ، تبدو فى مطولاته وتحميداته ، فى رسالة الخميس ورسالة الشكر .

وتبدو روح الوزير الآمرة الناهية فى توقيعاته فى إجاز غير مخلٍّ .

وكذلك جوهر الإنسان يظهر واضحًا ويبدو جليا فى كتبه وبعض رسائله التى تحدد معالم . إنسانية أحمد بن يوسف ، وهو آخر ما يعرض له هذا البحث .

obeikandl.com

ثانيا : الكُتُب والرسائل

١ – الكُتُب ..

يعالج هذا الجزء من البحث فنا من الفنون النثرية التى برع فيها الكاتب الوزير أحمد بن يوسف . وهذا الفن النثرى الذى أطلق عليه الباحثون والنقاد الكتب ، وربما أخذ هذا الاسم من المصادر القديمة التى أطلقت على بعض النصوص اسم كتاب إلى فلان بيد أن نصوصا أخرى تحمل اسم الرسالة وربما كانت الكتب جميعها إلى الخليفة أو إلى الحاكم المسئول ، ومن المؤكد أنها كانت تدور حول قضايا سياسية خطيرة وأمور جادة تتعلق بالحاكم والدولة ، كما أنها كانت وثائق تاريخية يؤخذ بها حيث ترصد أهم تحولات الحكم ومجريات الأمور فى فترة من أدق فترات التحوّل فى التاريخ الإسلامى مع بدايات العصر العباسى التى تهدف إلى تأصيل الدعوة لإرساء قواعد الحكم العباسى بينما كانت الرسائل يخطها الكاتب الوزير إلى الخلان والأصحاب حتى يمكن القول أن هذا الجزء من البحث الذى يدور حول الكتب والرسائل أن الطابع الديوانى يغلب على الكتب والطابع الإخوانى يغلب على الرسائل .

والكاتب فى كتبه يُعبِّر عن رأى الحاكم أو بمعنى آخر يكتب على لسان الخليفة ما يحب أن يقوله وما يتمّنى أن يسمعه وما يريد أن يعبر عنه ، وكأنه لسان الخليفة الناطق وفكره وقلمه ، ومرصده الذى يرصد ويسجل مجريات التحول فى أمور الدولة وسياستها .

والكاتب فى بعض رسائله يعبر عن مشاعره الخاصة ، وأحاسيسه الذاتية وسماته الفنية التى يعرف بها الكاتب فى تعامله مع اللفظة أو بناء الجملة قد لا يتغير فى الكتب والرسائل وإن كانت شخصية الكاتب الأخرى تكون أكثر وضوحا فى رسائله وشخصية الوزير أكثر وضوحا فى كتبه .

ومن المعلوم أن رسائل الكاتب أحمد بن يوسف لم تكن كلها إخوانيه بل كانت له عدة رسائل ديوانية تمس صلب الحكم وتدير دفته معبرة عن رأى الحاكم ، وربما يمكن القول بأن الكتب أكثر أهمية وخطورة الرسائل وذلك يعود إلى طبيعة المواقف والأزمات التى أوجبت صباغة هذه الكتب وهى فى البداية والنهاية استجابة لأمر الخليفة المسئول كما أنها تعد من أخطر الوثائق التاريخية التى لا يمكن للمؤرخين إغفالها لما تحمله من صدق فى التعبير عن وجهة نظر الحاكم فهى أكثر التصاقا برؤية الخلافة من المؤرخين الآخرين الذين يتمتعون بحرية إبداء الرأى بالتعامل مع الحدث التاريخى .

ومن أهم الكتب التى احتفظت بها مصادر الأدب العربى ، لأحمد بن يوسف ، كتابه فى قتل الأمين ، والحدث التاريخى جِدُّ خطير ، والحديث عنه يتطلب دقةً فى التعبير ، ولا سيما حين يكون المقتول أخًا للحاكم المسئول ، وحين تختلف الآراء حول دواعى القتل وتبريره ، حتى يُعدّ هذا الكتاب فى منزلةٍ لا تقل عما أرّخه المؤرخون فى مصادر التاريخ ، وقد ورد هذا الكتاب[1] فى معجم الأدباء ، وفى كتاب الوزراء والكتّاب ، وفى زهر الآداب ، وفى تاريخ الطبرى . ولا خلاف بين هذه المصادر فى نص الكتّاب ، أو فى مناسبته ، ونسبته إلى صاحبه ، وإلى من كُتِب إليه .

وقد روى صاحب زهر الآداب أن هذا الكتاب كُتب فى بغداد ، ورُوى أنه كُتب « بَمرْو » ، ويقول الطبرى فى تاريخه[2] :

« لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون ، بكى ذو الرياستين وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرًا ، فقال له المأمون : قد مضى ما مضى ، فاحتل فى الاعتذار منه ، فكتب الناس فأطالوا ، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه :

« أما بعد ... .. فإن المخلوع وإن كان ... . (الكتاب) .

ويقول الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتّاب[3] : « ولما قتل طاهر محمدًا المخلوع أنفذ رأسه إلى المأمون ، فقال الفضل بن سهل : ما فعل بنا طاهر ، اسل علينا سيوف الناس .. ثم قال وأمر الفضل أن ينشئ كتابًا عن طاهر يخبره ليقرأ على الناس ، فكتب عدة كتب ، لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف ..

« أما بعد ... . فإن المخلوع وإن كان ... . » الكتاب .

ويروى ياقوت فى معجم الأدباء[4] الخبرين ، ويقول بعد أن ذكر الخبر الأول ، فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف ، وقدّمه ، ثم أورد الخبر الثانى وقال : « وقيل إن المأمون لما حمل رأس المخلوع إليه وهو بمرو ، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر بن الحسين ، ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الرياستين ، رجع نظره فيها ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانة ، وأخذ القلم والقرطاس ، وأقبل يكتب بما يفرغ له من المنازل ، ويعد له فيها من الفرش والآلات ، والكسوة والكراع وغير ذلك ،

(١) زهر الآداب ٣٨/٢ – تاريخ الطبرى ٢١٤/١٠ . معجم الأدباء ١٦٧/٥ – كتاب الوزراء والكتاب ٣٨٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢١٤/١٠ .
(٣) الوزراء والكتّاب ٣٨٥ .
(٤) معجم الأدباء ١٦٧/٥ .

ثم طرح الرقعة إلى أحمد بن يوسف ، وقال له : إذا كان فى غد فاقعد فى الديوان ، وليقعد جميع الكتب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق ..

هذه أهم الروايات حول كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمير وقد كتبه إلى الآفاق ، وقد كلف غيره بالكتابة ولكنه لم ينل رضا المأمون لطول الكتاب ورغبة الخليفة فى التركيز والأطناب ، لتبريد الموقف الخطير الذى قتل فيه الأمين حتى لا يعد المأمون قاتلاً لأخيه .

وهذا الكتاب من أبرز الأمور التى خلقت للكاتب أحمد بن يوسف منزلة وحظوة لدى المأمون ، وارتفع الكتاب بالكاتب إلى الصف الأول فاحتل قلب المأمون وعقله ، وكان هذا الكتاب أول ما ارتفع أحمد بن يوسف الكاتب ، فقد أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر أريد أكثر من هذا ، فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة فأحضره لذلك ، وكتب :

« أما بعد . فإن المخلوع وإن كان قسم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة[1] ، فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبين فى الولاية والحُرمه ، بمفارقته عصمه الدين ، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما اقتصَّ علينا من نبأ نوح وابنه : ﴿يا نوحُ إنهُ لَيْس مِنْ أهلِكَ إنهُ عَملُ غيرُ صالح﴾ ولا صلة لأحدٍ فى معصية الله ولا قطيعه ما كانت القطيعة فى ذات الله .

وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل المخلوعُ وردَّاه رداءُ نكثه [2] وأحصده[3] لأمير المؤمنين أمَرِه وأنجَزَ له ما كان ينتظر من سابق وعده ، فالأرضُ بأكنافها[4] أوطأُ مِهادٍ لطاغية ، وأتبعُ شيء لمشيئته ، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهى البُردة والقضيب .

والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه والكائد له من ختَرَ[5] عهدَه ونقض عقدْه ، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها ، وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الدين بعد دروسها[6] ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

وتختلف بعض مصادر الأدب فى صياغة بعض العبارات التى وردت بآخر كتاب أحمد بن يوسف ، أو فى بعض مفرداته وإن كانت تتفق جميعها فى صلب الكتاب وفكرته ، فقد ورد

---

(١) اللحمة : القرابة .
(٢) نكث العهد : نقضة .
(٣) من أحصد الحبل : أحكم فتله .
(٤) الأكناف : جمع كنف وهو الناحية .
(٥) الختر : الغدر والخديعة .
(٦) دروسها : ذهابها ومحوها .

فى المنظوم والمنثور :

« الحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحق ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده » وفى زهر الآداب تكرير للحمد فى آخر الكتاب .

« والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين » .

إن الموقف التاريخى لكتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين معروف ومسجل فى مصادر التاريخ ، وفى معظم كتب الأدب ومصادره ، ولا خلاف حول قيمة الكتاب وأهمية الكاتب والمكتوب إليه ، فقد رفع الكتاب الكاتب إلى المقام الأول ، وقد دافع الكتاب عن الخليفة المأمون ، وبرر موقفة أمام المسلمين فى جميع آفاق الأمة الإسلامية ، وقد فضل كتاب أحمد بن يوسف على كتب أخرى لكتاب آخرين لم تلتزم بالإيجاز والاقناع . وقد سار الكاتب بهذا الكتاب معبرا عن الموقف والهدف فى أطر فكرية واضحة ومحددة وأهمها :

– تأكيد صلة المخلوع المقتول وهو الأمين ، بالخليفة المسئول وهو المأمون وعدم إنكارها فهو قسيم أمير المؤمنين فى النسب والقرابة .

– إبراز الخطأ الذى وقع فيه المخلوع استنادا إلى الكتاب والسنة ، وهما مصدران لا يمكن للمسلمين تجاوزهما فقد خرج المخلوع عن عصمه الدين وعن الأمر الجامع للمسلمين .

– الاستشهاد بالموروث الدينى وما عرف عن حكاية نوح وابنه وتأييد القول بأية من أى القرآن الكريم ، كان المخلوع فيها ابن نوح عليه السلام .

– بيان ما وقع للمخلوع وكونه نتيجة طبيعية لعمله ونقضه للعهد .

– ختام الكتاب بفكرة عودة الحق إلى صاحبه وأن الدين قد ازدهر بعد أن كادت الفرقة تمزق الأوصال .

التزم الكاتب أحمد بن يوسف فى كتابه حول قتل الأمين بالمطلع والختام فى فنية مكثفة ومركزة ، بدأ بأما بعد ، وانتهى بالسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، لم يسرف فى القول ولم يطنب فعبر وأقنع ، ولم ينس فكرة لها دور فى الاقناع حتى يمكن اعتبار هذا الكتاب من أبرز النصوص النثرية التى تؤكد عبقرية الكاتب الوزير أحمد بن يوسف ..

وقد تمكن الكاتب أحمد بن يوسف من رسم شخصية الأمين فى كتابه بعدة سمات أسهمت فى تصويره بصورة الخائن المنشق ، وأن ما لقيه كان جزاء عمله فهو المخلوع ، وهو المفرق لحكم الكتاب والسنة ، وهو المفارق عصمة الدين ، وهو الخارج عن الأمر الجامع للمسلمين ، وهو أقرب ما يكون إلى عصيان ابن نوح وقد نجح الكتاب فى إبراز صورة الأمين المخلوع بالناقض للعهد والخارج على إرادة الجماعة وأما عمله عملٌ غير صالح .

وفى المقابل رسم الكاتب فى كتابه صورة المأمون الخليفة الحاكم بأنه المحافظ على أمر الدين وهو المؤلف للفرقة ، وهو الجامع للأمة بعد الشتات ، وهو الذى أحيا أعلام الدين بعد دروسها ، وأن الله سبحانه وتعالى أعاد لأمير المؤمنين حقه ، وأن الطاعة واجبه له ، وهى فرض على الأمة من أجل الدين وطاعة القائمين على أمر حماية ورعاية أمور المسلمين .

وتشتد العلاقة قوة ومتانة بين المأمون وأحمد بن يوسف ، أى بين الخليفة والكاتب الوزير ويكثر الكاتب من كتابه الكتب بلسان الخليفة يعبر فيها عن رأى الحاكم فى براعة واقتدار ، وتسجل معظم مصادر الأدب بعض هذه الكتب ولا يجزم باحث بأنها كل ما كتبه الكاتب من كتب إلى المأمون وربما أهملت بعض المصادر جمع هذا التراث من كتب المأمون ، ومما لا شك فيه فإن الكتب التى يعرض البحث لها تأتى فى المرتبة بعد الكتاب السالف ذكره مما قبل الأمين ، لخطورة أمره ، فهو شهادة لمولد كاتب ، أو بداية علاقة وثيقة بين الخليفة والكاتب ، بيد أن هذه الكتب الأخرى تحمل سمات الكاتب الفكرية والفنية وتؤكد براعته فى مخاطبة الرؤساء وبين هذه الكتب كتاب لأحمد بن يوسف كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلات ببابه ، ويرد عليه المأمون بكتاب هو الآخر يوضح الاستجابة ويصرح باقتناعه بما جاء فى كتاب أحمد بن يوسف .

ولعل هذا الكتاب من الكتب النادرة التى نجد لها ردًا ، وتسجل مصادر الأدب استجابة الخليفة لها حتى يعد الكتاب وجوابه من النصوص الجديرة بالدرس والتسجيل والتحليل .

كتب أحمد بن يوسف إلى المأمون « إنَّ داعِى نَدَاكِ ، ومُنادِىَ جَدَاكِ[1] جمعًا ببابك الوُفودَ ، يُرجون نائِلَك العتيد[2] ، فمنهم مَن يمت[3] بُحرْمه ، ومنهم من يُدْلِى بسالِفِ حِذمة ، وقد أجحف بهم المقَامُ ، وطالت عليهم الأيامُ ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسَيْبه[4] ويحقق حسن ظنهم بطوله ، فَعَل ، إن شاء الله تعالى » ، فوقع المأمون فى كتابه :

الخير متبعٌ ، وأبواب الملوك مَغانٍ[5] لطالبى الحاجات ، ومواطن لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يَسقُط الطيرُ حيثُ يلتقطُ الحَسبَ وتغشى منازلُ الكُرماء فأكتب أسماء من ببابنا منهم ، وَاحكِ مراتبهم ليصيرَ إلى كل امرئ معهمَ قدرُ استحقاقه ، ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحِجاب ، وتأخير الثواب[6] .

---

(١) الجدا والجدو : العطية .
(٢) النائل : المعطاء . العتيد : المعهود .
(٣) يمت : يتوسل . وأدلى بحجته : احتج بها .
(٤) السيب : العطاء ، ونعشه كمنعه وأنعشة ونعشه : جبره بعد فقر .
(٥) المغانى : جمع مغنى كمرمى وهو المنزل .
(٦) تأخير الثواب : بالمطل والحجاب .

فقد قال الشاعر :

فإنك لَـــن تَرىَ طَـرْدًا لِحُرٍّ كالصـاق به طَرَف الهوان

ولم تجلِبْ مودة ذى وفـاء يمثـل الودِّ أو بَذْل اللسـان

وقد ورد هذا الكتاب وجوابه فى زهر الآداب ومعجم الأدباء ونهاية الأرب وجمهرة رسائل العرب[1] ومصادر أخرى وجاء الكتاب ورده فى هذه المصادر جميعها دون تبديل أو تغيير ، فقد التزمت المصادر كلها بالنص دون أن يلحق به نقص أو زيادة ، كما أن هذا الكتاب من الكتب التى اهتم المأمون بالرد عليها ، وقد ورد الكتاب وجوابه مع عدة أمور تتعلق بالكتابة ودورها وعلاقة الكاتب بالحاكم ، ودور الكاتب فى الالتزام والتعبير عن حاجات المجتمع وقضايا الرعية ، ودور الحاكم فى تلبية مطالب رعيته ، والانصياع لرأى الكاتب الذى يُعبّر عن رأى الجماعة .

وأوضح الكاتب فى كتابه حاجة بعض فئات الشعب لعطاء الخليفة المأمون ، وقد حدد الكاتب بعض حالات هذه الفئات التى تحتاج إلى العطاء ، وقَسَّمهم إلى قسمين : الأول : من يرتبط بالخليفة بعلاقة قرابة أو نسب أو حرمة ، والثانى من كان يعمل فى خدمته أو فى بلاطه فى سالف الأيام ، ودار الزمن به ، فأضحى فى مسيس الحاجة إلى العطاء ، ويأتى رد الخليفة مقترنا بالاستجابة السريعة دون تسويف أو مراوغة ، لقد حدد الخليفة المأمون دور الخلفاء والملوك فى عبارة قوية جزله حين قال :

« وأبواب الملوك مغانم لطالبى الحاجات ، ومواطن لهم » .

والمغانى أى أنها تعنى أصحاب الحاجات وأنهم أولى من غيرهم بالسؤال والاستجابة ، وهذا دورهم فى الوقوف لإعانة المحتاج وتقديم العطاء لمن يستحق ولمن هو فى حاجة إليه .

وفى نهاية الأرب ، وأبواب الملوك مواطن لذى الحاجات » .

وفى زهر الآداب « وأموال الملوك فكان لطلاب الحاجات » .

هذه الاختلافات الطفيفة فى بعض كلمات كتاب المأمون ورده على أحمد بن يوسف لا تغير فى المعنى ، بل تضيف إليه ما يقويه ، فى استبدال لفظة مغان ببلاط ، ولفظة أبواب بأموال ، ومغان إلى مظان ، وكلها تدور فى دائرة عطاء الملوك للرعية المحتاجة حتى لا يكون بينهم من هو فى حاجة إلى عطاء أو مال ، ويأتى الشعر ليؤدى دوره المرسوم له فى كتاب المأمون ، ويستشهد فى الرد ببعض أقوال الشعراء من عصره أو من العصر السابق ويدور المعنى مؤكدا

(١) زهر الآداب ٣٩/٢ – معجم الأدب ١٦٩/٥ – نهاية الأرب ٢٦٠/٧ .

ما يهدف إليه الكاتب أو الكتاب ، فالطير يسقط حيث الحب ، كى يلقطه ومنازل الكرام هى التى يدق بابها ، ويقف أصحاب الحاجات بها ، فهم لا يعلمون أنهم لن يردوا خائبين ، ووظيفة الشعر فى الكتاب تبدو فى تقوية المعنى وتأكيده ، والشعر لا يكرر قولا تضمنه النثر واحتواه الكتاب ، بل امتد بالمعنى خطوة إلى الإمام تأكيدا وتعميقا للفكرة العامة ، حتى يتناغم الشعر مع النثر فى أداء المعنى الذى تهدف الرسالة إليه .

ويصدر الخليفة أوامره لوزيره ، توضح طبيعته الخليفة المعطاء ، وما يجب أن يكون فى مثل هذه المواقف ، فيأمر الخليفة بتسجيل أسماء طلاب الحاجات الواقعين ببابه من المحتاجين للعطاء ، ويأمر بترتيب هذه الأسماء حسب إقرار هؤلاء الناس ، لينال كل منهم العطاء الذى يناسبه ، مع التوصية بعدم التأخير ، فليس هناك ما يدعو إلى طول الحجاب أو تأخير الثواب .

إن الدور الذى أدّاه الكاتب فى كتاب المأمون يوضح دورالكاتب فى النطق بلسان الرعية ، والتعبير عن حاجته ويظهر بلاغته فى القدرة على تصوير المراد ، وتحقيق المستهدف مما أدى إلى سرعة اجتماع الخليفة بطلب الكاتب والاستجابة اليه .

وتطالعنا مصادر التراث فى النثر العربى بكتاب آخر لكاتبنا الوزير أحمد بن يوسف كتبه إلى المأمون ، واختلفت بعض المصادر حول نصه ، حتى أنه ورد فى ثلاث صور ، ويظن الباحث عدم الاختلاف حول نص ها الكتاب ، وأن الصور الثلاث ما هى إلا كتب ثلاثة كتبها الكاتب إلى الخليفة فى مناسبة واحدة تتكرر فى كل عام ، وظن الجامعون للتراث النثرى من رسائل وكتب أنها روايات مختلفة لرسالة واحدة أو نصوص متعددة لكتاب واحد ، والذى أوقعهم فى هذا الفهم ، أن الكاتب « أحمد بن يوسف » والمكتوب إليه « الخليفة المأمون ، لا خلاف عليهما بطبيعة الحال .

كما أن المناسبة الذى صدر فيها الكتاب واحدة ، وهى عيد النيروز أو عيد الربيع ، والأمر الذى يجعلنا نميل إلى أن الكتب مختلفة هو أن المصدر الذى ورد فيه النص المخالف غير المصادر التى سجلت الصورة الأخرى أو الصورة الأولى .

وقد روى صاحب زهر الآداب هذا الكتاب وحده لم يشترك معه لأحد من أصحاب الكتب والروايات القديمة ، أما الصورة الثانية فقد رواها صاحب صبح الأعشى ، وصاحب معجم الأدباء ، واشترك معهما أيضا الفخرى والصولى ، أما الرواية الثالثة فقد رواها الصولى أيضا فى الأوراق مما يدل على أن مصدرا واحدا قد أتى بصورتين لكتاب أنه واحد ونحن نرجح أن المناسبة وهى عيد النيروز التى تتكرر كل عام كان الكاتب أحمد بن يوسف من عادته أن يقدم هدية إلى الخليفة المأمون ومعها كتاب منه (من كلماته) :

... ...

لقد أهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نيروز[1] طبق جزع[2] عليه ميل[3] من ذهب ، فيه اسمه منقوشا ، وكتب إليه .

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإلطاف[4] العبيد السادة ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميلٌ » .

فلما قرأ المأمون الرقعه قال : جاءت هدية أحمد بن يوسف ، قالوا : نعم ، قال هى فى دارى ، أم دارى فيها ؟ فلما رفع المنديل استظرف الهدية ، واسترجح مهديها[5] .

... ...

وفى رواية أخرى :

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز سفط ذهب فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه[6] وكتب معه :

هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف العبيد السادة ، وقد قلت :

على العبيد حقٌ فهو لا شك ما يملهُ ... وإن عَظُم المولىَ وجلت فواضُله[7]

ألم ترنا نُهدِى إلى اللهِ قالهُ ... وإن كان عنه ذا غِنى فهو قابلهُ

فلو كان يُهدى للجليل بقدرهِ ... لقصرَ عنهُ البحرُ يوما وساحلهُ

ولكننا نهدى إلى من نجلُّه ... وإن لم يكن فى وُسعيا ما يشاكلهُ[8]

وفى رواية أخرى للصولى :

وأهدى أحمد بن يوسف هدية إلى المأمون فى عيد وكتب إليه هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلاً من كثيره عندى ، وقلتُ :

أهدى إلى سيده العبدُ ... ما ناله الإمكانُ والجهدُ[9]

وإنما أهْدى له ماله ... تبدأ هذا ، ولِذَا رد

فقال المأمون : عاقل أهذى حَسنا (الأوراق لأبى بكر الصولى ١ :٢١٦) .

---

(١) النيروز والنوروز . أول يوم من السنة ، فارى معرب ، وهو عند القبطة أول توت

(٢) الجزع بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى فيه سواد وبياض ، تشبه به الأعين .

(٣) والميل بالكسر (والملول كعصفور) . المكحال الذى تكحل به العين

(٤) ألطفه : أتحفه ، واللطفه بالتحريك ، والهدية .

(٥) زهر الآداب ٢/٤٠

(٦) فى الفخرى والأوراق (هدية قيمتها ألف ألف درهم)

(٧) فواضله : الفواضل الأيادى الجسيمة أو الجميلة

(٨) (صبح الأعشى ٢ :٤٢٠ ، ومعجم الأدباء : ٥ :١٧٢ ، والفخرى ص ٢٠٦ الأوراق ١/ ٢١٢..

(٩) الجهد : بالفتح والضم الطاقة .

وهذا يؤكد قولنا حول إختلاف الرسائل وتعدد الكتب ، وأنه ليس كتابا واحدا بروايات مختلفة ، وذلك لإختلاف النص الذى ورد فى كل صورة ، ودور الشعر الذى أتى به الكاتب فى كل مرة ، ورضا الخليفة عن الهدية مما يوحى بأن العادة متكررة وأن الكاتب يهدى الخليفة كل مرة ويكتب مع الهدية كتاب ..

... ...

ويهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى هدية رمزية ، ويرى الكاتب أنها قليلة ، ويكتب فى ذلك كتابين ولعلهما كتاب واحد ، واختلفت مصادر الأدب فى روايته ، وذلك إختلاف المصدر وراوى الكتاب .

الكتاب الأول أو الرواية الأولى يرويها صاحب زهر الآداب ويرويها أيضا صاحب العقد الفريد .

والكتاب الثانى أو الرواية الثانية يرويها ابن طيفور صاحب اختيارالمنظوم والمنثور .

هذا الكتاب يؤكد صلة أحمد بن يوسف الوزير الكاتب بكبار رجال الدولة ، ويوضح أن الكاتب تعود على مراسلة هؤلاء فى المواسم والأعياد ، كما تعود أيضًا أن يقدم الهدايا مشفوعة بكتاب من نثره ، والكاتب يهدى إلى الخليفة المأمون غير ما يهديه إلى إبراهيم بن المهدى ، وربما تكون العلاقة التى تربطه بإبراهيم بن المهدى قوية وحميمة تجعله يتدلل فى معاملته ، وربما أراد أن يلفت النظر أو يصنع ما يدخله فى إطار التفكه والاستطراف وهو ما يعجز عن صنعه مع المأمون ونرى أن الروايتين كتاب واحد ، والكاتب فى إهدائه الخليفة يختلف عما كتبه إلى ابراهيم بن المهدى ، وذلك لأن الكاتب لا يستطيع أن يكون مقلا فى إهدائه أو غير محتشم فى تعامله مع إبراهيم بن المهدى أكثر من مرة ، وهو رأى أنه لم يقدّر ابن المهدى حق تقديره فهو لا يكرر هذا العمل وقد اعتذر له لمّا علم أن إبراهيم بن المهدى قد استقلّ الهدية ، وربما كانت الروايتان لكتابين مختلفين ، والكاتب يكرر اعتذاره ، وهذا بعيد الاحتمال .

فقد أهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى مِلْحًا مُطَيَّبًا ، وكتب إليه :

« الثقة بك قد سهلت السبيل إليك ، فأهديت هدية من لم يحتشم إلى من لا يغتنم » .

وقال بن طيفور :

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية إستقلها :

بلغنى استقلالك لما ألطفتك ، والذى نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك فى البر فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم .

وربما يكون الكتابان روايتين مختلفتين لكتاب واحد ، وكل رواية تكمل الأخرى ومن الأكيد أن يفعل الكاتب فعلته مرتين ، حين يرسل هدية قليلة القيمة لابراهيم بن المهدى ، والأقرب إلى التصديق ما جاء فى الرواية الثانية التى رواها بن طيفور ، وقد بدأ الكاتب قوله « بلغنى استقلالك لما ألطفتك .. »

والكاتب لم يكن يدرى حين أرسل الهدية أن المهدى سيغضب أو يعتب عليه ، ولذلك فمن غير المحتمل أن يكون الكاتب قد توقع هذا الأمر ، وإلا لم يفعله .

ومنهج الكاتب واضح كما بدا فى توقيعاته من قبل ، حيث الإيجاز والتركيز المكثف ، والبعد عن المقدمات والاستغناء عن الحواشى والخواتيم ويشبه بناء الكتاب بناء التوقيعات الفنى الذى يصوغه الكاتب فى ثلاثة محاور .

- الهدية قليلة والكاتب قد بلغه ذلك .
- تبرير هذا السلوك بالود والأنس والثقة المتبادلة بين الطرفين .
- تصرف قليل الاحتشام ما غير الطامع فى الغنم (الغنم) .

وسلوك الكاتب ، فى هديته القليلة وعلى ما يبدو – قد أغضب إبراهيم بن المهدى وبراعة الكاتب الفنية ، تصلح ما فسد ، وترأب الصدع فى بلاغته وإيجازه ، وتتهافت مصادر الأدب على تسجيل الرواية وحفظها وربما تكمل الروايتان الكتاب الواحد حتى نظن أنه كان على هذه الصورة :

« بلغنى استقلالك لما ألطفتك ، والثقة بك قد سهلت السبيل إليك ، والذى نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلة الحشد لك فى البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم » .

... ...

وآخر كتب أحمد بن يوسف مع الخلفاء كتابه مع المأمون ، يروى الكاتب عنه حكاية لطيفة ، وقصة طريفة ، تفسر قوله ، وتبرر ابتداعه ، ولعلها حكاية صادقة ، ولعلها من نسج الخيال .

فقد قال أحمد بن يوسف :

« أمرنى المأمون أن أكتب إلى النواحى من الاستكثار من القناديل فى المساجد فى شهر رمضان ، فأعيا علىّ ولم أجد مثالا أحتذى عليه ، فبت مغمومًا[1] فأتانى آتٍ فى منامى ، فقال : أكتب :

(١) فى الأوراق للصولى : « فبت لا أدرى كيف أفتح الكلام ولا كيف أحتذيه .

« فإن فى ذلك عمارةً للمساجد ، وإضاءة للمتهجّدين[1] ، وأُنسًا للسَّابلة[2] ، ونَفيًا لمكامن[3] الرِّيب ، وتنزيهًا لبيوت الله ، جَلَّ وعزّ عن وحشة الظلم .

فانتبهت وقد انفتح لى ما أريد فابتدأت بهذا وأتممت عليه[4] .

هذا الكتاب جاء ذكره فى عدة مصادر أدبية ، ورواه كثيرون ، وأجمعت المصادر على ذكره ، وإن اختلفت فى نصه .

رواه صاحب كتاب بغداد ، وصاحب زهر الآداب ، وصاحب الصناعتين ، وصاحب كتاب الأوراق[5] .

والكتاب فى هيئته التى ورد ذكرها فى هذه المصادر يدل على أنه ليس النص كله ، كما أنه ليس النص الأصلى الذى لم يتخلله تحريف أو تصحيف . وربما ما روى ، وما اتفق على ذكره ، مناسبة الكتاب وأهم ما جاء فيه ، وليس الكتاب كله ، ومن المحتمل أن يكون للكتاب نص آخر أكمل من هذا النص ، وأن تكون له بداية ونهاية ، أو أن يكون له مقدمة وخاتمة ، لأن هذا الكتاب على هذه الصورة المُروى عليها ، يبدو البتر أو القطع فيها ، فليس من المنطقى أن تكون بداية الكتاب ومطلقه ، هى تلك العبارة التى نسبت للكاتب أحمد بن يوسف ، واتفقت المصادر على ذكرها وهى :

« فإن فى ذلك عمارة للمساجد » والاتفاق بين المصادر لا يعنى اتفاقًا على نص لم يدخل إليه تحريف ، بل يجب أن تفهم هذه الأمور على صحتها وهى أن الرواية الناقصة وردت فى مصدر ، ثم تعاقبت المصادر الأخرى على الأخذ منه ، فهذا يعنى اتفاق المصدر المأخوذ منه ، وليس اتفاقا على وحدة النص .

والكتاب مع قصره ، يدل دلالات ، ترسم ملامح شخصية الكاتب الوزير التى أسهمت النصوص النثرية المنسوبة إليه على تحديد معالمها ، إنسانيًا وفنيًا ، والعلاقة بين الإنسان والفنان وثيقة أكيدة ، فهىالعلاقة بين شخصية المبدع ، وكون ما يبدعه

والخليفة يأمر الكاتب الوزير بالكتابة فى أمور يهتم بها الحاكم ، ويراها ضرورة للرعية ، يهتم الخليفة بشهر رمضان ، والاحتفال بمقدمه ، ويطلب من القائمين على أمور البلاد ، فى مختلف البقاع ، الاستكثار من القناديل فى المساجد .

---

(١) المتهَجد : المصلى بالليل .

(٢) السابلة : الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم .

(٣) فى كتاب بغداد « لظان » .

(٤) فى زهرالآداب « فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه وأمر أن أكتب عليه .

(٥) كتاب بغداد ٢٣٧/٦ – زهر الآداب ٤٠/٢ ، الصناعتين ٢٢ ، الأوراق ٢٣١/١ .

والكاتب يريد أن يكون عند حسن ظنه ، فيأتى بصياغة أدبية محكمة ، تعبر عن الفكرة ، فى إيجاز بعيد عن الخلل أو التقصير ، ويعترف الكاتب بأن هذا التكليف قد أتعبه ، فلم يجد مثالا لكتابات غيره يحتذى عليها ، فيشعر بالهم ، وبيات مغمومًا فيأتيه هاتف ، فى منامه ، يأمره بأن يكتب هذه العبارة ، يوضح فيها ، فائدة الإكثار من القناديل فى المساجد ، فى شهر رمضان ففيها :

عمارة للمساجد

وإضاءة للمتهجدين

وأمنا للسابلة

ونفيًا لمكامن الريب

وتنزيها لبيوت الله عن وحشة الظلم

وقد جمع الكاتب كل ما يمكن أن تؤديه القناديل فى بيوت الله ففى هذا النور تعمير ، ودفعا للخراب ، وبعدا عن الوحشة ، وجذبا للأنس ، وإقبالا على بيوت الله ، واستمتاعًا بما فيها من أمن واطمئنان ، كما أن القناديل تضىء طريق القاصدين مساجد الله من الظلم ، وتحقق نوعًا من الأنس للجماعة العابرة ، وتنفى وتبعد الشك والريبة عن أماكن الظلام ، وتجنب بيوت الله وحشة الظلمات .

وتطالعنا كتب أخرى بين آثار الكاتب الوزير النثرية ، تحمل طبائع الكاتب ، وتحدد ملامحه الفنية ، وتؤكد براعته فى فن الكتابة ، والقدرة على التوسل بالقلم ، وتؤكد أنه كان يشغل منصبه عن جدارة .

كما تؤكد هذه الكتب أن أحمد بن يوسف – دون شك كان علما من أعلام الكتابة فى العصر العباسى ، ومن الذين أسهموا فى بناء فنون الكتابة الديوانية والأخوانية ، فى إطار يحمل ملامح الكاتب بعيدًا عن التقليد أو التكلف أو الإسفاف .

كما ترسم هذه الكتب ذكاء الكاتب وعبقريته فى القدرة على الخروج من المأزق ، والتعامل مع المواقف ، وسلاحه فى هذا كله قلمه الذى استطاع أن يطوعه لفكره فأحسن قياده ..

أحمد بن يوسف
وكتبه مع عبد الله بن طاهر

عبدالله بن طاهر بن الحسين ، قائد وابن قائد ، له فى تاريخ الإسلام ، وتحريك أحداثه ، دور لا يُنكر ، وقد سجلت مصادر التاريخ الإسلامى وقائعه ومواقفه ، وكان للكاتب أحمد بن يوسف مع عبدالله بن طاهر بعض الكتب والرسائل ، وهذا ما يهم البحث ، إلقاء الضوء على كتابات الوزير الكاتب أحمد بن يوسف مع القائد عبدالله بن طاهر .

وأهم ما احتفظت به مصادر الأدب من كتب الكاتب الوزير إلى عبدالله بن طاهر كتاب العزاء ، فى وفاة والد القائد وهو طاهر بن الحسين . وكذلك كتابه إليه يهنئه بالفتح والنصر على الخارجين والمارقين أمثال عبيد الله بن السَّرى .

وقد توفى طاهر بن الحسين فى جمادى الأولى من حُمى أصابته ، وقيل أنه وُجد فى فراشه ميتًا ، ولما ورد خبر موت طاهر بن الحسين إلى المأمون قال: لليدين وللفم، الحمد لله الذى قدّمه وأخرّنا ، وكان طاهر بن الحسين أعور العينين ، وفيه قال بعضهم . وهو دعبل بن على الخزاعى :

يا ذا اليمنين وعَينٍ وَاحِده نُقْصانُ عَيْنٍ وَيمينٌ زَائِده

وقد استعمل المأمون على عمله جميعه ابن القائد طاهر بن الحسين وهو عبدالله بن طاهر ، وسيرَّ القائد إلى خراسان أخاه طلحه ، وكان عبدالله بن طاهر بالرَّقَّه فى حرب مع نصر بن شَبَث .

وفى سنة ٢٠٩ (تسع ومائتين) من الهجرة حاصر عبدالله بن طاهر نصر بن شبثٍ بَكَيْسوم ، وضيق عليه ، حتى طلب الأمان ، فأجابه إليه ، وتحوَّل من معسكره إلى الرَّقه ، وصار إلى عبد الله ، وكانت مدة حصاره ومحاربته خمس سنين ، فلما خرج إليه أضرب عبد الله بن طاهر حصن كَيسوم ، وسير نصرًا إلى المأمون فوصل إليه فى صفر سنة عشر ومائتين من الهجرة .

وسار عبد الله بن طاهر إلى مصر ، وافتتحها ، واستأمن إليه عبيد الله بن السرّى ، ولا يتسع المجال لعرض تاريخ عبد الله بن طاهر ، ودوره فى تأصيل الدعوة العباسية ، ودفاعه عن الخليفة المأمون ، ونجاحه فى مواصلة مسيرة الأب القائد ذى اليمنيين طاهر بن الحسين .

ويهتم البحث بدراسة ما كتبه أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر ، ومن المعلوم أن معظم كتابات الكاتب الوزير تعد وثائق تاريخية ، يهتم بها المؤرخون ، وتؤكد ما سجلته مصادر التاريخ .

ولعل بعض ما كتبه أحمد بن يوسف فى حوادث ووقائع عصره وخلافة المأمون ، كان أسبق من كتابات المؤرخين حول هذه الحوادث والوقائع ، وكان أكثر صدقا وأكثر قُربا وأكثر جمالاً فى التعبير عن الحدث بطبيعة الحال الذى يعود إلى طبيعة الكتابة الأدبية واختلاف منهجها عن الكتابة التاريخية .

... ...

وكتابات أحمد بن يوسف استجابة فورية للواقعة ، بيد أنَّ كتابات المؤرخين تأتى فى مرحلة لاحقة ، وتختلف بطبيعة الحال كتابة أحمد بن يوسف عن كتابة المؤرخ فلكل منهجه ولكل طريقته حسبما يمكنها طبيعة الأدب وطبيعة التاريخ .

... ...

والكاتب الوزير أحمد بن يوسف ، فى كتاب العزاء إلى عبد الله بن طاهر فى وفاة أبيه لطاهر بن الحسين ، بدأ كاتبًا مُلْتزما فاهما أصول صنعته الفنية ، متدربا على التوسل بوسائلها ، مجيدًا استخدام أدواتها ، ويبدو الكاتب فى كتبه وكأنه النموذج الكامل المتكامل للكاتب لعربى ، الذى يُعطى كل ذى حق حقه ، ويخاطب كل مخاطب بما يليق ومكانته ، وعلى قدر علمه واهتماماته ، ويعرف طقوس كل مناسبة ، ويجيد فهم أصولها وقواعدها ، متوسلاً بمفردات اللغة وتراكيبها السليمة التى أجاد التعامل معها فخدمته فى أداء دوره الفنى ووظيفته الأدبية .

وقد بدأ خطاب العزاء فى هيئته ليس بالقصير المُخلّ ، وليس بالطويل المُمل ، وكان الكاتب موفقا فى هذا الشأن ، فإن الإيجاز الذى تعوّد عليه من توقيعاته وبعض كتبه ،لم يكن يناسب هذا الموقف ، الذى يُعزى فيه الكاتب القائد ، فالكاتب فى عزائه يحاول التخفيف والتسرية ، ويحاول اقتلاع الحزن من قلب الحزين على أبيه ، كما أن طول الكتاب قد يدفع إلى السأم ، وهذا لا يتفق والهدف من كتب العزاء .

... ...

وقد سار الكاتب أحمد بن يوسف فى كتابه إلى عبد الله بن طاهر يُعزيه ،فى محاور ثلاثة أساسية :

أولها : الجانب الدينى أو الوعظى الضرورى فى مثل هذا الأمر .

ثانيها : الجانب الشخصى وسمات القائد فى تحمل الأرزاء .

ثالثها : الشعور الذاتى الذى يبديه الكاتب مشاركا ومواسيًا .

وقد استخدم الكاتب المفردات الخاصة ، التى أدت دورها فى كل محور فكرى ، من المحاور الثلاثة ، وشكل منها المعانى العامة التى تخدم الأفكار الجزئية فى المحور الخاص .

... ...

وقد بدأ الكاتب كتاب العزاء بالمحور الدينى أو الوعظى ، وجاء فيه :

« أما بعد ، فإنه قد حدث من الرزء العظيم ، بوفاة ذى اليمينين ، ما إلى الله جلَّ وعزَّ المفزَعُ ، والمرْجعُ ، وفيه عليه المستعان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، اتباعًا لأمر الله ، واعتصامًا بطاعته ، وتسليمًا لنازل قضائه ، ورجاءً لما وعد الصابرين من صلواته ورحمته وهداه ، وعند الله نحتسب مصيبتنا به ، فقد كان سبق إلى القلوب عند بداهة لخبر من اللوعة واطلاّع[1] الفجيعة ما كنا نخاف إحباطه من الأجر ،لولا ما تداركنا الله به من الذكر لما وعد أهل الصبر ، فنسأل الله أن يرأب[2] هذه الثلمة ، ويسد هذه الخلة بأمير المؤمنين أولاً ، وبك ثانيًا ، وأن يعم مثوبتك ، ويُحسن عقباك ، ويخلف بك ذا اليمينين ويعمر بك مكانه ،من أمير المؤمنين ، ومن كافة المسلمين » .

... ...

وقد خدمت مفردات اللغة الكاتب ، فأجاد التعبير عن فكرته ،وبدأ دقيقًا فى انتخاب الألفاظ التى أكدّت المعنى ، ويمكن لدارس اللغة أن يشكل من هذه المفردات ما اصطلح علماء اللغة على أن تسميته بالحقول الدلالية ، أو المجالات الدلالية .

وهذا الحقل الدلالى الذى يدور فى فلك الحزن والعزاء والمواساة تشكل من هذه المفردات ، الرزء ، الوفاة ، المفزع ، المرجع ، المستعان ، المصيبة ، الاحتساب ، اللوعة ، الفجيعة ، الصبر ، الأجر ، الذكر ، الثلمة ، المثوبة ، العُقبى ، الرحمة ، الهدى ، القلوب ، الخبر ...

اغ الكاتب بعض التراكيب اللغوية التى تدور فى ذات الفلك ، ومنها :

إنا لله وإنا إليه راجعون

رجاء لما وعد الصابرين .

نسأل الله أن يرأب هذه الثلمة .

أن يعظم المثوبة .

ويحسن العقبى .

اتّباع أمر الله .

الاعتصام بطاعته .

التسليم لنازل قضائه .

---

(١) إطلاع : أى وإشرافها على القلوب واحراقها إياها ، أخذه من قوله تعالى : « نار الله الموقده التى تطلّع على الأفئدة » أى يبلغ ألمها الأفئدة ، تأتى عليها فتحرقها .

(٢) رأب الصدع كمنع أصلحه ، والخلة الثقة الصغير .

هذه ألفاظ وتعبيرات المحور الفكرى الأول لكتاب العزاء وهو المحور الدينى أو المحور الوعظى ، ودّلت الألفاظ والتراكيب على مقدرة الكاتب وبراعته فى التعبير عن الفكرة الرئيسية والمعنى الأساسى .

... ...

وينتقل الكاتب فى كتاب العزاء إلى المحور الفكرى الثانى ، الذى أجاد ربطة بما سبقة ، فوصف فيه همة عبدالله بن طاهر العالية ، وقدرته على تحملّ النوازل ، فقد وطّن نفسه على المكاره فلا يعرف الهلع ، ولا يفرط فى الجزع ، إلى أن يصل الكاتب فى ختامه كتابه فى العزاء إلى إظهار مشاركته الأحزان للقائد ، ورغبته فى أن يكون جانبه ، يحتمل معه هول الكارثة ، ولا يكتفى برسول أو كتاب ، وكم كان يتمنى أن يأتيه لو أمكنه المسير ، وذلك لهول المصيبة ، ورغبة فى الأنس بقربه ، حتى يختم القول بذكر محاسن من رحل ، وأمله فى أن يرث الحى ما خلفه الراحل من البرء والخير وجميل الرأى ، ويدعو له بأن يلهمه الله حسن العزاء وجميل الصبر .

جاء فى كتاب العزاء ما يدور فى المحور الثانى وهو الشخص قول الكاتب محللا نفسية عبد الله بن طاهر :

« فأما ما تحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لُبّك فى حال العِزّة والنماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تعرو به الأيام من نوائبها ، وتبعث به من حوادثها ، وفى هذا لمن وُفق له إعداتى للنوازل ، وتوطين للأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هَلَعُ ولا إفراطُ جَزَع بإذن الله ، مع أن مَرَدكل ذى جَزَع إلى سلوة لإثبات عليها ، فأولى بالراغب فى ذات الله أن يهتبل[1] مثوبته فى أوانها ، من مفضى الأسى ، وفجأة النكبة ، وأولى بذى اللب إذا علم ما هو لابد صايدٌ إليه ، ألا يبعد منه إبعادًا يلزمه التفاوت عند التأمل واختلاف الحالين فى بعد الأمد بينهما .

وجاء فى آخر محور من محاور كتاب العزاء الثلاثة قوله مُعزِّيًا ومواسيا وموضحا دوره فى الوقوف جانب صديقه :

« وقد كنت أحبُّ ألا أقنع فى تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسى ، لو أمكننى المسيرُ ، إجلالا للمصيبة ،وتأنسًا بقربك ، بعد الذى دخلنى من الوَحْشة ، فقد عَرَفت ما خَصَّنى من المرزئة بذى اليمينين ، لما كنتُ أتعرّف من جميل رأيه ، وعظيم برّه حاضرًا ، وما كان يَذْكُرنى به غائبًا ، ذكره الله فى الرفيق الأعلى ، وأنت وارثُ حقّه علىَّ ، إلى ما كنت لك عليه ، من صدق المودة ، وخالص النصيحة ، وإلى الله أرغب فى تأدية شكرك ،

(١) أى يغتنمْ .

والقيام بما أوجبه لك ، فإن رأيت أن تأمر بالكتاب إلىّ بما أبلاك فى نفسك ، وألهمك من العزاء والصبر ، مع ما أحببت وبَدَا لك إن شاء الله[1] .

ويكتب أحمد بن يوسف إلى عبدالله بن طاهر كتابًا من لون آخر ، يكتبه فى مناسبة تاريخية ، يهنئه بنصره على الخارج عُبيد الله بن السَّرِىّ ، وقد أفاضت كتب التاريخ الإسلامى ، ومصادره فى تفسير موقف عبيد الله بن السَّرى ، وحادثة خروجه ، كما صورت استسلامه بعد ذلك ، وتسليم نفسه إلى القائد عبد الله بن طاهر ، ويعبر أحمد بن يوسف عن هذه الواقعة ، فى كتابه إلى عبدالله بن طاهر يهنئه بهذا النصر وذلك الفتح .

ويبدأ الكاتب كتابه بقوله :[2] .

« بلغنى – أعزّ الله الأمير – ما فتح اللهُ عليك ، وخروج ابن السَّرى إليك ، فالحمد لله الناصر لدينه ، المعزّ لدولة خليفته على عباده ، المُذَل لمن عَندَ عنه وعن حقه ؛ ورغب عن طاعته ، ونسأل الله أن يظاهر له النعم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما وليك به مُذ ظعنت لوجهك ، فإنا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك فى حربك وسلمك ، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان فى مواضعهما ، ولا تعلم سائس جُندٍ ، ورعية عَدَل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمن أسَّفه ، ومنحته عفوك .

... ...

هذه الرسالة التى كتبها أحمد بن يوسف إلى القائد الأمير عبد الله بن طاهر ، تعد نموذجًا للرسالة الفنية ، فقد مثلت هذه الرسالة خصائص أسلوب الكاتب ، وجمعت بين سمات الكتابة الديوانية والكتابة الإخوانية ، ويمكن أن يتعامل الباحث معها من خلال هذين الإطارين .

فالرسالة ديوانية من ناحية تعبيرها عن قضية من قضايا الدولة وهى قضية الحرب والسلام ، وقضية تحقيق الأمن والأمان ، والضرب بشدة على أيدى الخارجين ، والوقوف فى وجه المارقين .

وقد حفل التاريخ العربى فى العصر العباسى بهذه الظاهرة كثيرا ، وهى ظاهرة التمرّد والخروج على طاعة خليفة الدولة ، وحاكم المسلمين ، وكم من محاولة سجلها التاريخ لأمراء وقادة ، استقطبوا بعض فصائل الجند ، وكوّنوا جبهة معادية للجبهة الواحدة المعترف بها .

ونظرًا لمكانة أحمد بن يوسف فى بلاط الخليفة ، فقد سخر قلمه لخدمة قضايا الحكم والحكام ، والتعبير عنها ، وهو يعبّر عن سياسة الحكم ، وعن رأى الخليفة المأمون ويهنئ القائد الأمير عبدالله بن طاهر فى انتصاره على الخارج المارق عبدالله بن طاهر .

(١) كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٤ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦ .
(٢) كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥٠ . تاريخ الطبرى ١٠/ ٢٧٨ .

ويمكن أن نعد هذه الرسالة – أيضًا – من الرسائل الإخوانية ، فقد كان أحمد بن يوسف يشعر بذاته ولا ينقص نفسه قدرها ، وقد بلغ فى بلاط المأمون مبلغ الوزراء ، وربما كان من حقه أن يخاطب عبدالله بن طاهر مخاطبة الصديق ، ويراسله مراسلة الأخ الذى يفرح لنجاح أخيه .

وعلى هذا الأساس يمكن أن تجمع هذه الرسالة بين خصال النوعين الأدبين من الرسائل الديوانية والاخوانية وَقَلما نجد مثالا لهذا اللون بين ذلك التراث النثرى الهائل الذى خلفه قلم الكاتب العربى ، فالرسالة إما أن تكون ديوانية وإما أن تكون إخوانية ، أما أن يجمع الكاتب فى رسالة واحدة بين هذين الفنين ، فذلك لون فريد ، يؤكد مقدرة الكاتب وبراعته . وهذا أمر لا يتأتى إلا لكاتب ذى حظوة وصاحب مكانة – فى بلاط الحكم والخلافة ، حتى يجرؤ كاتب أن يخاطب الولاة والقادة والأمراء مخاطبة الأخ والصديق .

وإن قضية الالتزام التى يشيد بها كثيرون من نقادنا المعاصرين وتدور حول البحث عن وظيفة الأدب ونظريته وماهيته وهدفه ، وتبحث عن دور الكلمة ودور الأديب فى معالجة قضايا أمته ، لاسيما القضايا الخطيرة ، ويبدو هذا الالتزام واضحا جليا فى رسائل أحمد بن يوسف وكتبه ، وخاصة فى تلك الرسالة التى كتبها لعبدالله بن طاهر بن الحسين .

وتأتى أهمية هذه الرسالة فى أنها سجلت الدور التاريخى الذى أراد الكاتب أن يحققه لها ، وأصبحت رسالة ابن يوسف إلى عبد الله بن طاهر لاتقل أهمية عما قاله المؤرخون الذين أسهموا فى تصوير تلك الحقبة المهمة من تاريخ العرب فى عصورهم العباسية .

ومن المعروف أن عبد الله بن طاهر سجل بانتصاراته صفحات مضيئة فى تاريخ عصره ، وأدى دورا لم يفعله المؤرخون فى وثائقهم ، وأسهم فى تحقيق التوازن الأمنى فى عصر المأمون ، كما كان عبد الله بن طاهر يتمتع بشخصية أدبية فريدة يمكن أن تجعله من أرباب السيف والكلمة ويمكن أن تفرد حوله بحث أدبى يقوم على دراسة آثاره النثرية فى رسائله وفى توقيعاته وفى مأثور كلامه الذى سجلته مصادر التراث فى النثر العربى ، كما كان عبد الله بن طاهر محبًا للشعر والشعراء ، وكان ينزلهم منازلهم ، ويقدر براعة العبارة ويعجب بجمال الصياغة ، ولا نبالغ القول حين نجعل عبد الله بن طاهر من القادة أصحاب البلاط الأدبى الذى أسهم فى تنشيط حركة الأدب فى أزهى عصور الأدب العربى .

وتزداد قيمة هذه الرسالة وأهميتها حين وقف الناقد على الحقيقة التاريخية التى جعلت عبد الله بن طاهر قائدا فاتحا منتصرا ، فاستوجب مثل هذه الرسالة ومثل هذا الإعتراف والتقدير من الكاتب الوزير مما يضفى على تلك الرسالة فائدة لا تنسى وقيمة لا تنكر .

ويذكر المؤرخون أن عبدالله بن طاهر لَمّا فَرِغ من قتال نصر بن شبث كتب إليه المأمون يأمره بالمسير إلى مصر ، وكان قد خرج بها عبيد الله بن السرى بن الحكم ، فصار إليه ، وتروى

كتب التاريخ[1] أن عبدالله بن طاهر قام بحملة واحدة حقق فيها النصر على ابن السرى وأصحابه الذى طلب منه الأمان وخرج إليه .

وروى أن ابن السرى بعث إلى ابن طاهر لما ورد مصر ومنعه من دخولها ، بألف وصيف ووصيفة ومع كل وصيف ألف دينار فى كيس حرير وبعث بهم إليه ليلا ، فرد عليه ابن طاهر هديته وكتب إليه :

« لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهارًا »

وفى رواية أخرى لو قبلت هديتك نهارًا لقبلتها ليلاً ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

وقد كتب الخليفة المأمون إلى عبدالله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها فى أسفل كتاب له شعرا جاء به صاحب كتاب بغداد لإبن طيفور كما جاء أيضا فى تاريخ الطبرى[2] :

أخـى أنت ومـولاىَ ومن أشكُرُ نُعْمـاهُ
فما أحببتُ من أمرٍ فإنى الدهـرَ أهـواهُ
وما تكَرَهُ من شىءٍ فإنى لست أرضـاهُ
لـــكَ اللهُ عـلى ذاكَ لـــكَ اللهُ ، لـكَ اللهُ

والباحث لا يغفل ما كتبه عبد الله بن طاهر إلى عبد الله بن السَّرِى ،وما كتبه المأمون إلى عبد الله بن طاهر ، يهنئه بالفتح ، وهى تلقى كثيرًا من الضوء على النص الأدبى الذى أبدعه الكاتب الوزير أحمد بن يوسف فى رسالة إلى عبد الله بن طاهر .

وقد رسمت الرسالة بعض سمات شخصية عبد الله بن طاهر ، كما رآها الكاتب الوزير ، فقد أفصح عن بعض دقائقها ، وكشف عن بعض أسرارها ، فى غلاف دينى رقيق يجعل القتال بين الموحدين بالله والمشركين واجبًا قوميًا . وقد اعتبر الكاتب ذلك الخارج عن طاعة الخليفة مشركًا لا يرى للدين حرمة ، ويعمل على سفك دماء المسلمين ، وتفريق صفوفهم .

وهذا الاتجاه الدينى من الظواهر البارزة فى رسائل أحمد بن يوسف كما يبدو هذا الاتجاه واضحًا جليًا فى مقدمة تلك الرسالة التى نحن بصددها ، حيث يقول الكاتب :

« أعز الله الأمير ، فتح الله عليك ، الحمد لله ، الناصر لدينه ، المعز لدولة خليفته على عبادة المذلّ لمن عَنَد عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان

(١) كتاب بغداد طيفور : ١٤٩/٦
تاريخ الطبرى ٢٧٤/١٠ .
(٢) كتاب بغداد طيفور : ١٤٩/٦
تاريخ الطبرى ٢٧٦/١٠ .

الشرك ، والحمد لله على ماوليك .. »

* * *

تتجلى معالم شخصية عبد الله بن طاهر فى رسالة أحمد بن طاهر حتى تعد نموذجًا مثاليا للقائد المنتصر . وإذا كانت الرسالة لا تفصح عن المناسبة إفصاحًا مباشرا ، فهذا لا يقلل من أهميتها بل يزيد من قيمتها حيث لم يجعل الكاتب الرسالة مقصورة على مناسبة بعينها وعلى موقف بذاته ، وكان لم يقصد إلى ذلك قصدًا ، بل أصبحت الرسالة فى رأينا صالحة لكل قائد مظفر فى تاريخ العروبة والإسلام ، وتصلح لكل مناسبة يهنئ فيها صاحبها بالنصر والفتح المبين ، ولم يزيد الكاتب عن ذكر اسم الخارج المارق فى أول عبارات الرسالة وذلك ضرورى لصياغة الكتاب وتشكيل الرسالة ، ويستطيع من يريد أن يستشهد بها فى مواقف مماثلة أن يأخذ منها العبارات والتعابير ويستمد الأفكار والمضامين ، وأن يبدل اسم المارق بمارق غيره وهذا يدل على وعى كامل من الكاتب الوزير بضرورات فهمه فن الكتابة الرسمية فلم يجعل التاريخ بحقائقه المجردة وأرقامه الجامدة وحقائقه التى لا تقبل تبديلا أو تعديلا تسيطر على مجريات أفكاره حتى لا يبدو الجفاف محطما لجمال العبارة وروعة تنسيق التراكيب حتى أصبحت الرسالة صالحة لكل زمان يستوجب التهنئة بالفتح والنصر ، ولكل موقف ينتصر فيه أصحاب الحق على الخارجين المارقين الذين هم بسلطانهم طائعين .

وفى الوقت نفسه تصلح الرسالة لتحديد معالم شخصية القائد المظفر الذى يتسم بأروع ما يمكن أن يتحلى به البطل العربى ؟ فهو يحافظ على دينه ويطيع أمر خليفته ، يقاتل من يرغب عن طاعته ، وهو قائد يرضى عنه الحاكم والرعية ، صاحب أيادى بيضاء فى السلم والحرب يتسم بالشدة فى مَوْضَعُها وباللين فى موضعه ، يتخذ من العدل وساما له ، لا يفرق بين سائس ورعية ، يتحلى بالعفو عند المقدرة ، وهو معروف بحسن سيرته ، رجل النوازل والمعضلات ، قائد مقدم معزز مكرم ، زاده الله فى أعين الخاصة والعامة حلالة وبجاله ، لا يستغنى عنه فى أحداث الأمة ونوائبها ، لم تطغه النعمة بل زاده المنصب والظفر سماحة وتواضعًا .

وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة حلالة وبجالة ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم ، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ، ولم تزدد إلا تذللاً وتواضعًا »[1] .

وهى رسالة تعد نموذجًا لصاحب الفكر الرائع فحق أن يكون وزير الكتابة والكاتب الوزير ...

---

(١) كتاب بغداد لابن طيفور ٦ / ١٥٠ .
تاريخ الطبرى ١٠ / ٢٧٨

ثالثا : بعض السمات الفنية لمقطعات أحمد بن يوسف النثرية

تناول هذا البحث فى قسمه الأول دراسة مطولات أحمد بن يوسف ، التى انحصرت فى الديوانيات والتحميدات ، وقد عرض البحث لهذه الآثار المطولة ، ثم قامت الدراسة بدراسة أبرز السمات الأسلوبية التى تتوافر فى هذه المطولات ، ولما كان هذا البحث ينقسم إلى جزءين ، قد تصلح التسمية معهما المطولات والمقطعات ، أى الآثار النثرية غير المطولة ، وهى الحكم والتوقيعات والرسائل الإخوانية وغيرها من أقوال أحمد بن يوسف .

وتختلف نظرة البحث إلى هذه المقطعات ، أو بمعنى آخر تختلف طريقة التعامل الفنى مع هذا الجزء من آثار أحمد بن يوسف ، حتى لا يكون هناك تزاوجًا فى الدرس أو انتظارًا فى التعامل الفنى مع هذه الآثار ، ولذلك يحدد البحث هذه الوجهات المختلفة من وجهات النظر ، حيث كان تعامله مع المطولات تعاملاً أسلوبيا ، يتفق ويليق وطبيعة هذه الآثار المطولة أما تعامل البحث مع آثار أحمد بن يوسف النثرية الأخرى وهى المقطعات أو الآثار غير المطولة فإن رؤية البحث لها سوف تقتصر فى إطارات ثلاثة هى :

(أ) وظيفة الشعر فى نثر أحمد بن يوسف .

(ب) طبيعة التصوير الفنى فى آثار أحمد بن يوسف النثرية .

(حـ) شخصية الكاتب الإنسان والوزير الفنان ومنهجه الفنى .

(أ) وظيفة الشعر فى نثر أحمد بن يوسف

بطبيعة الحال ، فإن آثار أحمد بن يوسف النثرية تحتمل الكثير من الرؤى الفنية والمناحى النقدية والاتجاهات التى يستطيع أن يسلك منها الباحث والناقد ، ولكن البحث أثر هذه النقاط الثلاث فحسب ولعلها من أبرز الظواهر الفنية فى هذه الآثار النثرية ، أو رغبة البحث فى تجنب التكرار أو ما سيق ذكره فى المطولات .

ومن المؤكد أن السمات الأسلوبية التى رصدها البحث لهذه المطولات لا تصلح أن تكون سمات أسلوبية لكل آثار أحمد بن يوسف النثرية مع أن الكاتب واحد والمنهج الفنى واحد ، ولكن طبيعة الموضوعات هى التى تفرض طريق التعامل الفنى مع هذه الآثار .

وقد لا يعد الشعر فى نثر أحمد بن يوسف ظاهرة بارزة ، ولعل الكاتب الوزير أحمد بن يوسف لم يكن له شعر يذكر ، أو يشعر يعرف باسمه ولا يُعدّ أحمد بن يوسف من الشعراء

الكتّاب أو من الكتّاب الشعراء .

وقد كان الكاتب الببغاء شاعرًا من شعراء سيف الدولة البارزين ، وكانت له آثار نثرية عظيمة وقيمة وعديدة ،فقد كانت له أشعار استطاع المحققون الجامعون أن يجعلوها فى ديوان ، وكذلك كانت آثاره النثرية مما دفعنا إلى أن يكون كتابنا حول نثر الببغاء .

وكذلك كان الكاتب ابن أبى الشخباء ، كان كاتبًا وشاعرًا ، له أشعار تصنفه فى مصاف الشعراء ، وكذلك كان غيرهما ممن يجمعون حرفة الكتابة ونظم الشعر ، وبطبيعة الحال لهؤلاء سمات فنية خاصة بهم فى نثرهم ويبدو تأثير الشعر فيها .

لم يُهمل أحمد بن يوسف الشعر ، ولكنه تعامل مع الشعر فى بعض أثاره تعاملاً خاصًا ، ويمكن للباحث لأى آثار أحمد بن يوسف النثرية ، أن يقف على بعض الأشعار التى أتى بها أحمد بن يوسف فى ثنايا بعض كتبه .

لم يتعامل الكاتب أحمد بن يوسف مع الشعر فى كل فنونه النثرية ، التى عُرف بها ،فخلت مطولاته من هذا الظاهرة ، خلت الديوانيات والتحميدات من أشعار أحمد بن يوسف أو من أشعار غيره من الشعراء ، وربما فرضت طبيعة الموضوعات على الشاعر أن يتجنب الاستشهاد بالشعر ، حتى يعطى لآثاره تلك القيمة التى تؤكده كاتبا حق لهم أن يجعلوه وزيرًا .

وجاءت بعض الأشعار فى بعض كتبه الخاصة مع المأمون ، أو الكتب التى يمكن أن يطلق عليها فن الاجتماعيات أو السلطانيات ، إذا جاز لنا أن نطلق عليها هذه المسميات ، وهى الكتب التى يوجهها الكاتب إلى السلطان أو إلى الخليفة الحاكم فى مناسبة اجتماعية ما ، يهنىء الكاتب الحاكم فيها ويحلولها .

ولا يمكن أن يكون الشعر من نصيب أحمد بن يوسف كما كان الحال مع غيره من الكتاب الشعراء ، فقد عُرِف بالشعر أبو الفضل بن العميد ، وأبو الفتح بن العميد ، والصاحب بن عباد ، والوزير المهلبى ، والصّابى ، والقاضى التنوخى ، والأمير قابوس بن وشكمير ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، وابن أبى الشخباء ، والقاضى الفاضل ، أبو الفرج الببغاء وغيرهم .

ويذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه « الأوائل » أن أول رسالة فيها شعر ، جاءت بأمر المتوكل إلى إبراهيم بن العباس أن يكتب كتابًا ، فكتب وذكر بيتًا من الشعر ، وكان إبراهيم ابتداه كلامًا ، فرآه يتزن ، فجعله بيتًا[1] .

ويحدّد قدامه بن جعفر فى نقد النثر طبيعة استعمال الشعر فى الرسائل ، ويرى أن الشعر جائز فى الرسائل « إلا أن كَون الرسالة إلى خليفة فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر فى كتابه

(١) العسكرى – كتاب الأوائل – ت : محمد السيد الوكيل – المدينة المنورة ١٩٦٦ ص ٢١٨ .

إليه ، ولا بأس بذلك فى غيرها من الرسائل »[1] .

. ويؤكد الجاحظ الرأى نفسه ، فيرى أن « أكثر الخطباء لا يتحدثون فى خطبهم الطوال بشىء من الشعر ، ولا يكرهونه فى الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء »[2] .

ويؤكد التاريخ أن عليًّا بن أبى طالب قد استعان فى بعض خطبه بأبياتٍ من الشعر ، وربما فى هذا ما يخالف ما اتفق عليه النقاد القدامى ، كما أن هناك ما يخالف رأيه فى طبيعة استعمال الشعر ، وتحريمه على الكاتب ، حين يكاتب خليفة ، فقد كان أحمد بن يوسف يتعامل مع الشعر فى بعض كتبه مع المأمون ولا غيره .

وقد جاء الشعر فى كتاب أحمد بن يوسف إلى المأمون ، حين كثر الطُّلاب للصلات ببابه ، وجاء الشعر فى كتب أحمد بن يوسف – أيضًا – حين أهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز سفط ذهب فيه قطعة عود عنبر فى طوله وعرضه .

كما جاء الشعر فى كتاب أحمد بن يوسف إلى المأمون حين أهدى إلى المأمون فى عيد ، وكتب إليه ..

وجاء الشعر فى كتاب واحد إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود ، مما جعل تجنب الشاعر التعامل مع الشعر فى رسائله إلى الخلفاء فى حاجة إلى نظر .

ويرى صاحب أدب الكتابٌ من الجائز استخدام الشعر فى رسائل الرؤساء ، إذا كان الشعر من قرض الكاتب[3] .

وقد اعتبر النُّقادُ العرب القدماء الشعر من الأمور المهمة التى يجب توافرها فى كتّاب الدواوين ، وقد أشار إلى ذلك القلقشندى والمقريزى وابن الأثير والصيرفى ، وغيرهم ، فقد اشترطوا أن يكون الكاتب حافظًا لكتاب الله تعالى ، وحافظًا للأشعار ، روايًا للكثير منها[4] .

وحين وصل القاضى الفاضل مصر ، راغبًا فى العمل بالكتابة بديوان الإنشاء ، أمره ابن الخلال ، وكان على رأس الديوان ، أن يحل الشعر أكثر من مرة حتى يجيد فن الكتابة .

ويوضح ابن الأثير فى المثل السائر ، والقلقشندى فى صُبح الأعشى كيفية استخدام الكتاب للشعر من خلال رسائلهم ، ويوضحان – أيضًا – فضل الشعر على النثر ، وما يعود على الكاتب حين يزين رسائله بالشعر .

يقول ابن الأثير :[5]

---

(١) نقد النثر / ص ٩٦ .

(٢) البيان والتبيين / ص ٧٧ .

(٣) أدب الكُتاب ص ٣٨٠ .

(٤) القلقشندى/ صبح الأعشى ٩٦/١ ، والخطط للمقريزى ٢٤٤/٢ .

« يكثر الكاتب من الإدمان فى قراءة الشعر ليلاً ونهارًا ، وعليه حفظ الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ، وعليه بنثر الشعر محفوظًا ،حتى يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ولايزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة » .

ومما يعود على الكاتب من حفظ الأشعار « غزارة المادة ، وصحة الاستشهاد ، وكثرة النقل ، وصقل مرآة العقل ، وانتزاع الأمثال ، والاحتذاء فى اختراع المعانى على أصح مثال ، والإطلاع على أصول اللغة وشواهدها »[1] .

ويعود على الكاتب من حفظ أشعار المحدثين « لطف المأخذ ، وتوليد المعنى ، « لما فى أسلوبهم من قرب من أسلوب الخطابة والكتابة »[2] .

ويتفق النقاد على بعض حالات استخدام الكاتب للشعر فى رسائله وكتبه ، أو طرائق التوسل بالشعر فى كتب الكتاب رسائلهم ، وقد اتفق على هذه الحالات القلقشندى فى صبح الأعشى ، وابن الأثير فى المثل السائر ، فمرة يأتى الشعر فى الرسائل على هيئة الاستشهاد « وهو أن يورد البيت من الشعر أو البيتين ، أو أكثر من خلال الكلام المنثور مطابقًا لمعنى ما تقدمه من النثر ، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه ، كما يشترط فى الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية ، « فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام ، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه ، وأكثر ما يكون ذلك فى المكاتبات الإخوانية »[3] .

والحالة الثانية وهى التضمين ، والحالة الثالثة وهى ما تعرف بالحل ، و« هو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعانى يفصلها من عقل الشعر ، ويسكبها فى كلامه المنثور »[4] .

وينقسم الحل إلى ثلاثة أقسام « **الأول** منها وهو أدناها مرتبة أن يأخذ الناثر من الشعر بيتًا ينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش » .

والثانى وهو وسط بين الأول والثالث فى المرتبة وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه .

أما القسم الثالث وهو أعلى من القسمين الأولين ، فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، فإن استطاع زيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية »[5] .

ويطلق على أبو زيد صاحب البديعيات على خلط الكاتب نثره بشعره مصطلح التلويح أو الاستعانة (التلويح عندما يختلط الكاتب بشعر من شعره أو شعر غيره اختلافًا لا يُميِّزه

(٢) ابن الأثير/ المثل السائر فى أدب الكاتب/ ص ١٠٣ .
(١) القلقشندى/ ١/٢٧١ .
(٢) السابق – ١/ ٢٧٣ .
(٣) السابق – ١/ ٢٧٤ .
(٤) المثل السائر/ ١/ ١٠٣ .
(٥) ابن الأثير ص ١٠٣ .

إلا العارف) .

والإستعانة « تضمين بيت كامل أو أكثر لغيره يستعين به ، مع التنبيه على أنه من شعر غيره إذا لم يكن مشهورا عند البلغاء ، وإن كان مشهورًا فلا احتياج إلى التنبيه بعد أن يوطىء له ما يناسبه بروابط متلائمة[1] .

والشعر فى رسائل أحمد بن يوسف جاء فى كتابه إلى المأمون حين كثر طلاب الصلات ببابه ، فورد فى ختام كتابه قول الشاعر :

فإنك لن ترى طَرْدًا لحرّ ... كإلصاق به طرفَ الهوان
ولم تَخلِبْ مودة ذى وفاءٍ ... بمثل الودِّ أو بذل اللسان[2]

وفى كتاب آخر إلى المأمون يقول فيه أحمد بن يوسف مع الهدية التى قدمها إلى الخليفة فى يوم النيروز :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإلطاف العبيد السادة »

وقد جاء فى الكتاب من شعره :

على العبدِ حقّ فهو لا شك فاعِلُه ... ان عظمُ المولى وَجَلّت فواضله
ألم ترنا نُهدْى إلى الله ما له ... وإن كان عنه ذا غِنىً فهو قابِلُه
فلو كان يُهدى للجليل بقدره ... لقصرَّ عنه البحرُ يوما وساحِله
ولكننا نهدى إلى من نُجلّه ... إن لم يكن فى وسعنا ما يشاكله[3]

وفى رواية أخرى يقول أحمد بن يوسف وقلت مما يدل على أن هذا الشعر من شعره :

أهدى إلى سيده العبد ... ما ناله الإمكانُ والجهد
وإنما أهد له ماله ... يبدلُ هذا ، ولذا ردّ[4]

كما ورد شعرُ فى رسالة تهنئه كتبه أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

ولذلك أقول :

مد شُفع الواحدُ بالوافِد ... وأُرغم الأنفُ من الحاسِدِ
أبا حُسينٍ : مَرَّ عتبًا بما ... أعطيته من هِبةَ الماجِدِ
وأكثر الشكر جزيلا فقد ... نِلْت حِبًا الرِّفدِ من الرافد
قد قلتُ لما بشروني به ... بَورك فى المولود للوالد
إنا لنرجو وافدًا مثله ... والطائر الميمون للوافد

(١) على أبو زيد البديعيات ص ١٢٠ .
(٢) زهر الأداب ٢/ ٣٩ الجزء الثانى ، معجم الأدباء ٥/ ١٦٩ نهاية الأرب ٧/ ٢٦٠ .
(٣) صبح الأعشى ٢/ ٤٢٠ ، معجم الأدباء ٥/ ١٧٢ ، الفخرى ٢٠٦ الأوراق ١/ ٢١٢ .
(٤) الأوراق للصولى ١/ ٢١٦ .

ومن كلامه جاء قول نابغة بنى ذبيان

مَجَلَّتهـم ذات الإلـه ، ودينُهـم قويمٌ ، مما يرجون غير العواقب[1]

والبيت الأخير من قصيدة للنابغة الذبيانى يمدح فيها عمرو بن الحارث الأصغر الفتانى ، ومطلعها :

كلينى لهـم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكب

وجاء فى لسان العرب الصحيفة فيها الحكمة كذلك روى بيت النابغة بالجيم ، « مجلتهم ذات الإله » ، يريد الصحيفة لأنهم كانوا نصارى فيعنى الإنجيل ، ومن روى محلتهم روى الأرض المقدسة ناحية الشام والبيت المقدس ، وهناك كانوا بنى جفنه ، وقال الجوهرى .. معنا أنه يحجون فيحلون مواضع مقدسة .

وفى كتاب أحمد بن يوسف إلى بنى سعيد بن مسلم جاء فى ختامه وهم كما قال الشاعر :

لا يكثرون وإن طالت حياتهموا ولا تبيدُ مخازيهم وإن بادوا[2]

هذا الشعر الذى ورد فى رسائل الكاتب الوزير أحمد بن يوسف فى كتابه ، تؤكد عدة ملامح فنيه لا يمكن إغفالها ، كى تكتمل الصورة الفنية والتى تشكل منهج الكاتب وأسلوبه ، وأول هذه الملامح أن الكاتب يؤكد منهجا أصبح متفتحا عليه بين كتاب عصره وكتاب العصور الأدبية التى تلته وهو إستعانه الكاتب فى بعض نثر ببعض الأشعار ، ولم يكن الكاتب أول من تنبه إلى هذا ، بل اتبع منهجا مألوفا ولكن بطريقته الخاصة ، فلم يكثر من الشعر وربما كانت عدد المواضع التى إستعان فيها أحمد بن يوسف بالأشعار فى نثره ستة مواضيع ، وعدد الأبيات التى أمكن العثور عليها فى نثره لا يزيد على الخمسة عشر بيتا ، وربما أيضا من المحتمل الذى يقترب من التأكيد أن الرسائل التى أمكن الوقوف عليها ليست كل نتاج أحمد بن يوسف ومن الطبيعى أن تكون له مداعبات ضاعت لبعدها عن القيمة التاريخية أو لأسباب أخرى .

إن الشعر ليس كثيرا فى نثر أحمد بن يوسف ، ولكنه موجود ، وهذا ينفى حقيقة الشاعر على الكاتب فلا يمكن أن يصل الكاتب بأية حال من الأحوال إلى مصاف الشعراء أو إلى أى طبقة من طبقاتهم فهناك كتاب كثيرون أمكن جمع أشعارهم التى قد تصل إلى الديوان ، ويكون الكاتب شاعرا فى الوقت ذاته ، ومن الملحوظ أيضا فى أشعار أحمد بن يوسف التى استعان بها فى كتبه ورسائله أنها ابتعدت عن الكتب المهمة أو الموضوعات الجادة رغما من

(١) الأوراق للصولى ١/ ٢٣٢ .
(٢) زهر الأدب ٢/ ٤.
اختيار المنظوم ١٣/٤٢٠.

طولها كما هو الحال فى رسالة الخميس أو فى رسالة الشكر ، وأن الأشعار التى وردت فى ثنايا كتبه الإخوانية ، فى موضوعات إجتماعية وكان الشعر نوعا من إستعراض الثقافات وإثبات المقدرة على نظم الشعر أو إظهار المحفوظ .

وقد توزع الشعر فى نثر أحمد بن يوسف بين لونين الأول من نظم الشاعر ، والآخر استشهاد بشعر غيره ، وقد صرح الشاعر بالقائل مرة وأغفل القائل فى المرات الأخرى وحين يأتى الشاعر بنظمه يبدؤه بعبارة وقد قلت أو قد نظمت أو هذا من أشعارى أو من قصيدة لى .

والشعر الذى من نظم الكاتب يتسم بالسمات الفنية التى اتفق عليها النقاد فى شعر العلماء أو شعر الفقهاء ، من ضعف العاطفة والتصنع فى الصياغة والتكلف حتى أن الكاتب النَّاثر يفوق كثيرا الكاتب الشاعر .

والشعر الذى ورد فى ثنايا نثره يتفق مع ما يقوله الكاتب حين يكون الشعر من نظم غيره من الشعراء ، أما الشعر الذى هو من نظمه فيستغنى به عن نثره حتى لا يقع فى قضية تكرار المعنى ولعل الرسالة يعتمد على الشعر فى التعبير عن أفكار الكاتب التى يريد التعبير عنها .

ويبدو التفوق الفنى والفارق المميز فى الصياغة الشكلية الجمالية والمضمون الفكرى بين الشعر الذى استشهد به وبين الأشعار التى هى من قوله ، كما أن الكاتب حين يستشهد بشعر غيره لا يزد على بيت أو بيتين ، كما أنه كان موفقًا توفيقًا رائعا فى اختياراته حتى بدأ التطابق التام بين أفكار النثر وبين ما جاء فى الشعر علمًا بأن شعر أحمد بن يوسف فقير فى التصوير الفنى خالٍ من جماليات الشعر التى تجعل صاحبها شاعرًا .

إن الشعر فى نثر أحمد بن يوسف لا يرقى بأية حال من الأحوال إلى أدنى مستوى من المستويات الفنية لأى فن من فنون النثر المتنوعة التى أسهم الكاتب فيها .

... ...

من المؤكد أن نثر أحمد بن يوسف يتمتع بسمات فنيّة بارزة أخرى غير ظاهرة الشعر فى نثره وسوف يعرض البحث فى الصفحات القادمة لظاهرة التصوير الفنى فى نثر أحمد بن يوسف كما يحاول رسم شخصية الكاتب أحمد بن يوسف من خلال آثاره الفنية حتى يقرب الدرس من الكمال والجمال .

رابعا : شخصية الكاتب أحمد بن يوسف

من نثره

يبدو الكاتب فى نثره كما يبدو الشاعر فى بعض شعره ، ويعد هذا مقياسا لصدق الكاتب وصدق أدبه ، ولعل هذا الاتجاه الذى يهدف إلى دراسة الأدب من خلال ، الأديب أو دراسة الأديب من خلال أدبه مذهبٌ فنى واتجاه تحليلى فى دراسة الأدب ، أكدته بعض المدارس النقدية الأوربية الحديثة التى تربط بين الإنسان وقوله ..

وربما كانت أهم سمة للأسلوبية دراسة الرجل أو دراسة الإنسان صاحب الأسلوب ، أو أن ما يقوله جزء من فكره ومن قلبه ، ويرسم هذا كله الملامح الرئيسية لشخصية الكاتب أو الأديب .

وقد ردّدّ بعض الباحثين فى الشرق والغرب مقولة بوفون وهى الأسلوب هو الإنسان Le style c & est l'homme يعنى الأسلوب هو الرجل ذاته .

وصاغ الباحثون العبارة نفسها فى تعبير آخر فقال بولا كولولال الأسلوب خاصية طبيعية يوهب الإنسان إياها ، أو هى نغم شخصيته .

ويقول دى لوفر الأسلوب إمضاء وخاتم أو طابع وتوقيع ، ويطلق لورند كلمة الأسلوب على ما ندر ورق من خصائص الخطاب التى تبرز عبقرية الإنسان وبراعته فيما يكتب .

وقد ورد ذكر بعض ذكر هذه التعريفات فى موضع سابق فى هذه الدراسة حين كانت تتعرض لرؤية الظواهر الأسلوبية فى مطولات أحمد بن يوسف .

وأضاف دى لوفر أن الأسلوب الفردى حقيقة ، بما أنه يتثنى لمن كان له بعض الخبرة أن يتميز عشرين بيتا من الشعر إن كانت لراسين Racine أم لكورنك ، وأن يميز صفحة من النثر كانت لبلزاك Palzacأو لستاندال Stendal.

وقد سار بعض النقاد العرب فى هذا الاتجاه ، وهو دراسة الشعر أو الكاتب من خلال إبداعه ، فكان العقاد فى ابن الرومى حياته من شعره ، وكان محمد النويهى فى نفسية أبى نواس وغيرهما كثيرون حتى أضحى منهج التفسير النفسى للأدب منهجا له ملامحه وله قيمته أيضا .

وهذا الأمر يصلح لدراسة الأدب الصادق فى أى عصر من عصوره ، فالمنهج وإن بدا حديثا إلا أن مادته قديمة قدم الأدب ذاته ، ومن الجائز دراسة شخصية (الكاتب) الشاعر أمرئ القيس من خلال معلقته وشعره ، وكذلك شخصية زهير بن أبى سلمى وطرفه وغيرهم ، لأن مايقوله الشاعر أمر شعر به ، وفكر اعتقد به وآمن وأراد أن يعبر عما أحس به من خلال إبداعه نظمًا أو نثرًا .

ومهما حاول الأديب أن يخفى بعض ملامح وجهه ،/وأن يخفى بعض معالم شخصيته ، فإن نجح مرة ، فإن القناع يسقط حتما ، وتبدو أصالة شخصيته ومعالم نفسه واضحة بجلاء من خلال ما يكتب شريطة أن يكون صادقًا فى تعبيره ويعرف عنه هذا ، وشريطه أن يكون الناقد متمرسًا على هذا اللون من الدراسات أو هذا التعامل والإتجاهات النقدية أو رؤية الأدب وتحليلية .

وحديث الكاتب مفتاح شخصيته ، وكاتبنا أحمد بن يوسف وزير الكتاب أو كاتب الخلفاء والوزراء تبدو ملامح شخصيته من خلال مطولاته و مقطعاته ، كما تبدو- أيضا - من خلال آثاره النثرية ونصوصه الأدبية التى خطّها قلمه ، واحتفظت بها مصادر الأدب العربى ، وأصبحت ثروة للمكتبة العربية تسهم فى تأكيد عبقريته ، وفنية النثر وجماليات تشكيله فى عصر من أزهى عصور الأدب العربى على الاطلاق ..

وتضع الدراسة هذا الجزء من البحث ، والذى يدور حول تحليل شخصية الكاتب من خلال نثره ، عقب دراسة مقطعات الكاتب ، وليس عقب دراسة مطولاته ، فقد تبدو ملامح الشخصية وسمات الإنسان واضحة فى هذه المجزءات أو المقتطعات ، وقد تختفى فى المطولات والديوانيات .

وقد تبدو فى مطولاته شخصيته الفنية ، وسمات كتاباته الأسلوبية ، حيث كان يكتب المطولات والتحميدات إرضاء لمطالب الخليفة ، واستجابة لأوامر الديوان ، وتأكيدًا لشخصية الكاتب الفنية ، فبدأ فى مطولاته فنانا يختص بالسمات الأسلوبية وبالخصائص الفنية للكتابة ، وهذا أمر تعرّض له البحث فى موضوعه .

أما أحمد بن يوسف الإنسان ، والوزير الكاتب ، فيبدو فى رسائله ، وتوقيعاته ، وحكمه ، كتبه ، وإخوانياته ، ومداعباته ، وفى كل لون من ألوان فنون النثر التى أسهم فيها أحمد بن يوسف ، وترك النفس على سجيتها فى التعبير والتصوير .

ويهدف البحث إلى التعرف على معالم شخصية الكاتب من خلال هذه الآثار ، حتى يقف على شخصية ذات معالم خاصة وهى محاولة تقترب من رؤية علم النفس أو التفسير النفسى للأديب حيث نتعرف على شخصية الكاتب من خلال الأحاديث والسلوك ورأى الشخص فى

نفسه ورأى الآخرين فيه والسلوك العادى الذى تترجم الكلمات والعبارات .

وأهم مايلفت نظر الدارس فى نثر أحمد بن يوسف ويعد من أهم خصاله النفسية وسماته الشخصية .

أولا : قدرة الكاتب وبراعته فى أداء مهمته ونجاحه فى تبليغ رسالته ، فقد صار وزيرا وكاتبا فى بلاط المأمون الخليفة العباسى ، وهذه السمة ، وهى القدرة على التعامل مع الملوك والخلفاء والسلاطين ، لا تتوافر لأى شخص دون أن يكون متمرسا على هذا الأمر ، ومستعدا لأداء الدور المكلف به ، ويتمتع الكاتب بذكاء وخلق وحسن حيلة وبراعة تصرف ، وسرعة بديهة ، والتمكن من النادرة اللطيفة ، والتزود بالثقافة العريقة التى مكنته من القدرة على التعامل مع الخليفة فى تمكن واقتدار .

وفيه يقول الفخرى :[1]

« وكان كاتبا فاضلا ، أديبا شاعرا ، فطنا بصيرا ، بآداب الملك ، وآداب السلاطين »

ويقول الخطيب البغدادى[2] عنه – أيضا :

« كان أحمد بن يوسف من أفاضل كتاب المأمون وأذكاهم وأجمعهم للمحاسن ، جيد الكلام ، فصيح اللسان ، حسن اللفظ ، مليح الخط »

ونقترب من التعرف على شخصية أحمد بن يوسف حين نقف على هذه الشروط التى اشترطها الخليفة فى كاتبه ووزيره وتحققت فى أحمد بن يوسف حتى احتل مكانته المرموقة ، ويذكر هذه السمات الجهشيارى صاحب الوزراء والكتاب ، والصولى والفخرى والماوردى وغيرهم ، كما أوردها صاحب حضارة الإسلام وهى :

« إنى التمست لأمورى رجلاً جامعا لخصال الخير ، ذا عفة فى خلائقة ، واستقامة فى طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلد مهام الأمور نهض بها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللمحة ، له صورة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ،إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده »[3] .

---

(١) الفخرى : الآداب السلطانية – ٢٢٥

(٢) البغدادى : تاريخ بغداد – جـ٥ ص ٢١٦

(٣) صلاح الدين خودا بخش – حضارة الإسلام ترجمة : د . على حسنى الخربوطلى – دار الثقافة – بيروت ١٩٧١ ص ١٠٦

ويتم المأمون صفات الكاتب الوزير ، والتى يجب أن يتحلى بها من وقع عليه اختياره للعمل فى بلاطه ومنها :

« علو الهمة فيمن ترون من وزرائى وخاصتى ، وأنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم ، وإنه من اتبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير ، فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرّغوا لجلائل الأمور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكونوا مثل كرام السباع التى لا تشتغل لصغار الطير والوحش ، بل بجليلها وكبارها ، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم ، فإن قائدكم لا يقدمكم ، ولا يعتنى الولى عنكم شيئا مالم تعطوه حقه »[1] .

وككتاب العصر الحديث رأى فى الكاتب الوزير ، لا يخرج عما وصفه به الكتاب الأولون ، فهو عند صاحب عصر المأمون « خصيب النفس ، سريع الخاطر ، مالك أعنة المعانى ، ونواصى الكلام »[2] .

ويرى صاحب نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول :

« أنه كاتب أديب على خط كبير من الثقافة الإسلامية »[3] .

ويرى شوقى ضيف فى أحمد بن يوسف .

أنه « صاحب ثقافة عربية دقيقة ، وقد أعدّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه »[4] .

ويعبِّر مصطفى الشكعة عن إعجابه بأحمد بن يوسف بأنه « كاتب على جانب من النباهة والبلاغة والثقافة »[5] .

ويعتمد فى تحليل شخصية الكاتب أو الأديب عامة – على أمرين :

أولهما : ما جاء فى أدبه – فى شعره أو فى نثره .

ثانيهما : ماقيل حوله من أراء المعاصرين ، وأراء النقاد ، وهذه الأقوال التى ترد حول الأديب ، تحدد معالم شخصيته وتسهم فى الوقوف على أهم سماتها ، تدور فى مجالين :

الأول : ما يتعلق بشخصية الأديب وسلوكه واتجاهاته الإنسانية ، وميوله الوجدانية .

الثانى : مايقال حول شعره أو نثره من آراء النقاد .

---

(١) البيهقى : المحاسن والمساوئ ص ١٧٠

(٢) محمد فريد رفاعى – صاحب عصر المأمون ص ٤٣٤ .

(٣) إبراهيم سليمان الكردى – نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول ص ٢٠٥ .

(٤) شوقى ضيف : العصر العباسى الأول ص ٥٤١ .

(٥) مصطفى الشكعة : الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ٣١٠ ، ٣١١

وقد سار البحث فى هذه الاتجاهات ، حتى نكفل له الخروج بصورة قريبة الملامح من صورة الكاتب الحقيقية ، كى تسهم فى التعرف على شخصية أحمد بن يوسف ، وقد سبق ذكر آراء المعاصرين له ، وآراء المقرّبين إليه ، ولا يُنسى أن براعة أحمد بن يوسف ، وتفوقه فى فن الكتابة ، الذى كرس فيها قلمه ، وكذا حُسن خلقه ، جميعها من الأسباب التى جعلت الخليفة المأمون العباسى يقرّبه إليه ويختاره كاتبا ووزيرا .

هذا كله يدور فى أولى معالم تلك الشخصية ، وهى قربة إلى السُلطان ، أو ما يمكن أن نسميه السلطانيات ، فى حياة أحمد بن يوسف ، وكثيرا مانرى كاتبا بارعا وأديبا متفوقا إلا أنه لا يصلح فى التعامل مع السلطان ، فليس الأدب والبراعة فيه هو المحك الأوحد بل إن هناك سمات معينة فى شخصية الأديب مع التفوق الإبداعى تقربه من السلطان حتى يختار وزيرا .

وقد كان المأمون يقدّر الكتابة والكتاب والشعر والشعراء ، وقد وصل إعجاب المأمون بالكاتب أحمد بن يوسف أن قلده الوزارة ، وربما كان ذلك لبراعة الكاتب فى رسالة كتبها حين الفتنة وحين مقتل الأمين ..

ومن المعلوم أن الكاتب أحمد بن يوسف كانت تربطه بالخليفة المأمون علاقات من الود والصداقة ، والمحبة والألفة ، ويبدو هذا فى مكاتبات أحمد بن يوسف وهداياه إلى المأمون فى مناسبات اجتماعية عديدة ، وكذلك ردود المأمون عليه .

وتوزير الكاتب أمر يتصل بمدى قُربه من السلطان ، وقد وصل الكاتب إلى الوزارة عن طريق الكتابة ، لا عن طريق السياسة ، كما وصل إلى الوزارة غيره من الكتاب ومنهم أبو مسلم الخلاّل ، ويحيى بن خالد بن برمك ، وابناه جعفر والفضل ، ومحمد بن الزيات ، والفضل بن سهل وغيرهم ..

ومن سمات الكاتب الشخصية ، التى تحدد بعض ملامحه النفسية ، البداهة والارتجال وسرعة الخاطر والذكاء من الأجوبة المسكتة ، وربما يبدو هذا الأمر واضحا جليا فى فن من فنونه النثرية ، وهو التوقيعات . وهذا الايجاز المحبب ، الذى قرّب الكاتب من المأمون ، حتى صار من خاصته . وهو سمة الكتاب الذى أبرز نجم الكاتب يوم الفتنة وبدايته ..

« فإن المخلوع وإن كان متيم أمير المؤمنين فى النسب والعمم .. » ..

وظاهرة البداهة من الظواهر التى تستحق الدرس الفنى ، وربما لم تأخذ نصيبها حتى الآن من البحث ورصد الظاهرة وتحليل دوافعها وأنماطها ونفسية أصحابها والسمات الفنية ..

وأحمد بن يوسف كاتب له بدائه عديدة ، ذكرتها بعض مصادر الأدب وقد ذكر البحث فى مستهل حديثه عن الكاتب بعض هذه الأخبار التى تؤكد ظاهرة البداهة . وهى تدل على ذكاء الكاتب وسرعة الخاطر وعدم التبلد فى الحس أو الجمود العاطفى ، فهو مُتَّقد دوما ويقظ على الإطلاق حيث أن عمله مع الخليفة جعلته هكذا كذلك رغبته فى أن يحظى بإعجاب من حوله جعلت هذه الظاهرة من الظواهر التى تسجل حين يتصدى أصحاب منهج التفسير النفسى للأدب لتحليل شخصية الكاتب مثل أحمد بن يوسف من خلال آثاره النثرية والوقوف على السمات الفنية التى تربط ملامح الشخصية ..

ويذكر صاحب زهر الأداب وثمر الألباب[1] كما يذكر أيضا صاحب أمراء البيان[2] بعض الأخبار التى تؤكد سمة البداهة وسرعة البديهة والخاطر والأجوبة المسكتة فى شخصية الكاتب الوزير أحمد بن يوسف ومن المعروف أن البداهة كانت تعجب المأمون كما كانت تعجب غيره من الخلفاء المهتمين بالأدب والأدباء . ويؤكد بعضهم علاقة ما بين البداهة وأمور الملك والحكم ..

« فإن شدة العارضة ، وقوة البديهة يظهر أثرهما فى تدبير الملك ، وما يعرف للخليفة من شئون تحتاج إلى أن يبت فيها حالا من جواب على سؤال ، وإعطاء رأى فى معضلة فى ساعة يكون فيها الكاتب قد عاوده السأم والتعب واضطراب النفس وموت الخاطر[3] .

... الإقبال على الحياة والتمتع بلذائذها المعروفة فى عصره ، وفى العصور التى سبقت عصره ، وهى لذائذ تدور حول الخمر والشراب والكؤوس وما يتبع ذلك من معايشة الجوارى والاستمتاع بالغناء والعزف والشعر الذى يقال فى مجالس المجون .

وقد تأثر الكاتب بهذا التيار الماجن اللاهى ، الذى انتشر وازدهر فى عصره ، وتسجل معظم مصادر الأدب أقوالا للكاتب وطرائف ونوادر بل تذكر له أصوات تغنيها المغنيات كما كانت تربطه بعض الروابط ببعض جوارى عصره .

ومن المؤكد أن هذا الاتجاه ترك بعض الأثر فيما كتبه الكاتب خاصة فيما يدور فى مجال اللذة والشرب والمجون .

بيد أن هذا الأمر لم يصل به إلى درجة الإغراق التى ظهر عليها بعض أدباء عصره من المجان ، ولكنه كان شابا أراد أن يستمتع بما استمتع به غيره من أصدقائه ومعاصريه ، وهى سمة لم يكن لها كبير أثر فيما خلف من نثر فنى بل كانت أكثر ظهورا فى بعض شعره وبعض

(١) الحصرى القيروانى – زهر الآداب – جـ٢ ص ٤٣٤ ، ص ٤٣٥ .
(٢) محمد كرد على – أمراء البيان ص ٢٠٢ .
(٣) محمد كرد على أمراء البيان ص ٢٠٢ .

الأقوال التى نُسِبت إليه فى بعض مجالس المجون .

وقد يتمادى أحمد بن يوسف فى مجونه أحيانا ، وتذكر بعض المصادر انحرافًا من لون آخر يؤكد عشقه للذكور وعبثه بالغلمان ، ولم نجد فى آثاره النثرية ، أو فى الأقوال التى نسبت إليه أخبارًا تؤكد هذا الاتجاه غير أن صاحب الإمتاع والمؤانسة[1] . وياقوت الحموى[2] صاحب معجم الأدباء والأصفهانى[3] يذكرون بعض أخبار مروية عن مجون أحمد بن يوسف وعشقه للذكور .

وقد كان ابن يوسف يسقط السَّقَطة بعض السقطة فيتلف نفسه وله شعر يصور حسن الصبى موسى بن عبد الملك وجماله وتعلقه به ، كما كان يعبث به ويعشقه .

كما تروى له أشعار فى علاقته بمحمد بن سعيد الذى كان يكتب بين يديه .

وهذا الاتجاه الماجن الذى أكدته بعض مصادر الأدب الموثوق بها ،وهى ذات المصادر التى روت الكثير من أخبار حياة الكاتب ، واعتمدها البحث فى دراسته ، لا يمكن إنكاره ، كما لا يمكن تصديقه على إطلاقه ومن المعروف أن هذا المجون أمر اشترك فيه الكثيرون من الأدباء وغير الأدباء ، وأضحى ظاهرة من ظواهر العصر ،ومن المحتمل أن يكون هذا الاتجاه فى حياة الشاعر الأولى ، قبل أن يذاع صيته وقبل أن يشتهر أمره ؛ كما انه كان اتجاها مقصورا على مجالس المجون ولم يكن له أثر فى المشهور من آثاره وفيما خلف وفيما كتب ، وربما أنه قد أقلع عن هذا الأمر بعد أن وزّر وتحمّل مسئولية الكتابة بين يدى الخليفة المأمون .

كما أن آثاره النثرية فى الحكم والتوقيعات وبعض الأقوال الأخرى التى تنسب إليه ، ترسم له معالم شخصية تختلف تماما الاختلاف عن سمة الانحراف فى المجون ،وليس هذا دفاعًا عن مجون الكاتب بل هناك تيار زهد المجال والتوبة والإقلاع عما انغمسوا فيه فى شرخ حياتهم يعد تيارًا بارزا فنيا من تيارات الأدب فى العصر العباسى .

يضاف إلى ذلك أن مجون أحمد بن يوسف خلا منه النثر ، وحفل به الشعر الذى نظمه فى بعض هذه المجال مصورا الغلاميات ، والخمريات والغزليات ، ومع ذلك كله كان خاليا من اللفظ المفحش الذى يخدش الحياء .

●● ويؤكد تراث أحمد بن يوسف النثرى سمات الكاتب الشخصية ، ومعالم نفسيته التى تبرهن صدق المذهب النفسى فى تحليل الأدب ، وقرب الكاتب من أدبه ،فقد نرى الكاتب

---

(١) أبو حيان التوحيدى – الإمتاع والمؤانسه جـ ٣ – ص ٨١ .

(٢) ياقوت الحموى – معجم الأدباء جـ ٥ ص (١٧٠) .

(٣) الأصفهانى – الأغانى جـ ٢٣ ص (١٢١) .

الصادق فى أدبه الاجتماعى ، وإن أخفت بعض ملامح وجهه الرسميات فى الديوانيات والسلطانيات إلا أنها تظهر واضحة فى إخوانياته ومداعباته ، حتى أن القول الأول فى حاجة إلى الدقة فى التعبير ، بمعنى أن بعض معالم شخصية الكاتب الدقيقة لابد أن يكون لها نصيب فى التعبير عنها حتى فى نثرياته .

وإذا كان البحث قد رصد أبرز ملامح شخصية الكاتب فى الصفحات السابقة وهى سلطانياته أو قربه من السلطان وبراعته فى التعامل مع الحاكم ، وثانيها البداهة وسرعة الإرتجال والذكاء ، وثالثا المجون والاستمتاع بملذات العيش ، فإن الباحث فى آثار أحمد بن يوسف النثرية يستطيع أن يقف على بعض المكونات الرئيسية المشكلة لشخصية الكاتب والتى تقرب الصورة السابقة لشخصية الكاتب الحقيقية .

ومن هذه الخصال ثقافة الكاتب الواسعة فقد بدا مثقفًا ، وهذا أمر طبيعى وضرورى وليس حلية أو زينة للكاتب أو الشاعر ، فقد يكون الشاعر أُمِّيًا ، ولكنه وهب تلك الأذن الموسيقية التى تصفى كلماته وتجعلها أنغامًا متوازية ، بيد أن الكاتب يصدر عن ثقافة عميقة وعريقة متنوعة المذاهب ومتعددة المصادر .

ومصادر الأدب والنقد فى إطار التراث تشترط هذه السمة ، وترى أن الثقافة شرط أساسى فى تكوين شخصية الكاتب وتشكيلها .

ومصادر ثقافة الكاتب متعددة أولها الثقافة الإسلامية التى تتحمل فى حفظ القرآن ، كله أو معظمه ، وفهم آياته وأصول الفقه ومعرفة الحديث .

ثانيها الثقافة التاريخية ، والوعى الكامل للتراث ، ومحاور التاريخ العربى والإسلامى ، وأخبار الحروب والفتوحات ، وكذلك فلسفة التاريخ وفهمها فى التوجه والإرشاد ، والتعرّف على الظرف التاريخى الذى يقتضيه الحدث ، وكذلك الوعى بالتراث ،ومعرفة أيام العرب وأخبارهم ونوادرهم وطرفهم ، وحفظ الكثير من حكمهم وأمثالهم . وفى طرائق الحياة ، وأساليب المعيشة وغيرها ، وكذلك حفظ الشعر ومعرفة مدارسه ومذاهبه ومناهجه ، وفهم عقده ، والتعرف على أصول النقد ، والقدرة على التذوق الأدبى ، وغير ذلك من مصادر الثقافة المختلفة الأخرى .

ولقد بدأ أحمد بن يوسف كاتبًا مثقفًا فى فنونه النثرية التى خلفها ،مما جعل الخليفة المأمون يقرّبه إليه ، وظهر ذلك المستوى الرائق فيما كتب من أمور السلطانيات أو المكاتبات الرسمية ، وهى أحوج ما تكون إلى تلك المصادر المتنوعة من أصول الثقافة العربية ، كما ظهر فى رسالة الخميس ، ورسالة الشكر ، وغيرهما من مطولات الكاتب .

وقد وردت عشرون آية قرآنية فى رسالة الخميس للكاتب ، كما وردت أربع عشرة آية أخرى فى رسالة الشكر ، استشهد بهما الكاتب لتأكيد دلائل قدرة الله ، وبيان نعمه فى وأفضاله ، فى الحمد والشكر والدعاء والاستجابة ، لتبرير مقتل الأمين ، وتأكيد موقف الخليفة فيما يتصدى له من أزمات ،وقد أفاد الكاتب من موقف الشيعة فى محاولة تبريرهم الإرث والخلافة وأحقيتهم فى الحكم ، فتعامل مع بعض آيات القرآن ذات المعاملة .

وقد ظهرت ثقافة الشاعر القرآنية أو الإسلامية فى استلهام الأحداث من القرآن فى محاولة الربط بين اللاحق والسابق ، والعلاقة بين حكاية اليتيمين والجدار فى أهل الكهف ، وحكاية يوسف ، كل ذلك ليبرر قتل الأمين المخلوع ، ويؤكد موقف الحاكم المأمون العباسى .

أما عن الثقافة التاريخية فهى لا تقل أثرا وخطرًا عن الثقافة الإسلامية ، فقد ظهرت فى رسالة الخميس ، وفى غيرها من مطولات الكاتب ، فقد عرض أحمد بن يوسف إلى تاريخ الدعوة العباسية ونشأتها بخراسان أول أمرها ودور الفرس فى تأصيلها ، كما أوضح دور القائد « أبو مسلم الخراسانى » فى نشأة الدولة العباسية ، ودور أهل خراسان فى القضاء على الفتنة بين الأمين والمأمون ، وغير ذلك من المحاور الثقافية التاريخية التى تؤكد سلامة ووعى الكاتب بلغة المصادر المتنوعة ، للثقافة والتاريخ ، حتى أضحت مطولات الكاتب وثائق تاريخية تهتم بتسجيل الوقائع والمواقف الجادة ، والقدرة على التعبير عن سياسة الدولة وفكرها السياسى فى تشكيل فنى وجمالى .

ويلتزم الكاتب أحمد بن يوسف فى تسجيل التاريخ بمنهج الأديب لا منهج المؤرخ ، إيمانًا منه بدور كتبه ورسائله فى اعتبارها وثائق فنية قبل أن تكون وثائق تاريخة ، ولا يفهم من دوره الثقافى ، أو تسجيل بعض أزمات عصره التاريخية أنه مؤرخ ، أو أن آثاره تاريخية ، أو يمكن الاستغناء عما كتبه المؤرخون فى الرجوع إلى آثار أحمد بن يوسف النثرية ، وتبرز هنا قضية منهج الكاتب الأديب الذى يختلف – ولا شك فى ذلك – عن منهج المؤرخ العلمى .

وأولى مراحل هذا الاختلاف أن الكاتب الوزير أحمد بن يوسف كاتب المأمون العباس لا ينفرط عقده عن سياسة العباسيين وخلفائهم ، ويعبر دوما عن رأى المأمون ، ويرضى هدفه فى الدعوة إلى ما يحب ، ومن المحتمل ألا يكون موضوعيا أو محايدًا ، أو ملتزما خط الحقائق والوقائع شأن المؤرخين ، الذين يفترض فيهم التجرد عن الميل والهوى ، فالكاتب مؤرخ أدبى فنى ولكن من وجهة نظر الحكومة التى يعمل بها ، والتى يمثلها ، ويضاف إلى ذلك منهج الكاتب الفنان فى تناول حقائق التاريخ ، فيميل إلى الوجدانيات ، وإلى ما يثير العواطف ، وإلى ما يجسد شخصية البطل المنقذ صاحب القلب الكبير .

كما أنه لا يلتزم بالترتيب المنطقى للأحداث فقد يبدأ بالنتائج والنهايات ويصل بعدها إلى المطالع والمقدمات ، كما أنه يتجنب سرد الأرقام والحقائق الجافة الجامدة ، كما أنه لا يُفصِّل فى الحدث تفصيل المؤرخ ، الذى يروى غَلة الباحث عن الحقيقة ، وهذا كله لا يقلل من دوره ، كمثقف ثقافة تاريخة استوجيها استعراض الكاتب الأديب الفنان الذى يجنح إلى الخيال أحيانًا ، والذى يؤثر اللفظ على الحقيقة والمعنى أحيانا أخرى ... ...

– وتأتى الحكمة فى مقدمة السمات النفسية التى ترسم معالم شخصية الكاتب الفنان الوزير أحمد بن يوسف ، والحكمة تجرى على لسانه فيصوغها بقلمه جملاً رائعةً ، وعباراتٍ محكمةً ، وقد يُذاع أمرها وينتشر صيتها ، وتكتب لصاحبها الشهرة والخلود أكثر من آثاره النثرية الأخرى ، حيث يتمثل بها الآخرون ، وذلك لتعبيرها عن تجربة إنسانية ، وتركيزها الكثيف ، وصياغتها المحكمة ، فيسهل حفظهما ، وتعيها العقول والأفئدة ، وتظهر فى مواقف الحياة المتشابهة ، بيد أن المطولات والآثار النثرية الأخرى تبدو قيمتها الفكرية فى وقتها ومناسبتها ، ولا تتعدى تلك المناسبة أو هذا الوقت ، وتكمن قيمتها الفنية فى التذوق الأدبى والتعرف على جماليات التشكيل الفنى .

وقد تناول البحث الحكمة فى نثر أحمد بن يوسف فى موضع سابق تناولاً فنيا ، بيد أن المقصود بذكر الحكمة فى هذا المجال ، هو أنها تشكل جزءا من شخصية الكاتب الوزير ، فيمكن أن يقال عنه أنه كان حكيمًا ، والحكمة عنده لا تأتى من طول عمره ، أو كثرة السنوات التى عاشها ، بينما تأتى عنده من عمق التجربة ، ومن معايشته لأزمات سياسة كبيرة ، منها الفتنة بين المأمون والأمين ، وخروج بعض المارقين على نظم الحكم ، وكثرة ما يراه بين الأصدقاء والإخوان ، ويرى ذلك كله بعين العاقل الواعى الذى يتفحص الأمر ، ويقلبه على وجوهها المتعددة ، ويخرج بعد ذلك بقول مأثور ، يدخل فى إطار الحكمة .

وكانت الحكمة عند أحمد بن يوسف تُصاغ من مصادر التجربة والرؤية ، والواقع والمعايشة ، والتراث التاريخى ، وحكايات السابقين ، وقصص الأولين ، وعبر الماضى وتجارب الشاعر واستعداده النفسى من أن يجعل قلمه معلمًا لغيره ، فيصوغ التجربة أو الرؤية فى قول مكثف مركز بليغ ، والايجاز سمة من سماته ، بل هو السمة التى ارتقت بالكاتب إلى المصاف الأولى ، وجعلت منه وزيرًا للخليفة المأمون كما أن الحكمة عنده أدت الدور المرسوم لها فى الوعظ والنصح والإرشاد والتوجيه والتثقيف والتعليم وكذلك أقواله فى رسائل الشكر ، حيث تتمثل بها الأجيال التى شاءت أن تربى نفسها على حكمة السابقين .

ومما لاشك فيه فإن الحكمة سمة بارزة من السمات التى لا يمكن أن يغفلها باحث فى نفسية وشخصية الكاتب الوزير أحمد بن يوسف ..

– ويمكن أن يقف الباحث على سمة بارزة أخرى من السمات النفسية المشكلة لشخصية أحمد بن يوسف وهى أنه كان مجاملاً ، أو يمكن أن يوصف بأنه كان اجتماعيا ، لا يترك مناسبة للخليفة أو الصديق إلا وأسهم فيها ، وهذه سمة لا تتوفر لجميع البشر بل تلك الفئة التى تحب الآخرين ، ويحبها الآخرون ، يهادونه ويهاديهم ، يشكرونه ويشكرهم ، يظهر فى مناسباتهم جميعها ، سعيدة أو غير سعيدة ، يهنىء بحلول عيد ، يهنئ بشفاء وسلامة ، يهنئ بوصول وليد ، يهنىء بالنصر والفوز ، يجامل فى عزاء ، ويواسى فى مصيبة أو كارثة ، ويشارك فى مرض يخفّف البلاء والعناء عن الأصدقاء بأسلوبه البليغ ، وعاطفته الجياشه ، وكلماته المؤثره فربح من حوله ، وصار صديقا لكثيرين ، وغير عدوٍّ لأحد .

يهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز طبق جزع عليه مَيْلٌ من ذهب فيه اسمه منقوشًا ويكتب إليه ، ويهديه مرة أخرى سفط ذهب فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه ويكتب إليه ، ويهديه ثالثة ، ويرى أنه يومًا جرت فيه العادة بإهداء العبيد السادة ، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلا من كثيره عندى ، كما أهدى إبراهيم بن المهدى ويكتب إليه :

لم يكن الكاتب يهدى إلى الخليفة فحسب ، وإلا اعتبره البعض ينافقه ويجامل على حساب غرض خاص ، ونفع شخصى ، بل إنه كان يجامل الأصدقاء ويكاتبهم .

ولعل كتب أحمد بن يوسف إلى بعض أصدقائه فى مواقف اجتماعية تعد من خير الهدايا التى يمكن أن يهديها كاتب لصديقه ، إجلالا لدور الكلمة ، وتعظيما لبقائها وخلودها ، فالهدايا المادية حتما تزول ولابد من زوالها ، وتبقى الكلمة بسحرها وعبقها الذى لا ينفد ويكتب أحمد إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود ، وإلى آخر وآخر يقدم التهانى بالوليد ، ويؤكد الكاتب فى مكاتباته الاجتماعية سروره لسعادة الآخرين ،كما يعبر عن حزنه لنوازل الأصدقاء ، فيكتب إلى مريض راجيا أن ينقل الله ما ألَمَّ بجسمه من علة إليه ، طالبا له العافية ، والعمر الزائد على الأمنية .

وكتب أحمد فى الاجتماعيات او فى المجاملات تؤكد صحته النفسية العالية ولياقته الفكرية الراقية ، وأنه كان مجاملا من طراز فريد ، واجتماعيا على درجة عالية ، لا يحب العزلة أو الأنانية ، أو النفع الشخصى ، أو يتعالى على الآخرين ، أو يغلق على نفسه ، أو يدعى التجاهل إلى آخر تلك النقائض التى يمكن أن يعرف بها غيره .

يبقى بعد هذا العرض لأهم سمات الكاتب الشخصية بعض الخصال النفسية أو الصفات التى تزخر بها شخصية الكاتب كى تقربها من الأصل والواقع ، وهى بعض السمات التى تعلى من قدر الإنسان والإنسانية .

وكان منهجنا كما هو معروف ومتفق عليه هو ما كتبه الكاتب أحمد بن يوسف ، فلم نلجأ إلى سيرة حياته ، أو ما قيل عنه ، بل أخذنا منهج الاعتراف الذاتى ، وحديث النفس عن النفس ، وتعامله مع الغير من خلال ما سطّره قلمه فى آثاره التى خلّفها هنا ، وليس هنا أصدق من أن يعبر الإنسان عن نفسه ، فهو بها أعلم ، وبدقائقها أدرى ..

وهذه السمات المتبقية فى تحليل تلك الشخصية هى الاعتذار والشوق والعتاب والأخوة والذم أحيانا ، فهو إنسان طبيعى تام الصحة النفسية ،يحب ويكره ، يخطىء ويصيب ، يهدى ويهادى ، يشكر ويشتاق ، يعتذر ويؤاخى ، ويذم الحاقدين أحيانا ،حتى أضحت معظم الخصال النفسية أو السمات الشخصية لها وجود بارز وواضح فى شخصية الكاتب أحمد بن يوسف .

يضع الكاتب الناس فى منازلها ، ويخاطبهم على أقدارهم ولا يغمط أحدًا موضعه ، بل قد يُعليه ولا يخفه .واجتماعيات الكاتب إلى الغير ، تتوزع بين إطارين ، إطار الخليفة الحاكم ، وإطار الصديق المنتقى المختار ، وهو فى كلٍ لا يخلط الأوراق ، ولا يذيب الفوارق ، أو يزيل الحواجز ، فلكلٍ مقامه ،ولكلٍ قوله وأفعاله .

والكاتب فى اعتذارياته لا يتكبر أو يترفع عن الاعتراف بالذنب وارتكاب الخطأ ، ويُرهِّب بالعقاب أملاً فى الثواب ، ولا يخشى إلا عقاب المقت الخصام ومن الطبيعى أن الكاتب أحمد بن يوسف فى اعتذاره لا يعتذر إلى من هو أقل منه احترامًا لوضعه فى حكومة المأمون ، واحتراما لوضعه بين كتاب الديوان ، وإجلالا لقلمه ومكانته ، ولكنه يعتذر إلى من هم فى مستوى أعلى منه ، أو إلى من هم فى رتبته وطبقته .

واعتذاريات الكاتب أحمدبن يوسف تعد نموذجا لهذا الفن من فنون القول فى النثر العربى ، وهو فن معروف فى الشعر العربى القديم منذ الجاهلية ، وله شعراؤه الذين عرفوا به ، وعُرف الفن بهم كالنابغة ، بيد أن الكاتب أحمد بن يوسف فى اعتذارياته لا يقر بالخطأ الفادح أو التقصير الواضح الذى يصل بين الأصدقاء إلى حد القطيعة ، ولكنّا نرى أن اعتذار ابن يوسف لون من الدلال الاجتماعى ، أو المحبة المفرطة بين الأصدقاء ، يدل به على رقى فكر ،وسلامة نفس ، وحفاظ على مودة وتمسك بصداقة ، يريد زيادة أواصرها ، وشدة التحامها .

إن اعتذاريات ابن يوسف تُؤخذ كنماذج راقية لهذا اللون ، يستطيع أن يستشهد بها كل من يريد أن يعتذر لصديق أو عزيز من الخلان ، أو مسئول تربطه به لون من المودة ، ويخيل إلينا أن هذا اللون من القول جاء إشباعا لرغبة كاتب أراد أن يسهم بقلمه فى كل فنون القول النثرية ، فلا خطأ ولا جرم ، ولا نقص أو تقصير ، بل هو يعتذر عن تأخير موعد ، أو تأخير إسهام فى تهنئة ، أو مجاملة فى مرض ، أو هدية يتقدم بها ، أو ما أشبه هذه الأمور البسيطة وكل ذلك يأتى فى قول بليغ وجمل رصينة ، وعبارات محكمة ، وألفاظ منسقة ،يدل بها على

قوة التعبير وجمال الصياغة ، كما يعترف فى اعتذاره بكثرة ذنوبه التى عظمت ، ويعلن التوبة والاستغفار وطمعه فى حلم المقصر فى حقه ، واستعداده لتقبل عقوبته إنْ شاء .

وفى رسالة اعتذار أخرى يعترف بأنه من العامة ، والآخر المخطئ فى حقه من الخاصة ، ويرى أن لكل ذنب عفوًا أو عقوبةً ، ويطلب العقاب الذى يكون فى صورة الإعراض الذى لا يصل إلى كراهية ، فقد أدى الكاتب بهذا اللون جانبا من الجوانب .. التى تعبر عن شخصيته الاجتماعية ، يعتذر ويشتاق ويجامل ويتوسط ويعاقب ، وهو فى كل هذه الفنون يكشف عن شخصيته وعن أدق جوانبها ، فهى شخصية متكاملة صحيحة النفس متفاعلة مع المجتمع تفاعلا ايجابيا ، وهو وإن بدأ قوى العاطفة شديد المحبة فى شوقه وإخائه ، فإن يبدو أيضا قوى النفس شديد الشكيمة ، حين يغضب ويذم فيقسو فى كلامه ، ويشتد فى تعبيره ، ويقسو على خصمه حتى يكاد ينسفه نسفا بذات القلم الذى عبر به عن الشوق والمحبة[1] .

والكاتب فى ذمه يظهر جانبا آخر من جوانب شخصيته ،فهو لا يذم – أيضا – ضعيفا أو حقيرًا ، لأن فى ذلك ضعفا فى الشخصية ، واستغلالاً لموقع ،وسوء تصرف ، بل إنه يذم مسئولا ، ويهجو واليا عرف بالظلم ، أو هكذا رآه الكاتب ، ويهجوه بمعان حضارية بعيدة عن صغات الهجاء التقليدى ، الذى تناولها الشعراء من قبل أو بعض الكتاب ، فلا يهجو بالشك فىالنسب وعدم صحته ولا يهجو بالجبن أو البخل ، ولكنه يهجو بأن الوالى المذموم « غير نبيل فى عمله يحيف فى القضاء ، ويتبع الهوى ، ويقبل الرشاوى ، كما أنه ليس الكاتب الرزين ولا الحليم الركين »[2] .

وأن المتتبع لاجتماعيات أحمد بن يوسف يقف على كثير من خصال شخصيته النفسية وقسماتها الوجدانية بين الشوق والمحبة ، وبين العتاب والذم ، وهو فى كل يكشف عن شخصية اجتماعية يجامل غير منافق صريح فى التعبير عن رأيه ، يسهم فى علاقات المجتمع بحقه ، يُعلى من قدره ،يحافظ على ذاته وعلى قلمه ، يتعامل مع الآخرين تعامل المحب والند ، لا يظهر ضعف شخصية ، أو قصور فى نفسيته ، وكان واضحا أشد الوضوح ، بليغا أشد البلاغة ، جريئًا فى التعبير عن نفسه – كما سبق القول – وإن أظهرت مطولاته النثرية فى الديوانيات ، والتحميدات شخصية كاتب السلطان ، أو الكاتب الوزير ، فإن مقتطعاته وكتبه وتوقيعاته وحكمه ورسائله الإخوانية ، ومجاملاته مع السلطان والأمراء ، كشفت جوانب شخصيته ، مما يؤكد صدق الكاتب الفنى حين أكد صدقه النفس من خلال آثاره النثرية ، التى أسهم قلمه فيها بالتعبير عن ذاته أصدق تعبير ، فرسمت آثاره التى حفظتها صورة كاملة الجوانب متكاملة الأرجاء عن شخصية الكاتب الوزير أحمد بن يوسف .

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور ٨٣/ ٤٢٠

(٢) اختيار المنظوم والمنثور ٣/ ٤٢٠

خامسا : جماليات التشكيل الفنى
فى نثر أحمد بن يوسف

(أ) الصـــــورة
(ب) موسيقى اللغـة

الأدب إقناع وإمتاع ، وفكر وعاطفة ، ولا يستغنى عن طرف من الطرفين الأساسيين لصناعة الأدب ، وهما المضمون الفكرى والتشكيل الجمالى ، وحين يطغى طرف على الآخر قد يؤثر ذلك فى سلامة البناء الأدبى ، والأدب المتوازن الذى يتعامل مع الطرفين تعاملا متوازيا ، وفى الوقت نفسه تعاملا منسجما حيث يشترط التآلف والائتلاف بين لون الفكرة وطبيعة الأسلوب الجمالى أو التشكيل الفنى ، الذى يعبر به الأديب عن فكرته ، ولكل فكرة ما يناسبها من التصوير الفنى ، وكذلك ما يلائمها من الجرس الموسيقى أو التنغيم الصوتى ، وما يتفق معها بطبيعة الحال من الألفاظ والمفردات وتركيب العبارات ، والأديب مهندس هذه التراكيب ، وفنان يراعى هذا الانسجام والائتلاف بين طرفى الأدب ، والفكرة والتشكيل ، حتى يحقق لأدبه أسمى غاياته الوظيفية ، وهى الاقناع والإمتاع .

ولما كان الإقناع فى نثر أحمد بن يوسف يبدو فى أفكاره التى ضمنها مطولاته فى الديوانيات والتحميدات ، حين عبر عن فكر الخليفة ، ورأى الدولة ، وسياسة الحاكم ، ونهج الحكومة ، كما بدت أفكاره أيضا فى اجتماعياته وفى كتبه وتوقيعاته ، وحكمه ورسائله ، وبمعنى أصح فإن أثرًا من آثار أحمد بن يوسف النثرية ، والتى خلفها للمكتبة العربية لا تخلو من جمل فكرة ، وسلامة منطق ، أراد الكاتب بها أن يعلم بالقلم ما خطه مخاطبا العقول التى تعى ، وتقدر جمال الفكرة وجزالتها .

ولما كان الإقناع وحده لا يكفى كى يحقق رسالة الأديب فى أدبه كانت الدراسة تعد قاصرة لو اكتفت بما ذكرت ، وتحاشت التعامل الفنى مع جماليات التشكيل فى نثر أحمد بن يوسف ، لذا كان لزاما على البحث أن يعرف بعض هذه الجماليات وآليات هذا التشكيل الفنية ، التى استطاع الكاتب عبرها أن يعبر عن أفكاره أجمل تعبير ، كى يمتع القارئ والمتذوق فيحقق لأدبه جانبا مهمًا لا يقل عن جانب الأفكار أو المضامين والموضوعات ، وهو جانب التشكيل الجمالى فى نثره ..

والحديث عن جماليات التشكيل الفنى فى النثر يختلف بطبيعة الحال عن جماليات التشكيل الفنى فى الشعر ، فلكل أنماطه ، ولكل مصادره ، ولكل وظائفه وأدواره ولكل مناهجه وطرائقه التى يسلكها الشاعر تارة ، ويرتادها الناثر تارة أخرى ، والتصوير الفنى الذى يبدو جميلا متآلفا متناسقا فى الشعر ، يؤدى هذا الدور الجمالى بطبيعة الحال حين يتوسل به الكاتب فى نثره ، وقد تتكاثر الصور الفنية فى الأشعار فتعطى جمالا ، وإذا حدث ذلك فى النثر ربما أضعف التشكيل ، وجعل التصوير باهتًا ،ويؤدى عكس الغرض المقصود من الإقناع ، وكذلك تفاعل الكاتب مع مصادر الصورة فى الشعر يختلف عن تعامله معها فى الآثار النثرية أو فى فنون القول النثرية ، ويتحكم فى هذاالاختلاف بين شطرى الأدب طبيعة التعبير الأدبى فى كلٍ ،فالشعر له بحوره وأوزانه وقيوده الموسيقية ، ومجالاته الصوتية ، وقدراته التعبيرية ، وأنماطه التشكيلية ، والنثر أيضا له طبائعه الجمالية ، ومناهجه التعبيرية ، وقدراته الخاصة فى التعامل مع الخيال وأساليب التصوير وأبرز دعائم التشكيل الجمالى المتعارف عليها فى الشعر يجدر بالبحث الوقوف عليها حين يتعامل مع نثر الكاتب ، وتتحدد هذه الدعائم بين إطارين هما من أهم هذه الدعائم وأبرزها وأوضحها وهى :

(ا) التصوير الفنى

(ب) موسيقى اللغة

ا – التصوير الفنى فى نثر أحمد بن يوسف

قضية التوسل بالتصوير الفنى فى النثر الأدبى ،قد يقف حيالها فريقان أحدهما يؤيد استخدام الكاتب للتصوير فى نثره ، والآخر يعارض ويرى فى استخدام التصوير عجزًا فى مقدرة الكاتب على التعبير ، ولذلك يلجأ إلى الصورة كى يقرب المعنى ، أو يحسنه ، أو يزينه ، وقد تأتى حشوا لا قيمة لها ،

وعلى هذا الأساس – كما سبق القول – تختلف رؤية الناقد إلى التصوير الفنى فى شعره عنها فى النثر ، وهى وإن كانت فى كثير من الأحيان ضرورة جمالية فى التشكيل الشعرى ، فإنها غير ذلك فى معظم الأحوال فىالتعبير النثرى ، وقد أشار إلى هذا الأمر النويرى فى نهاية الأرب ، حين رأى تعامل الكاتب مع البيان والبديع من الأمور التى تزيد من قدره ، وتعلى من قيمته ، « ويزين العلم بها نظمه ونثره معرفة الكاتب بصحة المعانى ، والبيان ، والبديع ، والكتب المؤلفة فى إعجاز الكتاب العزيز ، وأمور أخرى تتصل بصناعة الكتابة ، وهى الاقتباس والاستشهاد والحل »[1] .

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣ ص ٣٥ .

ويعود النويرى ويرى أن هذه الأمور من المكملات الفنية لفن الكتابة ، خاصة عند أصحاب الصنعة والتصنيع ، ويرى أن هناك طائفة من الكتاب لا تضطر إلى التعامل مع علوم البيان والبديع وهم « ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة ، والفكرة المنقحة ، والبديهة المحببة ، والرؤية المتصرفة »[1] .

ويرى العالم بخبايا هذه الفنون وأسرارها ، والذى يحسن استخدامها ، فيتمكن من أزمة المعانى ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب »[2] .

والقارئ الباحث عن أوجه التصوير وأنماطه الفنية فى آثار أحمد بن يوسف قد يسجل ملحوظة مهمة فى هذا المجال ، وهى أن تعامل الكاتب مع الصورة الفنية فى نثره تعاملا قليلا ، بل يمكن أن يكون نادرًا ، قياسا إلى حجم المطولات ، والآثار النثرية التى خلفها الكاتب ، ولكنه موجود ، وعلى سمات فنية خاصة ، تظهر براعة الكاتب وإمكانياته فى التوسل بهذه الأنماط الفنية للصورة فى نثره . ويلحظ القارئ الناقد أيضا فى التصوير الفنى لآثار أحمد بن يوسف النثرية سيطرة الاستعارة وكثرتها ، وقلة التشبيه وندرته ، فلا يبالغ إذا قال إن الكاتب لم يستخدم التشبيه فى مواطن التصوير التى يسجلها الباحث فى نثره ، وربما يعود ذلك إلى ارتقاء التعامل مع التشكيل الجمالى ، وسيطرة الفكر على محاولة التقريب والتوضيح وإظهار التشبيه فى الصورة التشبيهية ..

ويسجل أيضا على أنماط التصوير الفنى فى نثر أحمد بن يوسف ، ميل الكاتب إلى اللوحات الفنية المتكاملة ، فإذا بدأ بصورة جزئية ، تلاها بعدّة صور أخرى وكأنها صور مترادفة ، وكأنما هى استعراض لمقدرة الكاتب على التعبير بالتصوير عبارات عديدة ، ويمكن أن نسميها لوحات كاملة متكاملة ، أو كما أطلق عليها النقاد الصور العنقودية التى تتعاون معا فى رسم الصورة الكلية .

والكاتب يوازن ويعرف ويربط بين جزئيات كثيرة لا تجمع بين الواقع والخيال ، ويحافظ على الترابط الصوتى والتقسيم الموسيقى ، والتوازن بين جمل الصورة حتى يحقق بها المعنى فى إيقاع متوازن يؤكد الصدق الذى ينشده الكاتب ومن صوره الفنية قوله :

— الحق واضح ، تهديد حجته ، ولا تخاف عثرته ، وتؤمن مغبته[3] .

— مستتم الصنيعة من صابرها ، فعدل عن زيفها ، وأقام أودها[4] .

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ص ٣٩٧.

(٤) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ص ٣٩٥.

– يرأب هذه الكلمة ، يسد هذه الخلة » ...[1] .

– الله جعل فى أرضه معاذا يلجأ إليه المظلوم ، وحجابا بين الساعين بالفساد ، حتى يلفهم[2] عدل ، ويوبقهم جور .

– عليك تقف الظنون الحسنة ، وتستفتح إغلاق المطالب[3]

– استبطأك الاغفال ، أبطرك الإهمال[4]

لك جد تنجده همتك ، وأفهام تفوه به نعمتك ، فهى تحسر الناظر إليها ، وتجبر الواقف عليها ، حتى كأنها تناجيها بحُسن العقبى [5]

وقد يطابق أو يقابل بين مجموعة من الصور المنتظمة التى تأخذ شكل المحورالمتكامل ، والعنقود التام حين يخاطب الخليفة فى قوله .

وقد صغرت يدى من فائدتك ، بعد أن كنت ملأتها من عائدتك ، فإن رأيت رأيت أن تجيرنى من الحدثان ، وتقيلنى من قيد الزمان ، فقلتُ إن شاء الله[6] .

ويواصل فى ازدواجه بين الصورة فى ترادف فنى جميل ، فيقول للخليفة . المنتظمين فى خيطك ، ساق إليك عافيتك . يجعل حسن بلائه كمدًا فى صدور حسادك جمالاً فىعين مؤملك ، سرورًا للمتعلقين بك[7] .

وأضحى ذلك النمط من التعامل مع التصوير الفنى فى نثر أحمد بن يوسف منهجا يعرف به ، وطريقة واضحة للباحث فى مواطن التصوير فى نثره ، وقد سارت فى إطارين أو فى هدفين ، تجميل صورة الخليفة .

وذم صورة المعارضين والمارقين

فالخليفة يلم به الشعث ، ويرأب به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ، ويرتق به فتوق الأمة ، ويسخن بسياسته نكاية فى عدوها[8] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٤١٧.
(٢) جمهرو رسائل العرب جـ ٣ ٣٧٥
(٣) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣٧٤
(٤) المصدر السابق ٣٩٦
(٥) المصدر السابق ٣٧١
(٦) المصدر السابق ٣٧١
(٧) المصدر السابق ٣٧٠
(٨) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣٥٦.

وتواصل الصورة أداء وظيفتها فى تأكيد صورة الخليفة المصلح القوى الذى يسيطر على الغضب ، أطفأ نارها ، وأخمد لهيبها[١]

وهو يواصل رسالته فى نشر الدعوة ، وتأكيد أواصر الإسلام ، وتعمير بيوت الله[٢] والمساجد قد أسسها على التقوى ، عمرها بتلاوة القرآن ، وطهر المنابر ،[٣] وكذلك جمع الألفة بعد الفرقة ، وأوضح الهدى بعد الدروس[٤].

وحين يُسخر الكاتب قلمه لذم المعارضين ، وسب المارقين ، وهجاء الخارجين ، فتقوم الصورة بأداء الدور فى النهج الفنى الذى عرف به الكاتب فى نثره ، وهى العناقيد والمجموعات والجزئيات المكونة للوحة فى ترادف فنى يؤكد المعنى ويعمقه ، فيقول الكاتب فى كتابه إلى بنى سعيد بنى نقمه ، قرآن غدر ، محاسنهم مساوئ السفلة ، ومساويهم فضائح الأمة ، وألسنتهم معقودة بالعى ،وأيديهم معقودة بالبخل ، وأعراضهم أعراض للذم[٥].

وهذه النماذج المذكورة لفعل الخيال فى تعبير الكاتب ، وتتخطى حدود اللغة العادية ، وتحطيم بعض حواجزها المعجمية ، هى معظم إن لم يكن كل ما يمكن أن يطلق عليه صورة فى نثر الكاتب .

هذا الأمر يفجر قضية فنية تفجيرًا هائلا ، وهى أن النثر الفنى فى تعامله مع الصوة الشعرية ، أقل كثيرًا وبدرجات هائلة من تعامل الشعر مع الصورة .

وبعد فيجدر بالبحث أن يرسم بعض ملامح فنية لتكامل نثر الكاتب مع التصوير الفنى ، بعد أن سجل عدة ملحوظات عامة على هذا الأمر .

وفى تعامل الكاتب مع بعض ألوان التصوير ما يؤكد تعريفات حديثة لنقاد أجانب للصورة فى كونها .

« خلق صافٍ من قِبَل الفكر ، لا يمكنها أن تولد من تشبيه ، وإنما من تقريب بين حقيقتين متباعدتين إلى حد ما »[٦] .

ويرى الناقد أوكتافيوبات – يحدد المفهوم على الشكل التالى :

---

(١) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣٥٣.
(٢) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣١.
(٣) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣٥٣.
(٤) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣٤٦.
(٥) جمهرة رسائل العرب جـ ٣ ٣٧٣.
(٦) Reverdy Pierre: le Pant de Crin flammarion. Paris 1960. P.30

« الصورة تُقرِّب أو تجمع حقائق متناقضة ، ومتباعدة ومختلفة »[١] ولا يختلف الأمر عند النقاد العرب المحدثين فيرى إحسان عباس « خلق جديد لعلاقات جديدة »[٢]

ويراها عز الدين اسماعيل « فىالصورة تتجمع عناصر متباعدة فى المكان والزمان غاية التباعد ، لكنها سرعان ما تأتلف فى إطار شعورى واحد »[٣]

ويراها أنطوان غطاس « أنها الوصال الخفى بين الكائنات ، حوار السكون ، جمع ما تفرق وتنوع ، تعانق الأضداد فى كشف واحد »[٤]

من هنا يمكننا أن ندرك آليـة التصويـر فى الأدب أو فى النثر مجال البحث ، بأن الصورة تخضع فيهـا تعددية الوجـود للوحـدة التـامة ، فتقرب مـا تفرقـه المعرفة المجردة ، وتسمح بما يمنعه العقل والتجربة العلميـة ، ومن الفوضى والبلبلة يستخرج دائمـا الانسـجام .

وقد يفرق بعض النقاد بين الصورة الفنية والصورة البيانية ، والصورة الشعرية فى النظم ، والصورة فى النثر ، ويشير أودنيس إلى وجود اختلاف بين الصورة والاستعارة ، وبين الصورة والتشبيه ، ويرى أن الكثيرين يخلطون بين التشبيه والصورة ، فالتشبيه يجمع بين طرفين محسوسين ، إنه يبقى على الجسر المحدود فيما بين الأشياء ، فهو لذلك ابتعاد عن العالم ، أما الصورة فتهدم هذا الجسر ، لأنها توحد فيما بين الأشياء ، وهى إذ تتيح الوحدة مع العالم ، تتيح امتلاكه وامتلاك الأشياء . يعنى نفاذ أحقيتها فتتعرى .

ويرى فريق آخر التوحيـد بين الصورة البلاغية والصورة الاستعارية والصورة التشبيهية ، حتى أضحى استعمال لفظة صـورة عندهم لـم يبـق محصـورًا فى الدلالـة على صـور المشابهة فقط ، وإنمـا تعداهـا للـدلالة عـلى كل نـوع من أنـواع الشذوذ والانحـراف الدلالى ...

ويؤكد البعض قيمة الصورة فى الشعر ويجعل الصورة تمييزًا للشعر عن النثر ، ويعالج د . صبحى البستانى فى بحثه عن الصورة الشعرية[٥] .

---

(١) Octavio Paz: Limoge Poetigve:4

(٢) إحسان عباس ، فن الشعر ص ٢٦٠

(٣) عز الدين اسماعيل ، الشعر العربى المعاصر ص ١٦١

(٤) انطوان ، ملامح الأدب العربى الحديث ص ١٠٠

(٥) صبحى البستانى ، فى الكتابة الفنية الأصول والفروع ، دار الفكر اللبنانى ، جـ١ الأولى ١٩٨٦ ، ص٣٢.

ويعرض لرأى الناقد جان كوهين Yeacohen فى كتابه اللغة الشعرية Stvare du longage poetique ويحاول تحليل الفرق بين الشعر والنثر على أساس التعامل مع الصورة ، فيرى أن الوظيفة العادية للغة العقلية هى وظيفة إدراكية ، بينما وظيفة اللغة الشعرية Cognitive هى انفعالية أو شعورية emotive ou affective ويركز على أهمية الصورة كعامل وحيد فى التفريق بين كلتا الوظيفتين حتى يصل إلى النتيجة التالية وهى إن وظيفة النثر إدراكية بينما وظيفة الشعر انفعالية تضمينية »[1] .

وتعد الصورة عماد الشعر الأول ، وليس الفرق بين النثر والشعر الوزن فقط ، بل إن الصورة الشعرية تعد من الفروق الجوهرية أيضا ، حتى أن الوزن والصورة هما العنصران المكونان للشعر ، واللذان يفضلانه عن النثر[2] .

ويرسم البستانى فى كتابة معادلة وهى

أن الشعر = النثر + أ + ب + ج

النثر = الشعر _ أ + ب + ج

والرموز أ ، ب ، ج هى ميزات خاصة تتميز بها اللغة الشعرية ، وهى الوزن والقافية والصورة الشعرية ، وعندما توجد الصورة يوجد بالضرورة الشعر ، وعندما يوجد الشعر تظهر تلقائيا الصور[3].

ولا يعد ما سبق قوله من نافلة القول ، ولكنه ضرورى فى تأكيد أهم ما يلحظ حول التصوير الفنى فى نثر ابن يوسف ، إنه قليل بل نادر ، لم يهتم به الكاتب ومع ذلك كان كلامه بليغا ، ومعانيه واضحة ، ووصل إلى أرقى مستويات التعبير الفنى مما دفعنا إلى الحديث عن دور الصورة فى الكتابة الفنية ، وأنه دور ثانوى ، ويبعد كثيرا عن دورها فى التجربة الشعرية .

وقد استمد الكاتب مصادر صوره من معين واحد وهو الاتجاه الثقافى ، الذى يجعل من الكاتب كاتبا ، وتدور جميعا فى تأكيد القيم والمبادئ والمعانى السامية ، التى أراد أن يؤكدها فى خليفته المأمون ، كما أنه هدف بها أيضا إلى تحطيم معنويات المعارضين الخارجين ، بمعنى انه حين يريد أن يكبر صورة البطل حتى تطغى على كل الحقائق والواقع فيتخيلها معبرة عن طريق التصوير ، وحين يريد أن يخسف بالعدو فيلجأ إلى التصوير ، الذى يتخطى

---

(١) Jean cohen: Stv :ture P. z04

(٢) Caillois ор. 109

(٣) سامين عساف ، الصورة الشعرية ص ٦٥

حدود الامكان والمعقول ، فقد استخدم التصوير الفنى فى الإعلاء والخسف ، وكأن ألفاظ اللغة وقفت عند حدودها لم تشفع فى إطلاق الهالة الحقيقية أو الهوة السحيقة حول من يحب أو يقاتل مستخدما فيها موسيقى التصوير ، وتزاوج الجمل ، وازدواجية العبارات ، فى حسن تنسيق ، فقرآن غدر ، محاسنهم مساوئ السفلة ، ومساويهم فضائح أمة ، وألسنتهم معقودة بالعىّ ، وأيديهم معقولة بالبخل ..

وتجنب الكاتب اتجاه التصوير الفنى فى مطولاته فى الديوانيات والتحميدات فقد عبَّر باللفظ البليغ ، والمفردة الفصيحة ، والفكر الثاقب الذهن المتوقد ، والفهم المتمكن ، لأصول صنعة الكتابة الفنية عن كل ما أراد التعبير عنه فى لغة تقريرية ، بعيدة عن الايماء والايحاء والتمثيل .

obeikandl.com

موسيقى الألفاظ
فى نثر أحمد بن يوسف

الأدب مادة وشكل ، روح وجسد ، مضمون وصياغة ، والنثر قسيم الشعر ، ويشترك معه فى بعض أساسيات جماليات الإبداع الأدبى ، ويفترق فى عدة مظاهر ، أو بالأصح فى مستوى تحقيق السمات وشيوعها ، أو منهاج التعامل معها ، ولا يستطيع باحث أن يدرس شعر شاعر دون أن يعرض لقدراته الصوتية ، ومظاهر الموسيقى ، ووظيفتها فى تحقيق الأداء الشعرى ، ومن الطبيعى ألا يغفل هذا الاتجاه فى دراسة النثر ، وإن اختلفت الوسائل وتعددت المناهج ، واتحدث الأهداف فى تحقيق توازن موسيقى ، يحقق للعمل الإبداعى قدرًا من التذوق فى أذن المتلقى .

وتميل هذه الدراسة إلى الجمع بين الإطارين اللذين يبديان وهما فى الحقيقة هنا إطار واحد ، وهما الموسيقى واللفظ ، فإن موسيقى النثر تعتمد على أعظم أحوالها على انتقاء اللفظ ، والتعامل معه ، وسياقه مع الخيط الفنى لتحقيق الأثر الصوتى المنشود .

وقد تكون مظاهر موسيقى النثر المظاهر التقليدية الساذجة المصطنعة والمتكلفة ، مهما كانت سماتها ، وقد تكون أعمق من هذه الدرجة وأقرب كثيرًا إلى الفنية التى تعتمد على القدرة فى التعامل مع موسيقى الألفاظ فى النثر الفنى .

ويتفق النقاد العرب على ضرورة الموسيقى فى النثر كما كانت فى الشعر ، والمعروف أن لسانهم وكلامهم يقع على فنين ، فن الشعر ،وفن النثر ، ويقول الثعالبى فى رسائله فاما الشعر فهو الكلام المُقَفَّى الموزون قصدًا على وجه كونه نظما ، وأما النثر فمنه المسجع الذى يؤتى به قطعا متساوية ، أو متفاوته ويلتزم فى كل كلمتين فأكثر منه قافية واحدة ، وقد يؤتى فى أربع فقر بقافيتين قافية للأول والثالث وقافية للثانى والرابع إلى غير ذلك من أنواعه ويسمى سجعا[1] .

ومنه المرسل وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقا ويقطع أجزاء لكن لا يقيد بقافية والمحمود فى هذا الزمان المرسل إذا اشتمل على قليل من السجع يأتى عفوًا[2] .

---

(١) الثعالبى ، رسائل الثعالبى بيروت صـ ١٤١ .

(٢) رسائل الثعالبى صـ ١٤٢ .

وتتحدد طبيعة التعامل مع الألفاظ لتحقيق الأثر الموسيقى المنشود ، حسب طبيعة الكاتب ودوره ، وقد قسم البطليوسى الكتاب إلى أصناف ، وكل صنف بطبيعة الحال له منهاجه فى التعامل مع الألفاظ ، ويقول إن « أصناف الكُتَّاب خمسة ، كاتب خط ، وكاتب لفظ ، وكاتب عقد ، وكاتب حُكْم ، وكاتب تدبير »[١] .

وقد نضع ابن يوسف فى كاتب الديوان أو كاتب الحُكْم ، ويشترط فيه كل ما يشترط فى أصناف الكُتاب حتى يستطيع أن يعبر عن واجبات الحُكم والسلطان .

ولم يصل أحمد بن يوسف إلى المرتبة التى وصل إليها إلا بقلمه وما قلمه إلا معبر لرأى الحاكم ، ورأى المتذوقين للأدب من حوله ، جمع له بين المادة والشكل ، وقد استعرض البحث فى مواضع كثيرة فنيات المادة فى نثريات ابن يوسف ، ويتعرض الآن لجماليات الشكل ، « وشرط الكتابة الفنية الأساسى أن تكون جملة الشكل ، والكتابة الفنية هى مادة ، هذا صحيح ، ولكنها مادة تتشكل ،أى تأخذ شكلاً ، ومن الأمور التى تحدد الاتحاد بين المادة والشكل ، وتلغى هذه الثنائية الموسيقى ، والموسيقى أرفع الفنون وأكثرها تعبيرًا عن المطلق ، لأن فيها يتحد الشكل بالمادة اتحادًا تاما »[٢] .

والفن الأدبى الراقى والأصيل هو الذى يقترب من الموسيقى ، وإبداع الشكل له قيمة أساسية جمالية فى الكتابة الفنية ، دون أن ينزع عنها بعدها الإنسانى والتاريخى والاجتماعى .

وقد تميل هذه الدراسة إلى النقاش النقدى حول بعض القضايا المتفق عليها ومحاولة تفنيدها فضلا عن الدرس التطبيقى للنص الأدبى .

وقد يتفق الكثيرون على ضرورة الموسيقى فى اللغة الشعرية ، وأنها هدف فى حد ذاتها أو غاية ، وليست واسطة لغاية أخرى ، وأن النثر تكون الموسيقى فيه ثانوية ، أو كمالية ، أو جمالية ، أو وسيلة لهدف ، أو واسطة لغاية ، وربما أتى هذا المفهوم نتيجة لشكل الفن الأدبى ، واختلافه فى الشعر عن النثر ، وكذلك طريقة التعبير ، وأدوات الأديب فى كلٍّ ، والهدف من الشعر يختلف عنه فى النثر ، وإن كان الطرفان وجهين لعملة واحدة ، وغايتهما فى نظرنا واحدة ، فى جمال الأداء وفنية التعبير .

وقد نختلف مع هذا المفهوم الذى يقلل أو يجعل الدور الموسيقى للغة النثر هامشيا أو ثانويا ، أو فى مرتبة أقل من دورها فى عالم الشعر ، وقد نجعل دور موسيقى اللفظ أو موسيقى النثر أساسا لفهم النص فهما جماليا ، وإضفاء سمة الفنية على تشكيله وحرص الفنان على مذهبه فى

---

(١) السيد البطليموس ، الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، دار الجيل بيروت ١٩٨٧ ، ص ٦٦ .

(٢) ساسين عساف ، الكتابة الفنية ، لبنان ١٩٨٥ صـ ٤٠

الصنعة والتصنيع بيد أن النثر الأدبى الذى لا يهتم بهذا الإيقاع الصوتى ، أو يجعله ثانويا هو التعبير العلمى الجاف الذى يبعد تمامًا عن النثر الأدبى .

وكلما كانت موسيقى النثر أبعد عن الاتجاهات الشكلية والمصادر التقليدية ، كان هذا دليلا على فنية العمل الأدبى وعبقرية الفنان ، وأساس هذا الايقاع الصوتى ، إنما هو فى بداية الأمر ، اللفظ ، المفردات ، الانتقاء ، السياق ، الفصاحة ، التركيب ، العبارة ،جمال النسق ، روعة الأداء ، مما يحدث فى النهاية ذلك الترنيم النغمى ، والإيقاع الصوتى الذى يظهر منهج التعامل مع مكونات النص ، ووحداته الأساسية وهى الألفاظ .

واللفظة وحدة لغوية مكونة من دال ومدلول ، الدال هو الشكل الصوتى ، والمدلول هو الفكرة التى تقترن بالدال ، وقد يزول « الدال فى الأسلوب المعيارى بعد أن يؤدى دوره ، أى بعد أن يقودنا إلى هدفه الرئيسى ، وهو المدلول المعجمى »[1] والنسق الصوتى غاية بذاته يشكل مع المدلول وحدة متناغمة ، والدارسة الأسلوبية محاولة لتحليل هذا النسق وإظهار دور الدلالات .

ومن المؤكد أن الشكل الصوتى للألفاظ لا يقل عن القدرة المعنوية أو الدلالية « ولا مجال للشك اليوم بما يمكن أن تضيفه الإشارات الصوتية على معنى النص »[2] .

ويُحبّذ الإيمان المطلق بمعادلات الأصوات ، والإقرار مسبقا بدلالات الأصوات ، وأن هذا الحرف يعبر عن معنى كذا دائما ، والحرف الآخر يعبر عن عاطفة خاصة مدلول معين دائما ، فالواقع أن الأمر ليس بهذه السهولة ، وإلا تحولت اللغة إلى معادلة يمكن لأى فرد تعلُّمها وإتقانها .

ويبدأ البحث فى عرض بعض النماذج من نثر ابن يوسف بحثا عن الإيقاع الصوتى أو مصادر التنغيم والهندسة الصوتية ، التى تحقق للنص سمات صوتية فنية تؤكد أن الكاتب فنانٌ واعٍ مقتدرٌ فى التعامل مع أدوات الإبداع الأدبى .

من كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين

(أ) – فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللُحمة
– فقد فرّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة .
– بمفارقته عصمة الدين .
– وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين[3] ...

---

(١) صبحى البستانى ، الصورة الشعرية صـ ٤٨ .

(٢) Fillidot et. pelas: Linguistique et poetiques. P. 122

(٣) زهر الآداب جـ ٢ صـ ٣٨ تاريخ الطبرى جـ ١٠ صـ ٣١٤ ،معجم الأدباء جـ ٥ ، ١٦٧ ، ص ٣١٦ .

– الحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه
والكائد له من خطر عهد ، ونقد عقده
(ب) حتى رد على به الألفه بعد فرقتها
وجمع به الأمة بعد شتاتها[1]

وفى بداية رسالة الخميس يقول أحمد بن يوسف :
الحمد لله القـادر القـاهر
الباعث الوارث
ذى العز والسلطان
(جـ) والنور والبرهان
فاطر السموات والأرض وما بينهما
والمتقـدم بالمـن والطول على أهلها

هذه بعض نماذج من مطولاته فى الديوانيات والتحميدات ،ونماذج أخرى من توقيعاته التى تتسم بالايجاز والتركيز

(أ) ما عند هذا فائـدة ولا عـائدة
ولا له عقل أصيل
ولا فعـل جميل

(ب) الحق واضح لمن طلبه تُهديه محجته
ولا تخاف عثرته
وتؤمن فى السر مغبته
فلا تتثقلَّن منـه
ولا تَعْدِلَنَّ عنـه
فقد بالغت فى مناصحتك
فلا تحوجنى إلى معاودتك
فليس بعـد التَّقدمة إليك
إلا سطوة الانكـار عليك

---

(١) الوزراء والكتاب صـ ١٨٥ .

(جـ) فى كتابه عن الإخاء

وليس ينبغى لك إلا أن تؤاخى إلا الكريم الأخوة

الكامل المروه

الذى إذا غبت خَلفَك

وإذا حضرتَ كنفك

إن لقى صديقك استزاد لك فى مودته

وإن لقى عدوك كف عنك من عاديته

إن رأيته ابتهجت

وإن أتيته استرحت[1] .

هذه نماذج لمقاطع غير متعمدة الاختيار ، أو مُعدّة للانتقاء ، وربما نطلق عليها العشوائية وهى غير ذلك ، لما تحمله العشوائية عن فوضى الاختيار ، وعفوية الانتقاء ولكنها أية مقاطع ، فكل نثره يسير على هذا النسق المتقن ، وهذا الاحكام فى البناء الصوتى .

ومال البحث إلى إثبات عدة مقاطع من مطولاته وأخرى من مقطعاته ، وربما يجد هناك فارقا أو ما يشبه الفارق ، ولكنه وبكل تأكيد منهج واحد فى التعامل واتحاد الانتقاء ، والمستوى الصوتى ، والتعبير النغمى الواحد ، الذى أكد للكاتب إحساسه بموسيقى اللفظ فى المرحلة الأولى ، وحيويتها فى التناسق فى المرحلة الثانية ، وتنغيم العبارة وترابطها مع ما يليها أو يسبقها فى المرحلة الأخيرة حتى يبدو العمل الفنى بناء هندسيا محكما ، يعجز الباحث عن التعليق عليه والبحث في مصادر الموسيقى الكامنة والظاهرة فيه ويكتفى بالنظر إليه وقراءته بهذا الشكل الشعرى ، أو بهذه الطريقة من الكتابة التى ارتضاها البحث وسيلة للوقوف والإعجاب بجمال التقسيم الصوتى ، والتنغيم الموسيقى فى كل آثار أحمد بن يوسف النثرية .

– أما عن اللفظة فى نثر ابن يوسف .

وقد تؤدى اللفظة فى الكتابة الفنية دورًا يختلف عنه فى اللغة الشعرية ، وهى فى الكتابة خاضعة لشرط المنطق العقلى ، وتبقى على مستوى حضورها المتوارث من معاجم اللغة فى أغلب الأحيان .

ونادرًا ما تتخطى اللفظة إدراكها الحسى المجرد وتتجاوز مستوى التعبير إلى مستوى الرمز ، « أو تتجاوز مستوى الادراك إلى مستوى التجريد ، وتتجاوز مستوى المحاكاة إلى مستوى

(١) اختيار المنظوم والمنثور جـ ١٣ ص ٤٠٨

الترميز »[1] .

وحقق الكتب فى مفرداته الأصالة ،التى استهدفت فنية الكتابة وإشراقية الكلمة مع كونها صورًا ذهنية مجردةً ، وحاوية زخمًا نفيسًا ناتجًا عن تجربة الإحساس والمعاناة وقد لا تساير فنية اللفظة فى اللغة الشعرية وسماتها الإيحائية أو الإيمائية قدر ما تؤكد لألفاظ النص فى نثر ابن يوسف الواقعية والدلالة المعجمية فى أغلب الأحيان ، وتفجيرها الطاقات الصوتية ، التى لا تنبعث من الوهم أو الخيال أو الخداع قدر مجيئها من عالم الأصالة الموروث ، مما يؤكد فارقًا عظيمًا فى التعامل مع اللفظة المفردة أو المجردة فى النثر الفنى عنها فى النظم الشعرى .

ونظرة سريعة إلى آخر النماذج المستشهد بها على جمال صوتيات نثر ابن يوسف يؤكد هذا القول ، فالمفردات ، الأخوة ، المروة ، المودة ، الابتهاج ، الاسترخاء لا تؤدى غير المتفق عليها فى معجمها ، ولا تنحرف معيارًا عن مدلولها التراثى ومع هذا أدت ما استهدفه الكاتب من تحقيق الجمال الصوتى ،فى ذلك الانتقاء والصفاء ، ثم الهندسة التركيبية أو التركيب الهندسى ، فى التجاور والترابط والتفاعل ، والتلاحم والبنية الصوتية المتماسكة ، فقد تعامل الكاتب الفنان مع اللغة من خلال عاملين ، عامل الانتقاء Selection وعامل المزج أو التركيب Conbinaison , وفقا لتقسيم جاكبسون Jakobson وقد أشار الجرجانى فى دلائل الإعجاز فى قوله :

« الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ،ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض »[2]

وجاءت ألفاظ ابن يوسف فى الضرب الأول من حيث الدلالة ، لا من حيث الموسيقى حيث بقيت المفردات فى نصه حبيسة المعانى والدلالات الحقيقية الاصطلاحية الواردة فى المعجم ، واقتصر دوره على تنظيم المفردات داخل العبادات حيث سعى الكاتب إلى الدلالة المنهجية نحو المعانى الاصطلاحية .

وربما أدى هذا المفهوم إلى تعليل غياب الصورة الفنية فى نثر ابن يوسف ، أو ندرة وجودها ، حين عدل عن التعبير المجازى للمفردة ، وتعامل مع المدلول المعجمى لها .

ويضفى هذا اهتمامًا من نوع خاص بالوقوف على معالم تفاعل اللفظة مع السياق ، ودورها فى النسق التعبيرى ،الذى يحقق الجمال الصوتى .

---

(١) ساسين عساف ، الصورة الشعرية ص ٤٢ .

(٢) دلائل الإعجاز صـ ٢٠٢ .

ويسجل الباحث فى هذا الأمر تجنب الكاتب لوسائل التنغيم الصوتى فى النص النثرى المألوفة والمعروفة كالسجع على سبيل المثال ، مما يدفع الباحث إلى التعرف على كُنه أسرار جمال التوافق الصوتى ، الذى يبدو فى التعامل الفنى فى التركيب ويؤكد النظر إلى النماذج المستشهد بها أو الإطلاع على مقاطع نثر ابن يوسف جميعها ، وكتابتها بالطريقة السابقة ، ثم النظر إليها حيث المزاوجة والازدواج ، والتوازن والتوازى ، والتآلف بين الجمل والعبارات فى هندسة لا يخطئها الكاتب الفنان أحمد بن يوسف .

وتتسم ألفاظه بالفصاحة حسب تعبير القدماء ، فى كونها مألوفة الاستعمال غير متنافرة ، تنطبق عليها الأقيسة النحوية والصرفية ، كما تتسم ألفاظه أيضا بخلوها من المشترك اللفظى أو المشترك المعنوى ، أو بما يعرف بالاتساع فى الدلالة المعجمية .

وقد يعرف الاشتراك بما يكون فى « اللفظ الواحد الذى يطلق على موجودات مختلفة بالحد والحقيقة إطلاقا متساويا ، كالعين تطلق على العين الباصرة ، وينبوع الماء ، وقرص الشمس وهذه مختلفة الحدود والحقائق »[1] .

ولا يعد السجع مصدر الموسيقى النثرية فى نصوص ابن يوسف ، فإنه يغيب طويلا ، ولا يظهر إلا قليلا وأن يكون عفوًا ولا يؤثر على معنى ولكنه يرتبط بتبادلية الازدواج ، وتناسق الهندسة التركيبية للعبارت المتتالية التى تتفق الأولى مع الثالثة والثانية مع الرابعة ، فى أغلب تراكيب ابن يوسف الصوتية .

وقد يرى بعض النقد القدامى « لا عيب فى السجع »[2] .

فكما لا يقدح فى النظم تكلف الوزن والقافية ، كذلك لا يقدح فى النثر تكلف السجع وقد يطلق على بعض حالات السجع القليلة فى موسيقى النص الأدبى لابن يوسف السجع المنقاد « لأنه ينقاد طوعا ، ويأتى قبل أن يُستدعى ويستجلب » .

وكان الكاتب يجتهد فى تجريد الألفاظ ، وصحة المعانى ، وإن جاء السجع فى كلامه عفوا على غير مقصد ، فلم يجعل كلامه مبنيا على السجع « وتظهر فيه الكلفة ، ويتبين فيه أثر المشقة ، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ السافل ، وربما استدعيت كلمة رغبة فى السجع فجاءت نافرة من أخواتها ، قلقة فى مكانها »[3] .

(١) الغزالى ، معيار العلم فى فن المنطق ، دار الأندلس بيروت صـ ٥٢ .
(٢) الكلاعى : أحكام صنعة الكلام . ص ٢٨٨ .
(٣) الثعالبى ، الفوائد ، دار البيان بغداد ص ١٤٢ .

ويحتاج نثر ابن يوسف إلى دراسة صوتية متخصصة ، لا تضع عينها على غير مصادر موسيقى الأصوات وتقسيمها إلى مستويات صوتية معينة ، تتألف من المصوتات والصوامت ، وبيان صفات المصوتات من اللين ، والفخامة ، والرقة ، والطول ، والقصر والتعرف على ميزات الصوامت فىالجهر والهمس ، والشدة والرخاوة ، والإطباق والانفتاح والصفير .

ومن المؤكد أن الصفات الخاصة للصوتيات ، والقيمة الصوتية للنص الأدبى لا تأتى من الصامت المفرد ، وإنما من علاقاته مع الأصوات المجاورة ، مما يجدر ألا يجوز النظر إلى دراسة المستوى الصوتى للنص الأدبى إلى المفردات ووحداتها الصوتية منفردة ، وإنما إلى علاقتها مع بعضها البعض .

ومن المسلم أيضا أن الواقع الموسيقى لنثر الكتب لا يأتى .. إلا من اندماج مكوناته اللفظية واندماجها مع الآخرى .

وقد تؤثر الصوامت على زيادة الحركة الموسيقية السريعة داخل النص ، وبقدر وجود المصوتات تخف هذه السرعة وتستبدل بالجمود .

وإن صعوبة التعامل مع الدرس الصوتى لنثر ابن يوسف يجعل من هذه الدعوة إلى المحاولة والاسهام فى الكشف عن أسرار البناء الصوتى التى استهدفت الجمال فكان حقيقة تضفى على فن الكاتب وعبقريته فى مناشدة موسيقى النص .

ولا نعنى أن المستوى ينفصل عن بقية المستويات ، فالنص الأدبى وحدة متماسكة ، والدرس الصوتى يكشف مدى إسهام البنية الايقاعية فى تشكيل جمالية النص .

القسم الثالث

آثار أحمد بن يوسف النثرية، ومصادرها

obeikandl.com

الأثـــر	المصـــدر
١ – كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين	زهر الآداب ٣٨/٢
	تاريخ الطبرى ٢١٤/١٠
	معجم الأدباء ١٦٧/٥
	كتاب الوزراء والكتاب ٣٨٥
٢ – رسالة الخميس	المنظوم والمنثور ١٧٣/١٢
	جمهرة رسائل العرب ٣١٧/٣
٣ – تحميد إلى الولاة عن الخليفة	اختيار المنظوم والمنثور ١٦٩/١٣
٤ – تحميد عن ذى الرياستين	اختيار المنظوم والمنثور ٢٨٤/١٣
٥ – تحميد فى فتح السند	اختيار المنظوم والمنثور ٢٨٣/١٣
٦ – رسالة الشكر	اختيار المنظوم والمنثور ١٦٦/١٢
	جمهرة رسائل العرب ٣٤٥/٣
٧ – كتاب إلى المأمون حين كثر الطلاب للصلات ببابه	زهر الآداب ٣٩/٢
	معجم الأدباء ١٦٩/٥
	نهاية الأرب ٢٦٠/٧
٨ – كتاب إلى المأمون فى يوم نوروز	زهر الآداب ٤٠/٢
	صبح الأعشى ٤٢٠/٢
٩ – كتاب إلى المأمون فى يوم نوروز	معجم الأدباء ١٧٢/٥
	الفخرى ٢٠٦
	الأوراق ٢١٢/١
١٠ – رواية أخرى للصولى	الأوراق ٢١٦/١
١١ – كتابه إلى إبراهيم بن المهدى	زهر الآداب ٤٠/٢
	العقد الفريد ٣٠٨/٣
١٢ – كتابه إلى إبراهيم بن المهدى	اختيار المنظومة والمنثور ٢٦٠/١٢
١٣ – كتاب له عن المأمون	كتاب بغداد ٢٣٧/٦
	زهر الآداب ٤٠/٢
	الصناعتين ٢٢
	الأوراق ٢٣١/١
١٤ – كتابه إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له	اختيار المنظوم والمنثور ٣٠٣/١٣

الأثـــر	المصـــدر
١٥ – كتاب آخر فى مولود	اختيار المنظور والمنثور ٣٠٤/١٣
١٦ – كتاب آخر فى مولود	اختيار المنظوم والمنثور ٣٠٤/١٣
١٧ – كتاب آخر فى مولود	اختيار المنظوم والمنثور ٣٠٣/١٣
١٨ – كتابه فى تهنئته بإغداق	العقد الفريد ١٩٨/٢
كتابه فى مرض	
١٩ – كتاب له	اختيار المنظوم ٢٦٠/١٢
٢٠ – كتابه إلى بعض أخلافه	الأوراق ٢٣٤/١
٢١ – كتاب له	الأوراق ٢٣٥/١
٢٢ – ومن كلامه	الأوراق ٢٣٢/١
٢٣ – ومن كلامه	الأوراق ٢٣٣/١
٢٤ – ومن كلامه	الأوراق ٢٣٣/١
٢٥ – كتاب له فى الاعتذار	الأوراق ٢٣٣/١
٢٦ – ومن كلامه	الأوراق ٢٣٤/١
٢٧ – كتاب إلى بنى سعيد بن مسلم	زهر الآداب ٤٠/٢
	اختيار المنظور المنثور ٤٢٠/١٣
٢٨ – كتاب له	الأوراق ٢٣٢/١
٢٩ – رواية أخرى	الأوراق ١٩٧/١
٣٠ – كتاب له فى العدل والانصاف	اختيار المنظوم ٣٥٩/١٣
٣١ – كتابه فى إنصاف قوم تظلموا	اختيار المنظوم ٣٥٩/١٣
٣٢ – كتاب له فى السلامه	اختيار المنظوم ٣٧٨/٣٦٨/١٣
٣٣ – كتاب له فى السلام	اختيار المنظوم ٣٦٨/٣
	اختيار المنظوم ٣٧٤/٣
	اختيا ِ المنظوم ٣٧٨/٣
٣٤ – فصل له فى السلامة	اختيار المنظوم ١٣/ ٣٧٤
٣٥ – فصل له فى الشكر	اختيار ٣٨٠/١٣
٣٦ – فصل له فى الشكر	اختيار ٣٨٢/١٣
٣٧ – كتاب له فى الشكر	اختيار ٣٨٣/١٣
٣٨ – كتاب له فى الاعتذار	اختيار ٣٨٥/١٣
٣٩ – كتاب آخر فى الاعتذار	اختيار ٣٩٠/١٣

الأثـــر	المصـــدر
٤٠ – كتاب آخر	اختيار ١٣/٣٩٠
٤١ – كتاب آخر	اختيار ١٣/٣٩٠
٤٢ – كتاب له فى حاجة	اختيار ١٣/٣٩١
٤٣ – كتاب له فى الشوق	اختيار ١٣/٣٩٦
٤٤ – فصل له فى الإخاء	اختيار ١٣/٤٠٨
٤٥ – كتاب له فى العتاب	العقد الفريد ٢/١٩٣
٤٦ – كتاب فى العتاب	العقد الفريد ٢/١٩٣
٤٧ – كتاب له فى الذم	العقد الفريد ٢/١٩٦
٤٨ – كتاب له فى الذم	اختيار ١٣/٤٢٠
٤٩ – قال أحمد بن يوسف	تاريخ الطبرى ١٠/٢٥٨ تاريخ الكامل ٦/١٢٤ مقدمة ابن خلدون ٣٣٩ كتاب بغداد ٦/٣٦
٥٠ – كتاب أحمد بن يوسف : لعبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه	كتاب بغداد ٦/١٣٤ المنظوم والمنثور ١٣/٣٢٦
٥١ – كتاب أحمد بن يوسف : لعبد الله ابن طاهر	كتاب بغداد ٦/١٥٠ تاريخ الطبرى ١/٢٧٨
٥٢ – ووقع إلى عامل ظالم	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٥
٥٣ – ووقع فى كتاب رجل يحثه على استتمام صنائعه عنده	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٥
٥٤ – ووقع فى عناية بإنسان إلى بعض العمال	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٥
٥٥ – ووقع إلى رجل عصب رجلاً على صنعة	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٦
٥٦ – ومن توقيعاته	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٦
٥٧ – ووقع إلى رجل قد آخر حمل مال .	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٦
٥٨ – وقع إلى رجل إستماحه	جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٦

١ – كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين

وكان أول ما ارتفع به أحمد[١] بن يوسف الكاتب ، أنه لما قُتل الأمين أمر طاهر بن الحسين الكُتَّابَ أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصَرَ من هذا ، فوُصِف له أحمد ابن يوسف وموضِعُه من البلاغة فأحضرَه لذلك [٢] فكتب :

« أما بعد . فإن المخلوع وَإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين فى النَّسب واللُّحْمَة[٣]، فقد فرَّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة ، بمفارَقته عِصْمَة الدين ، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عزَّ وجل فيما اقتصَّ علينا من نبإ نوح وابنه ﴿يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ ولاصلةَ لأحدٍ فى معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قَتَل الله المخلوعَ ورَدَّاه رِداءَ نكثِهِ[٤] ، وَأَحْصَدَ[٥] لأمير

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بنى عجل بن لجيم بالكوفة ، استوزره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد الأحول وتوفى سنة ٢١٣ – انظر ترجمته فى الفخرى ص ٢٠٦ والأغانى ج ٢٠ : ص ٥٦ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥ : ٢١٦ وغرر الخصائص الواضحة ص ١٠٩ ومعجم الأدباء ٥ :١٦١ وكتاب الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ١٤٣ وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ :٢٣٤ .

(٢) هذه رواية زهر الآداب ، ومنها ترى أن هذا الكتاب كتب فى بغداد ، وروى أنه كتب بمرو . روى الطبرى قال : « لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون ، بكى ذو الرياستين وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ، فقال له المأمون : قد مضى مامضى فاحتل فى الاعتذار منه ، فكتب الناس فأطالوا ، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه « أما بعد .. » وكذلك روى الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب قال : « ولما قتل طاهر محمدا المخلوع أنفذ رأسه إلى المأمون ، فقال الفضل بن سهل : ما فعل بنا طاهر إسل علينا سيوف الناس .. إلخ ثم قال : وأمر المأمون الفضل أن ينشئ كتابا عن طاهر يخبره ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف ..

وروى ياقوت فى معجم الأدباء الخبرين ، وقال بعد أن أورد الأول : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه ، ثم أورد الثانى فقال : « وقيل إن المأمون لما حمل رأس المخلوع إليه وهو بمرو ، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر بن الحسين ، ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الرياستين رجع نظره فيها ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانه وأخذ القلم والقرطاس وأقبل يكتب بما يفرغ له من المنازل ، ويعد له فيها من الفرش والآلات والكسوة والكراع وغير ذلك ، ثم طرح الرقعة إلى أحمد بن يوسف وقال له : إذا كان فى غد فاقعد فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق » .

(٣) اللحمة : القرابة .

(٤) نكث العهد : نقضه .

(٥) من أحصد الحبل : إذا احكم فتله .

المؤمنين أمرَه ، وأَنْجَزَ له ما كان ينتظر من سابق وعده ، فالأَرْضُ بأكنافها [1] أَوْطأُ مِهادٍ لطاعَتِه ، وأتبعُ شيء لمشيئتِهِ ، وقد وجَّهْتُ إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهي البُرْدَة والقَضِيب .

وَالحمد للهِ الراجعِ إلى أمير المؤمنين معلومَ حقه[2] والكائدِ له مِن خَتَر[3] عهدَه ونَقَض عَقْده ، حتى رَدَّ به الأُلفةَ بعد فُرْقتها ، وجمَعَ به الأمة بعد شَتاتها ، وأحيا به أعلامَ الدين بعد دُرُوسِها[4]، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٨ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٤ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٧ وكتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨٥) .

٢ – رسالة الخميس لأحمد بن يوسف

ومن رسائِل أحمد بن يوسف رسالة الخميس[5] التى كتبها للمأمون وكانت تقرأ بخُراسان على شِيعة بنى العباس ، وهى :

---

(١) الأكناف : جمع كنف بالتحريك ، وهو الناحية .

(٢) الراجع هنا من رجع المتعدى ومفعوله « معلوم » .

(٣) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر ، وفى المنظوم والمنثور « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده .. » .

(٤) أى امحائها ، وفى زهر الآداب تكرير الحمد فى آخر الكتاب ، قال « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين » .

(٥) رسالة الخميس: هى رسالة كان يكتبها أبلغ كاتب فى الدولة، فى عهد كل خليفة من أوائل الخلفاء العباسين ، فى تأييد الدعوة العباسية عامة، وأن أولى الناس بولاية خلافة رسول الله ﷺ بنو العباس عمه ووارثه من بعده ، وفى تأييد الخليفة الحاضر خاصة، والإشادة بذكره، وتعداد مناقبه ومآثره وأنه أولى أهل بيته بالخلافة، وكانوا يبعثون بهذه الرسالة إلى خراسان فتتلى على أهلها ، ويحشدونهم لسماعها ، تفخيما لشأن الخليفة لديهم ، وتجديدا لولائهم لبنى العباس واستدامتهم على التشيع لهم ، وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ص ١٧١ « أن لعمارة بن حمزة كاتب المنصور ومولاه رسائل مجموعة من جملتها رسالة الخميس التى تقرأ لبنى العباس » والظاهر أن رسالة عمارة هى أولى رسائل الخميس، حتى كانت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وكان أحمد بن يوسف فى خراسان فى ديوان الفضل بن سهل ، فعمل رسالة الخميس للدعاية للدولة العباسية وللمأمون ، وللاحتجاج له عن قتل أخية ، وقد جاء فى الفهرست لابن النديم ص١٨٣: «الكتب المجمع على جودتها . عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » ولما ثار العباسيون ببغداد على المأمون ، ونصبوا عمه إبراهيم بن المهدى خليفة مكانه–كما سيأتى–عمل إبراهيم لنفسه رسالة خميس – وكان غزير الأدب وافر الفضل ، لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أحسن منه شعرا – إلى أن كانت خلافة المتوكل فعمل له إبرهيم بن العباس رسالة للخميس ، وقد ذكر ابن طيفور فى المنظوم والمنثور صدر رسالتى إبرهيم بن المهدى وإبرهيم بن العباس ، وسيردان عليك بعد ، ولم يحدثنا التاريخ أنه عملت رسائل للخميس بعد ذلك ، وسبب انقطاعها ما كان من غلبة الترك على الخلفاء ، ثم استيلاء الديلم على بغداد ، وانهيار بنيان وحدة الدولة وتشعبها إلى دول مستقلة فى المشرق والمغرب

« من عبد الله الإمام[1] المأمونِ أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق ، والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام ..

سلامٌ عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وَيسأله أن يصلِّىَ على محمد عبدِه وَرسوله ، أما بعدُ : فالحمد لله القادر القاهر ، الباعِثِ الوَارِث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبُرْهان ، (فاطِرِ[2] السموَات وَالأرضِ) وما بينهما ، والمتقدِّم بالمَنِّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لَمثُوبَته بالمحافظة على شرَائع طاعته ، الذى جعل ما أودَعَ عبادَه من نعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب التى يفهمون بها فَصْلَ الخطاب ، حتى أُقيموا على موارد الاختبار ، وتعقَّبُوا مصادِرَ الاعتبار ، وحَكَموا على ما بَطَنَ بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حَضَر ، واستدُّلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتقَنِ صَنعته ، وحاجة مُتَزايِلِ[3] خَلْقِه ومُتَواصِله إلى القَوْم[4] بما يَلُمُّه ويُصْلِحه ، على أن له بارئاً هو أنشأه وابتدأه ويَسَّرَ بعضَه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يُباشِرُون مِن أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفُنون انتقالهم ، وما تَظْهرون عليه من العَجْز عن التأتِّى[5] لَمِا تكامَلَت به قُواهم ، وتمَّتْ به أدواتُهم ، مع أثر تدبير الله عز وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخِلقة المحْكمَة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يتيممَّونه ، ولا مقصِدٌ يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذِكْره ﴿يأَيُّهَا الإنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِكَ الْكَرِيم . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أىِّ صُورةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ثم ما يتفكَّرون فيه مِن خَلْق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخَّراتٍ ، على مَسيرٍ (لاَ يثبُتُ العالَمُ إلا به) : من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسل ، وإحياءُ الأرض ، ولقِاحُ النبات والأشجار ، وتعاوُرُ[6] الليل والنهار ، ومَرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقاتُ ، ثم مايوجد من دلائل التركيب فى طَبقَات السَّقْف المرفوع ، والمِهادِ الموضوع ، (باختلاف) أجزائه والتئامها ، وخَرْقِ الأنهار ، وإرْساء الجبال ،

---

(١) كان الأمين قد نهى عن الدعاء على المنابر فى عمله كله للمأمون ، وأمر بالدعاء له عليها ، ثم من بعده لابنه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير وسماه الناطق بالحق ، وذلك سنة ١٩٥ ، فبلغ ذلك المأمون فتسمى بإمام الهدى وكوتب بذلك — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٩ .

(٢) فاطر : خالق

(٣) المتزايل : المتفرق .

(٤) القوم : القيام .

(٥) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٦) التعاور : التداول .

ومن البيان الشاهِدِ على ما أخبر اللهُ عزّ وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أن لم يكن ، مترقّيا فى النمّاء ، وثباتِه إلى أجَله فى البقاء ، ثم مَحَارِه[1] مُنقِضيًا إلى غاية الفناء ، ولو لم يكن له مُفتَتَحُ عَدَد ، ولامُنقطع أَمَد ، ما ازداد بنُشُوء ، ولا تَحَيفَّه[2] [نُقْصَانٌ] ولا تفاوُتٌ على الأزمان ، ثم مايوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضِه لبعض ، وقِوَامِ كل شىء منه بما يُسِّرَ له ، فى بدء استمداده ، إلى منتهى نفَادِه ، كما احتج الله عز وجل على خلقه فقال : ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ وقال عزّ وجلّ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَل وَالإِكْرَام﴾ وكلُّ ماتقدَّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سَمواته التى بَنَى ، وأطباقِ الأرض التى دَحَا [3] ، وآثار صُنعه فيما بَرَأَ وذَرأ[4] ثابتٌ فى فِطَر العقول ، حتى يَستَجرَّ أُولِى الزَّيْغ ما يُدْخِلُون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد ، جَلَّ عما يُشْرِكون ، ولولا توحُّدُه بالتدبير عن كل مُعِين وظَهِير[5] ، لكان الشركاءُ جُدَرَاءَ أن تَختَلِف بهم إرادتُهم [فيما يخلُقون]ولم يكن التخلُّف فيه من إثباته وإزَالته ليخلُوَ من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجزُ والنقصُ مما أتاهُ وبَرَأه ، جَلَّ البديعُ خالقُ الخلق ومالكُ الأمر عن ذلك ، وتعالَى عُلُوًّا كبيرا ، كما قال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كانَ مَعَهُ مِنْ إله إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون﴾ ثم من عظيم نعمة الله عزّ وجل على خلقه افتقادُه[6] إياهم ، ثم يسدِّدهم وَيدُلُّهم على منافعهم ، ويجنِّبُهم مضارَّهم ، وَيهَديهم لما فيه صلاحهم ، ويرغِّبهم فى المحافظة على التمسُّك بدين الله عزّوجل الذى جعله عِصْمَةً لهم ، وحاجِزًا بينهم .

ولولا ما تقدَّم به من تَلافِيهم[7] واستدراكهم بفضل رحمته لأجْتاحهم[8] التَّلَفُ لِقُصُورمعرفتهم عن التأتِّى لأقواتهم ومَعايشهم ، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بُنُوا عليه من الجَمْع والرغبة ، ولَتَهالكُوا بِبغْىِ بعضهم على بعض ، وعُدْوان قويِّهم على ضعيفهم ، ولكنه

---

(١) المحار : الرجوع وفى الأصل « بحاره » .
(٢) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف ، كعنب جمع حيفة بالكسر : وهى الناحية .
(٣) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاها دحوا : بسطها .
(٤) برأ الله الخلق وذرأهم (كجعل فيهما) : خلقهم .
(٥) الظهير : المعين
(٦) أى تفقده ، وفى الأصل « سعاوه » .
(٧) فى الأصل « تلافهم » .
(٨) أى أهلكهم واستأصلهم .

بعد تعريفه إياهم مُلْكَ قدرته ، وجلالةَ عِزَّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسُلَه مبشِّرين ومنذرين بالآيات التى لا تنالها أيدى المخلوقين ، فرَضُوا بما قَسَطَ بينهم ، وارتدعوا عن التباغى والتظالُم ، لِمَا وُعدوا من الثواب الجسيم ، وخُوِّفوا من العقاب الأليم ، ولم يكونوا لِيُطِيعوا أمرا لآمِر ، ولانَهياً لِناهٍ ، إلاّ بحُجَّة يتبيَّن بها [الحقُّ] لِمَن خالَفه من المُبْطلين ، وتخويفٍ يتَّقُون به مُقارَفةَ[1] ماحُزِّ [م عليهم] ، ورجاءٍ يتجشمون له مَئونةَ ماتَعَبَّدُوا به ، فافتتح الله عزّ وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام ، فعلَّمه الأسماءَ كلَّها ، وأمر الملائكة بالسجود له كما اقتص فى وَحْيه المنزَل — وكرَّم ولده وفضَّلهم ، فقال جلَّ وعزّ : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمِنْ خَلَقْنَا تَفْضِلاً » وجعل مافَطَرهم عليه من العطف على ذَرَارِيِّهم وأبنائهم سببًا لَمَا أراد من بقائهم وتناسُلِهم ، وما اختصَّهم به من العلم والفهم حُجَّةً عليهم ، ليمتحنَ طاعتهم ، ويَبْلُوَهم[2] أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

ولم تَزَلْ رسُل الله عز وجل إلى خلقه تَتْرَى[3] بالنور الساطع ، والبُرهان القاطع ، لا يجدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مَرَدًّا ولا مَدْفَعا ، لقول الله عزّ وجل : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » فلم يجد المكذِّبون مَسَاغًا[4] إلى دفع ما أقيم عليهم من لازِمِ الحجة إلا المعاندةَ والمجاحَدةَ ، وكان أنبياءُ الله صلوات الله عليهم يُبعثون فى أعصار الحِقَب[5] نُذُرًا للأمَم ، حتَّى ختَمَهُمُ الله عز وجل بالنبِّى الأُمِّىّ محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعثه فَرْدًا وحيدًا لا عاضِدَ له ولا رافِدَ[6] إلى قوم يعبدون أصنامًا بُكْمًا ، وحِجَارةً صُمًّا ، فكذَّب به القومُ الذين بُعِث فيهم أولَ مادعاهم ، ورامَهُ ملوكُ أقطار البلاد بتوجيه الأجناد ، ومُرافَدة القوة والعَتَاد[7] وبُغِيَ الغوائلَ ، ونُصبت له الحبائِلُ ، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به إذ يقول تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ثم جَاهَدَ بمن أطاعه مَن عصاه ، وبمن اتَّبعه مَن خالَفه ، حتى أعزّ الله كلمتَه ، وأظهر دعوتَهُ ، وأكملَ لعباده دينَهم الذى ارتضى لهم ، فلما اختار الله له ما لديه ، واختصَّه بما عنده ، من النعيم المقيم ، والجزاء

---

(١) قارف الذنب : اقترفه وأتاه .

(٢) أى يختبرهم .

(٣) يقال : جاءوا تترى وينون ، وأصله وترى : أى متواترين متتابعين .

(٤) أى مدخلا وطريقا .

(٥) الحقب جمع حقبة بالكسر ، والحقبة من الدهر : مدة لا وقت لها .

(٦) الرافد : المعين الواصل .

(٧) العتاد : العدة .

الكريم ، بعد استقامة الدين ودخول الناس فيهِ أفواجا[1] ، خَلَفَهَ – إذ ختَم به الأنبياءَ – بالبَرَرَة النجباء من أدانِيهِ ولحمتِه[2] لإقامة الشرائع المفترضَة ، وإنفاذ حُكْم الله المنزَّل ، واقتفاءِ السُّنّة المأثــورة ، وحِفظا له فى قرابته ، ومُجيبى دعوته وإتماما لَما أوجب له من الفضيلة ، وقريب الوسيلة ، وإنجازًا لِما وعده من إظهار ما بَعَثَه به ، من دينه الذى اصطفاه وارتضاه .

وكان اختيارُ أولى الفضل من لحمته وَعَصَبَته لإرْثِ خِلافته ، مِن عظيم الزُّلَف[3] التى رَغِب إلى الله فيها أنبياؤه ، فيما اقتَصَّ فى مُنْزَل وَحْيه[4] واختصَّ تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما أمَرَه به من مسألةِ أمَّتِه تصييرَ مَوَدَّتِه فى القُرْبى ، جَزاءَه مَّمِن تَبعهُ على الرسالة ، وهَداه من الضلالة ، فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وَجل ، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألزمَه تأديتهَ إلى خلقه . وألزمهم أداءَهُ ، فقال عز وجل : ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى﴾ ودلَّ بما أخبَر به وأظهَرَه من تطهيره إياهم ، وإذهابه الرِّجْسَ[5] عنهم ، على اصطفائه لهم ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وكان مما أوجب لهم به حقَّ الوراثة فى مُحْكَم تنزيله قولُه تعالى ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ﴾ ثم قَرَن طاعتَهم بطاعته فقال : ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وأَحَلَّهُمْ من النَّباهة والصِّيت ، بالمحلِّ الذى أعْلَى به أمْرَهم ، ورَفَعَ به ذِكْرَهم ، لِمَا أحبَّ من التبيين فى الدلالة عليهم ، والهداية إليهم ، فإنه يقول عزّ وجل : ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ، ولو كان الأئمة المقلَّدون أمرَ عبادِه خاملةً أنسابُهم ، منقطعة أسبابهم غيرَ مخصوصين بفضيلةٍ يَرَونهم بها دون غيرهِمْ لم تَعْدُ طَلِبتُهم وعَقْدُ الخلافةِ لهم ، أن تكون من مفترَضاته على كافَّة الأمة ، أو على بعض دون بعض ، فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم ، فليس فى اجتماع آرائهم مع تفرُّقهم واختلافِهم طمَعٌ آخِرَ أيامِ الدهر ، وَإن كان إلى خاصَّة دون عامّة ، فستحتاجُ العامَّةُ مِنْ طَلَب معرفةِ تلك الحال ، إلى مِثلِ مَا احتاجوا إليه فى أئمتهم إذ لم يكن

(١) الأفواج جمع فوج بالفتح : وهو الجماعة .
(٢) اللحمة : القرابة .
(٣) الزلف جمع زلفة بالضم : وهى القربة، وفى الأصل «ومن عظيم الزلف» وفيه أيضا «وبما اقتص» وهو تحريف.
(٤) يشير إلى قول زكريا عليه السلام « فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » .
(٥) الرجس : القذر ، والمأثم .

أهلُ الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ، لِيتواطئُوا على اتفاق ، لِنَفادِ آجالهم قبل بلوغهم غايةَ الاجتهاد فى الفَحْص والتكشيف ، وحاجَتهم إلى اختيار البُلْدَان ، وتمحيصِ أُولى الفضائل بالامتحان ، وَمَا [هو] خافٍ عليهم من الشُّبَه فى اختيارهم ، والاختلافِ فيمن عَسَوا أن يَجتْبُوه[1] ويقدِّموه ، حتى تتهالَكَ الرعيةُ ، بتَظالُمِها بينها ، وَبِطَرْق مَن يَليها من الأمم إياها إذ لا ذائِدَ عنها ولا مُحَامِيَ ، فإذا أَلزمَتِ الأمةَ الحاجةُ إلى نَصْبِ الْحُكَّام لإقامة الدين ، وتقسيطِ الحقوقِ بين المسلمين ، وَمجاهدةِ عدوِّهم من المشركين ، لم يكُن لهم فى الإمامة عليهم مجازٌ إلى التخلص إليهم ، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولُطفه وحكمه ، فى دَفعِه عن عباده ما لم يجعل فى حياتهم له وُسْعا ، ولا فى حياتهم له دَرْكا ، وكفايته إياهم ما يُعْجِزُهم منَ البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم ، بنَصْبِهِ إياهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة التى أعلاها واسناها[2] ، إذ وَصَل نسَبَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترضَ مودتهم على خلقه ، ولم يَشْنِهُم[3] جهلهم للغرض الذى أَلزمهم له ، ولم يجب عليهم فرضٌ فى معرفة من سواهم ، ولم يزلْ سِياقُ أئمة الهدى مُطَّردا ، ونظامُهم متَّصلا ، يتلقاه كابِرٌ عن كابر ، ويؤديه أوَّلٌ إلى آخر ، حتى تناهَى إلى أمير المؤمنين ، وهو حالٌّ دارَ دَعوته ، وبين أنصاره مِن أهل خُراسان ، فنظرَ به خيرَهم ، وعرَفوا ما تصرَّفَتْ به أحوالهم ، وظهر لهم مِن بيان حُجَّته على نَازَعهُ فى الأمر ، وشاهَدوا من إبلاغه فى العُذْر ، واستظهارِه بالتأنِّى والصبر ، ما أزاحَ عنهم الشُّبْهةَ ، وكَشَط[4] الْحَيْرَةَ ، حتى استرائوا[5] نهوضَه بحقه ، وخافوا الزَّيغَ على أديانِهم فيما أعطوه من صَفْقَةِ أيمانهم ، وهو ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للمُوادَعة ، متلوِّم[6] على المراجَعَة ، بالغٌ غايةَ ما وَسِعَه من الرُّخصة فى دفع الولاية التى نَهْنَه[7] بها الرعيةَ ، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيامِ بما أنهضه اللهُ بـه من ثِقْلها ، وقلَّدَه مِن حِمْلها ، وخان المخلوعُ فابتغاه بالشَّرَّةِ والعِزَّة ، فتناول أولياءَ الحق باغيًا طاغيًا ، لِما أراد الله من تأييدهم[8] عليه بالبيان والْحُجَّة

---

(١) اجتباه : اختاره .
(٢) أى رفعها وأعلاها .
(٣) فى الأصل « يسفهم » وربما كان « يسفههم » .
(٤) أى كشف ، وبابه ضرب .
(٥) استرائه : استبطأه ، وفى الأصل « استزادوا » وهو تحريف .
(٦) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر .
(٧) نهنهه : كفه وزجره .
(٨) فى الأصل « ناديهم » .

التى وجبَ[1] لها قلبُه ، وفُتَّ بها فى عَضُده[2] ، وقَبِل الله ما أيّدكم به[3] من النصر والغلبة فيه التى جعلها الله للمُتَّقين فاجتمع لكم معشر أهل خرسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاثُ خِلال اختصّكم الله بفضيلتها ، وسَنِىٍّ[4] مراتبها ، دون ثلاثٍ شَمَلتْكم وغيرَكم : أمَّا الأولى من اللواتى خصّكم الله بهن ، فما تقدَّم لأسلافكم من نُصْرة أهل بيت (النبى) وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين . وأمَّا الثانيةُ فما آثَرَكم الله به من نُصْرَته فى دعوته الثانية . وأما الثالثة فما تقدَّمتم به من صحة ضمائركم ، ومَحْضِ[5] مناصحتكم . وأما الثلاث اللواتى هن لكم ولغيركم :

فمنهن : ما أكَّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين ، من العهد الذى أخذ إصْرَه[6] ، وألْهَمَهم الوفاءَ به ، والتمسُّكَ بوثائق عِصْمته ، عند محاولة المخلوع ما حاول من الإعلان بالرِّدَّة ، والتَمسَ من تبديل مَعَالِمِ الدين وتَعْفِيَه آثاره ، فلم يُلْفِ الرَّعيةَ سُدى مهمَلين ،لا جامعَ لأمرهم ، ولا ضَامَّ لنَشْرهم .

ومنهُن : ما أفادكم الله وإياهم من العِبر ، عند حلول الغِيَر[7] ، بمن غَدَر وختَر[8] ، تذكِرَةً لأولِى النُّهى ، وحُجَّةً بالغةً على مَن أدْبَرَ وتولَّى ، لِيَهتدىَ مُتحيِّرٌ ، ويتعّظ مُزْدجِر « وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ » .

ومنهن : اجتماعُ أهل الفضل من المسلمين ممَّن لم يكن له نصرٌ ولا أزْر[9] فى الدعوة الأولى ، على المشايَعة فى الدعوة الثانية ، فأصبح دُعاةُ أمير المؤمنين – من أهل الحرَمَيْن وَالمِصْرَين[10] وَمدينة السلام والمشرقِ والمَغرب ، ممَّن غَار وأنجَدَ[11] من المتمسِّكين بذمِمهم ، المُوفين بِنُذُورهم ، مِن إخوانكم ، وإن كانَ الله قد قدَّمكم فى الأَمْرَين جميعا بتفوُّق حالكم على غيركم – يعتدُّون

---

(١) أى اضطراب وخفق .
(٢) فت فى عضده : أضعفه .
(٣) فى الأصل « وقبل مأأر ... كم به من النصر » وقد أصلحته كما ترى .
(٤) أى رفيع .
(٥) أى خالص .
(٦) الإصر : العهد .
(٧) غير الدهر : أحداثه المغيرة .
(٨) الختر : الغدر والخديعة ،أو أقبح الغدر ، وفعله ك ضرب ونصر .
(٩) الأزر : التقوية .
(١٠) الحرمان : مكة والمدينة ، والمصران : الكوفة والبصرة .
(١١) غار : أتى الغور بالفتح ، وهو المنخفض من الأرض ، وأنجد : أتى النجد ، وهو المرتفع منها .

مِن مُعاضَدَتكم وَمكانَفتكم[1] بما جعله الله عز وَجَل أُلفةً لكم ، وَمَودَّةً بينكم ، يُبيدُ بهَا ما كان الشيطان ينْزَغ[2] به بيْن أهل التباعُدِ فى الأنساب ، والتنائى فى الأوطان ، مِن إيقاعِ العَداوَة والبَغْضاء ، والانطواء عَلَى الأحقاد والدِّمَن[3] ، وطَلب تقديم الإحَن[4] ، وصار أهل السموِّ إلى الدرجة العليا ، والاعتصام بالعُرْوة الوُثقَى ، من أولياء أمير المؤمنين ، وشيعتِه ، مُنشرِحةً صدورهم بمكانَفَته ، مُنبسِطة أيديهم بمعاونتَه على حقه ، منفسِحةً آمَالُهم فى إذكاء[5] ناره على عدوه والإثخانِ فى بلاده وافتتاح مُمتنِع خُصُونه ، بما جَمَعهُم اللهعليه من الألفة ، ورَفَع عنهُم من الحمِيَّة[6] والعَصبيَّة ، راجين عودَتَهُم إلى أحسنِ مَامَضى عليه سَلفُهم فى عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومن سَلاَمَة الصدور ، وصلاَحِ ذات البَيْنْ ، واجتماع القُوى على مجاهدة من شَاقَّهُم[7] ، قد أفرخ الله عنهم نَغَرَ[8] التجارُب والتجاذُب ، وجعل ما كان يسعَى به بعضُهم من الإعداد لبعض ، زِيادةً فى رِيحهم[9] ، وحَدًّا فى شوكتهم ، لائتلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودَة[10] المؤيَّدَة بصدق الضمائر ، ونَفاذ البصائر ، وإلى الله يرْغَبُ أمير المؤمنين فى إعانته على صَالِح نيته ،وتبليغِه مُنتهى سُؤْله ،وغايةَ همته ، فى إعزاز دينه ، وإذلالِ من صَدَّ عن سبيله ، إنه سميع قريب .

وَمن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكُّرُ ما كانت عليه الحالُ قبلها ، فاستديموا الإفاضة فيما رَفَعَ اللهُ من خساستكم ، وأعلى من أقداركم ، بنصرة أهل بيت نبيكم ﷺ ، وما أبلاكم الله – فى الدعوة الأولى ، مما لا يؤدَّى حقُّه إلاَّ بعَوْن الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم[11] بلطفه وتوْفيقه ، فأنالهَم رَغائِبَ الأقسام ، وَسَنِىَّ الْخَطُوَات ، ورَفَعَ دَرَجَهم وَدَرَجَ

---

(١) المكانفة : المعاونة والمؤازرة .

(٢) نزغ الشيطان بينهم كمنع : أفسد وأغرى ووسوس .

(٣) الدمن جمع دمنة بالكسر : وهى الحقد القديم .

(٤) الإحن : جمع إحنة بالكسر ، وهى الحقد أيضا .

(٥) أذكى النار : أشعلها ، و أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .

(٦) الحمية : الأنفة .

(٧) شاقه : خالفه وعاداه .

(٨) أفرخ : أى سكن وهدأ ، ونغر عليه كفرح وضرب ومنع نغرا ونغرانا بحركتين : غلى جوفه من الغضب والغيظ ، وهو من نغرت القدر . إذا غلت وفارت ، وفى الأصل الأول « قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب » والمعنى عليه صحيح .

(٩) الريح : القوة .

(١٠) المجدود : العظيم الجد بالفتح ، وهو الحظ .

(١١) أى لأهل بيت نبيه ، وارتاح الله له برحمته : أنقذه من البلية .

خُلُوفِهم وأعقابِهم من بعدهم ،بعد إذ هم مَستَضعَفون يخافون أن يتخطفَّهم الناس ،مُذْعِنُون بقَهْر عدوهم واستئثارِه عليهم ، ثم لـم يلَبثوا أنْ صـاروا إلى الحـال التى يَرَوْنهم بهـا من الغِبْطَة والبَهْجة ،إلا أنهم أخذوها بحقِّهـا ، وكانت فى أيـدى الظَّلَمة من أهل بيت اللَّعْنةِ وأتباعهم ، بخُلْسة البـاطل ، ومِحْنةِ الابتـلاءِ « وليَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيـزٌ » .

وليس أحدٌ منكم بخارج من الْمِحْنة بما أُلْبِس من النعمة ، وإن كنتم أهلَها الآخَذين لها بحقِّها ، بل الذى يلزمُكُم استدامتها والقيامُ بحفظها ، على حَسَب ما أولاكم اللهُ منها ، فربما كان الذى يُعْقِبُ أهلَها من الغَفلةِ والاغترار ، ويُلْهيهم بها من حُبُورها[1] وسرورها ، أعظمَ إثما وحُوبًا[2] مما يُخافُ على أهل البَطالة والضُرِّ ، مِن ضعف العزم ، وقلة الصبر ، لِمَا يستولى عليهم مِنَ استكانة الذِّلَّةِ ، والاغترار بالتقصير ، والفَزَع إلى رَبهم فى تنفيس كُرَبهم ، فإنه تبارَك وتعالى قد وصف أهـل الطبقتين فقال : « وَإذَا أنْعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ أعْرَضَ وَنَأى بَجَانِبِهِ وَإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فحاجتُكم – إذ أنجَحَ الله سَعْيَكم ، وأظفرَكم بطلبتكم – إلى حِياطة ما أودعكم اللهُ من حِننه ، وحِراسةِ ما آتاكم الله من فضله بالشكر المُمْتَرِى[3] للمَزِيد .

فتعهَّدوا – معشَرَ شِيعة أمير المؤمنين – أنفسَكم بتذكُّر ما سهَّل الله لكم من الْحُزُونة[4] ، وذَلَّلَ لكم من الصُعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُرَّاق[5] المِلَّة ، ومُخالِفى أهل القِبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم – بمَنِّ الله عليكم – حُماةَ الدين ، وأنصارَ الأئمة الراشدين ، وحُصُونَ كافَّةِ المسلمين ، بعد ما اجتَثَّ[6] الله بكم قُرونَ النفاق ، وأبارَ بكم صَناديدَ الضَّلالة ، وشَرَّد بمن لم تستحمِلْه سيُوفكم ، وأضرَع[7] إليكم مَن أذعَنَ واستسلَمَ ، وقد استشرَفكم[8] – مَعشر شيعةِ أمير المؤمنين – أهلَ الشَّنآن ، ولاحظُوكم بأعيُن الحَسَد والمنافسة ، فبَيْنَ ذلك مُجهِرٌ مُعَالن[9] ، ومُسْتَسِرٌّ مُداهِن ، وداخِلٌ فى عِدادكم ،

---

(١) الحبور :السرور .
(٢) الحوب : الإثم .
(٣) أى .المستوجب : يقال : امترى الشىء : أى استخرجه ، والريح تمترى السحاب : أى تستخرجه وتستدره .
(٤) حزن المكان ككرم حزونة : غلظ ، فهو حزن كضخم .
(٥) مراق الملة : الخارجون عنها ، جمع مارق .
(٦) اجتثه : قطعه .
(٧) أضرع : أذل .
(٨) استشرفه : رفع بصره إليه ، والشنآن : البغض والكراهية .
(٩) جهر الكلام كمنع، وبه، وأجهر : أعلن الأمر ، وبه : أظهره ، وعالنه : أعلن إليه الأمر ، واستسر : استتر .

ووالِجٌ فى سَوادِكم[1] ، يرى أمْنَه بين ظهوركم ، فَطَعْنُه عليكم فى دولتكم بريبة التمويه ،وخُدَع التشبيه ،أيسرُ عليه كُلْفَةً ، وأعظمُ فيكم جَرْحًا ونِكايةً ، فتوقَّوْا هذه الطبقةَ أشدَّ التوقِّى ، فإن أكثرَ مَن يلجأ إلى استباحة الحِيلة ،مَن عجَزَ عن المُباداةِ[2] والإصْحار ، وعند ظهور الحازم وغَلَبَتِهِ يحترزِ من لطيف الخُدَع ، وخَفِىُّ الاستدراج

واحذروا – معشَرَ شيعة أمير المؤمنين – من استمهال الطاءة[3] ، والركونِ إلى رَاحَةِ الدَّعة ، ما قد رأيتم وبَالَه عادَ على أهله ، وأورَثَتْهُم عواقِبُه طولَ الندم والحَسْرة ، فإنكم قد كنتم فى حال المراقبة لِعدوّكم ، والخوفِ لِبَائِقَتِه[4] ، متيقِّظين مُتَحَفِّظين لما كان يرومُكم به مِن خَتْلِه[5] وحِيله ، ثم أفضيتم إلى الحجِّ ، وقد جَهَدكم السعىُ ، ومسَّكم النَّصَبُ ، وسيلْقِى الشيطانُ فى أمانيِّكم أنْ قد اكتفيتم بسالِفِ ما قاسيتم ، ويَجِد من ضعف العزائم مُعِينًا داعيًا إلى اغتنام الخَفْضِ ، والإحلادِ إلى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار ، وتمتثِلوا مواضِىَ الآثار فيمن سَلَف من القُرون الخالية ، وما أفضَتْ به إليه الغِرَّةُ من زوال النعم ، ووقوع الغِيَر ،فإن جميع ما خوَّلكم اللهُ وأفـادكم مُرتَهنٌ بمـا ألزمكم من حِياطته واستمائه ، فقد وجَبَتْ عليكم الْحُجَّةُ بما حضَّكم الله عليه ، وعظُمت عليكم المِنَّةُ بما هداكم إليه ،وأراكم من آياته ومَثُلاته[6] فيمن خَلاَ قبلكم ، ما فيه أبلغُ الإعذار والإنذار لكم ، ومن اجتمع له اقتناءُ صوابِ مَن تقدَّمه ، إلى ما ينبعِث من نفسِه ، فكأنّه قد اختبرَ بالتجرِبة ، مع استمداده بما يستفيد ويستزيد ما يفتح لُبَّه ورَأْيَه . وأيْقِنُوا أنكم لن تصلوا إلى مَن سِواكم ، ممن هو أعسَرُ طاعةً عليكم ، وأعذرُ بمعصيتكم ، حتى تبدءوا باستصلاح أنفُسِكم ، وأنه لن يُرْجَى لكم القوةُ على مجاهدة عدوكم ، حتى تقوَوْا على مجاهدة أهوائكم ، فإن على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغِطاءً من غَيْبِه ، لا يَكشَفُه إلا صحة المعرفة . والإذعانُ بالنَّصَفَة[7] ، فهناك يُؤْمَن عليه الجهلُ والمعاندَةُ ، وإذا أُمِنَت هاتان الخَلَّتان أنْسَدَّت بإذن الله ثُلَمُ الآفاتِ ، وفُتُوقُ المكارِهِ ، فإنه لا يُخاف الضلال على مَن اهتدى . ولا اعتمادُ الجَوْرِ على مَن انتصف مِن هَوىً .

---

(١) الوالج : الداخل ، وسواد الأمة : عامتها .

(٢) بادى بالعداوة : جاهر بها ، وأصحر : برز وانكشف – وأصله : خرج إلى الصحراء .

(٣) الطاءة : الإبعاد فى المرعى .

(٤) البائقة : الداهية .

(٥) الختل : الخداع .

(٦) العرب تقول للعقوبة مثلة بفتح فضم ، ومثلة بضم فسكون ، فمن قال الأولى جمعها على مثلات بفتح : فضم أيضا ، ومن قال الثانية جمعها على مثلات بضم الأول وضم الثانى وفتحه وسكونه ، قال تعالى : « وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثُلاَتُ » .

(٧) النصفة : الإنصاف .

وليكن أولَ ما تتعهدُّون به أنفسكم ، وتُثابرون عليه من صالح أدبكم ، تناصُفُ الحقِّ بينكم ، بتقديم أهلِ الفضائل والآثار المحمودة منكم ، وتفخيم أمرهم ، فقد علِمْتم أن منكم المبرِّز[1] الفائِتَ الذى لا يُدْرَك شَأْوُه ، ولا يُوازَى بلاؤه ، حين كَشَفَ الابلاءُ ضمائرَ القلوب ، وجَلاَ مُشْتَبِهاتِ الظّنون ، فصَرَّح بالمحاربة بعد التقدُّم فى الحجة ، وفَاءَ بُموكَّد العهد ، وركوبًا منه لهائِل الخَطَر ، غيرَ هائب مع صحبة الحق ، ما بَرَقَ لديه الناكثُ المخلوعُ وَرَعَد ، ولا مُسْتَوْحِشٍ فيما تفرَّد به إلى مَن تولَّى وأدبَر ، حتى أتى الغايَةَ التى أُجْرِىَ إليها فى الله عزّ وجل ، ولخليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكانَفَة والنُّصْرة والحظّ الجزيل والأَثَر المُبين ، ثوابُهم واجبٌ ، وحقُّهم لازِمٌ ، ثم منكم مَن يُحْفَظ لِسَلَفِهِ وأوَّله من الآباء الذين يحفظون ولا يتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وقال على لسان يعقوب لإبنه يوسف ﴿وكذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

وأميرُ المؤمنين يرى توريثَ الحِكمة والذِّمام[2] سُنَّةً عليه فى أخلاقه التى يَرْعاها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى وِراثة التَّرِكَة فريضةً واجبة ، فَيَخْلُفُ السَّلَفَ الصالِح عنده فى المزيَّة والفضلِ مَن يُتْلَوْن به من أهلِ الغَناء[3] بأنفسهم ، ثم يتلوهم مَنِ اقْتَدى بهم واهتدى بهديهم ، والسابق المتقدِّمُ مَن اعتدَّ ببلاء نفسه إلى بلاء سَلَفِه ، ثم يَتْبَعَه بعدُ المُبْلِى بنفسه ، ثم يتلوهما المتوسل بآبائِهِ ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقةً فطبقةً ،فلْيُقْصَرْ كلُّ امرئٍ منكم المرتَبة التى أحَلَّه بها سعيُه ، ولْيَسْلُك إلى الإزدياد فيها بالزيادَة من نفسه ، فإن من الفُتُوق العظيمة عَلَى أهل الدول ما يَنْزَغُ به الشيطانُ بينهم ويكثُر عندهم ما يكون منه ، فيوافقُ من الحَيْف للأنفس ما يجد به مَسَاغا إلى ما يروم من إيقاع الشَّحناء بينهم ، وتثبيتِ الإحن فى صدورهم ، بعد التآزُر والتناصُرِ . ومتى يَجمع المرء لمَزِيَّةِ مَن فوقَه واغتباطِ من دُونَه ، كُفِىَ ماتَرَك ، ولن تخلُصَ نيَّاتكم ، وتسلَمَ ضمائركم حتى تَمْحَضُوا[4] شكرَ ما أُولِيه إخوانُكم ، وتعتدُّوا ما نالهم شامِلا

(١) برّز : فاق أصحابه ، والشأو : الغاية .

(٢) الذمام : الحق والحرمة .

(٣) الغناء : الكفاية ، وفى الأصل « فيخلف السلف الصالح عنده من المزيد والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم » وأراه محرفا .

(٤) محضة كمنع وأمحضة : أخلصه .

لكم ، وتُجانِبوا طَرِيقَ مَن اقتصر بأُمْنِيّته عَلَى خاصتِّه ، وتَعتَّبَ فيما أُوثِرَ به أهلُ الفضل دُونه ، وكَفَى عِظَةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : « وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » ولا يلتمسَنَّ أحد مودَّتَه عَنْ سُوء نيَّة بحُسْن مُدَاراةٍ في ظاهِرٍ ، فـإنَّ الله مقلِّدٌ كلَّ امرئٍ رِبْقَةَ[1] عملِه ، وَمُطوِّقُه طوْقَ سريرته ، ولا يغدِرَنَّ فيما يَلْزمه لإمامه ، فإنه إنمـا يَغدِرُ فى حَظِّه ،وَيَبْخَسُ قَسْمَه ، وَيَنْحَس[2] نفسَه ، ثـم لا يقتصرَنَّ عَلَى استصلاحهـا حتى يتنـاولَ مَن كانت مِنّته عليه من أقرَبيه وحَشْويِّه[3] ، فإنَّ يَسيرَ مـا هو مُعانٍ من تأدِيتهم ،لا ينشَبُ أن يتجـاوز أدْنى المـراتب إلى أقاصيها ، وقريبَها إلى مُتناهِيها ، حتى يستفيضَ شـامِلا عـامًا ، بعد أن بدا محلِّلاً[4] خاصًّا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقِّدٌ من تثقيفكم وتقويمكم على صالِح الأدب ، ومحمود السِّيرة ، مالا يَفقد به من سِواكم ، فإنه إن كان يوجِبُ على نفسه استصلاحَ الرعية ، وحَمْلَهم على مَا فيه رُشْدُهم وقِوامُهم ، لِما يلْزَمهُ من فضل العناية بالأخصِّ والأوْلَى فالأوْلى ، فإن فى إخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهُّدِ وُجوها من الضرر ، منها : أنكم أوْلى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، لِلُطْف محلِّكُم ، وقُرْبِ مكانكُم عند أمير المؤمنين . ومنها : أنكُم يأنَسُ بكم المؤتمُّون ، ويقتدى بكم التابعون ، فمتى قصَّرتم وأخْلَلتم ، اقتفَى أثَرَكم مَن نُصِبْتُمْ له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تَزْرُوا[5] عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِيناً[6] أن يكون يسُومكم الرِّضا بمثل ما سُمْتُمُوه ، ثم تجرى هذه العادة فى الطَّبَقات ، حتى يطَّرِدَ السِّيَاقُ ، إلى أن يستفيض الفسادُ فى حَشْو الناس وعامَتهم ، فلا تُغْنى قوةٌ ولا حزْم ولا شِدَّة إلا العجزَ والإضاعة ، ثُم يجد الأعداء مَساغا إلى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن يُرْهِقوكم[7] ، ويستولى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنما تُبْسَط بنَفاذ العزائم ، والعزائم إنما تَنْفُذ بثبات الحجَّة ، والحجة إنما تثبت إذا كانت عن الحق ، وإذا أُضيع أوَّلُ هذه الرسوم التى رَسَم لكُم أمير المؤمنين تَبِعَتْه

---

(١) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشد به إليهم ، كل عروة ربقة .

(٢) نحسها (كمنع) : عناها وأشقاها

(٣) نسبة إلى حشو ، ومعناها الحاشية والأتباع ، وقد تقدم فى رسالة يحيى بن زياد الحائى ص ٢٠٩ « وأما الحشو من الجند والرعاع .. » وجاء أيضا فى رسالة الجاحظ فى مدح التجارة وذم عمل السلطان فى كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (هامش الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٧) : وهذا الكلام لايزال ينجم من حشونة أتباع السلطان ، فأما عليتهم ومصامصهم وذوو البصائر والتمييز منهم ... ».

(٤) أى ذا محل محدود خاص .

(٥) زرى عليه كرمى : عابه ، كأزرى ، لكنه قليل .

(٦) أى جديرا وخليقا ، وسامه الأمر : كلفه إياه ، وفى الأصل « بمثل ماسمعتموه » وهو تحريف .

(٧) أرهقه : حمله على ما لا يطيق .

تَوَالِيه ، وشفَعَتهْ لَوَاحِقَه ، ووجَدا العدوُّ الملاحِظُ مكانَ العَوْرَةِ ، مَطْمَعًا فى إهمال ما كان يُعِدُّ له من الغِرّة ، ويتوفّق به من مُناهَزَة الفُرْصة .

وليكن ما تُفيضون فيه وتَعُدُّونه ظهيرًا على طاعن إن طعَنَ فى دولتكم ، ما ألْهم الله أمير المؤمنين من شمول رعيَّته بالعدل ، وفَرْشِ[1] الأمرِ فى مُضْمَراتها ومُنقلبها ، ورَفع به عنهم من سَيْر الجود[2] ، وبسَطَ به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمَّد[3] الجرائم لأولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَد وشاقَ إلى التوبة والإنابة ، وإقالةِ العَثْرَة بعد القدرة ، والحقَنْ لُمباحِ الدماء ، فلم تعلَموه صَبَر مُحِلاً[4] ولا هَتَك لأحدٍ ممن أظفره الله به سَتْرًا ، ولا وَقَفَه على عَوْرة .ثم تولَّى الله أميرَ المؤمنين فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صُنْع الله لكم فيها ، لاستفاضةِ أخبارِها فى دَهْمائكم[5] ، مع ما أُحبُّ من مطالعته إياكم ببالغ أدَبه ، وشافى عَطفِه ، أن يتسكب[6] عن الإسهاب ، فى غير ما صَمَد[7] له ، ورأى من تقريعِ أسماعكم وأذهانكم ، لوَعْيِ ما التمس أن تَعُوه ، من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم ، وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مُبيناً .

وإن أمير المؤمنين – مع ما تقدَّم به إليكم – لَعَلَى ثمةٍ من حِياطة الله خِلافتَه التى جَعَلَها عِزا لدينه ، وقِوامًا لخَلْقه ، وأنه ليس بها ممن أدبَرَ عن حقها اختلالٌ بل مَن خلَعَ رِبْقَتَها وأضاعَ حظَّه منها ، جَلَبَ الخَلَّة[8] والحاجة وخَسَرانَ الدنيا والآخرة ، وإنما أُتىَ المقصِّرون فى إعظام حقها ، من ضعف الروية عن بلوغ ما تُفضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتؤدِّيهم إليه رواجعُ ما قدَّموا ، فلا يكونون بعملهم مُتجاوزين لهَمَمِهم – وفيهم الذى هم فيه – إلى ما يمنعهم[9] .

واستدِيموا مَعشَر المسلمين سابغَ النعمة ، بحَمْدِ مُوليها والمتطوِّل بها ، وقد تَرَون ما كنتم

---

(١) فرشه أمرا : أوسعه إياه .

(٢) أى من الجود السائر الشامل .

(٣) تغمده : ستره .

(٤) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت ، وقد قتله صبرا وصبره عليه ، والمحل الخارج من الميثاق والسبعة انظر شرحه بتوسع فى الجزء الأول ص ٤٠٣ – وفى الأصل « محملا » وهو تحريف .

(٥) الدهماء : جماعة الناس .

(٦) تنكب عنه : عدل .

(٧) صمد كنصر : قصد .

(٨) الخلة : الفاقة والحاجة .

(٩) فى الأصل « فلايكون عملهم غير متجاوزين بهممهم وفيهم الذى هم فيه إلى ما يمنعه » والعبارة كما ترى مضطربة .

فيه قبلها ، وما آلت إليه حالُ مَن سُلِبَهَا ، ثم يُعْقِب الندامة حين لا مُسْتَعْتَب[1] ولا نَظِرَة يُمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصير ولا هفوة زلل ، وثِقوا من رعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم ، وما مضى مِنْ بلاء كلِّ امرىءٍ منكم ، بما تطمئنون إليه ، وتتوقعون عادته ، بأسْنَى ما ترتفع إليه آمالكُمْ ، وتسمُو إليه هِمَمُكم ، إلى ما يدَّخِر الله لمن تمسَّك بهداه ، واعتصَم بتقواه ، وجاهَد عن حقه ، وافيا بأمر عهده ، مِن جزيلِ ثوابه ، وكريم مآبه ، إلى الدار التى هى أكبرُ دَرَجَاتٍ وأكْبَرُ تفضيلاً .

أحَبَّ أمير المؤمنين أن يتعَهَّدكم بعِظة تنبِّهكم على حظِّكم ، وتُثبِّتُ من بصائركم وتقطع من طمع الشيطان وحِزبِهِ فيكم ، لِما يجب عليه إرشادكم ، ويرجو من تأدية حق منِّ الله عز وجل فيكم ، ولما يَرَى من اتصالكم بِحَبْله ، وما يشمَله من الصنيع فيما ولاَّكم الله به ، وتولاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دَلَ على الدعاء تَطَوُّلا ، وتكفَّلَ بالإجابة حَتْمًا ، فقال عز وجل : « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أن يجمع على رضاه أُلْفتكم ، وأن يصلَ على الطاعة حبلَكم ، وأن يمتِّعكم بأحْسَن ما أودَعَكم مِنْ منَنه ، وَيُوزِعَكُمْ[2] عليها من شكره ، ما يواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيدَ الكافرين ، وَحَسَدَ الباغين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفظ بِه « إمامُ هدَى » فى أوليائِهِ وشيعته ، ويحمِل عنه ثِقْلَ . ماحُمِّلَه منكم . وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوِى من جزائكم بالحُسْنى ، وحمْلِكم على الطريقة المُثْلى ، وبه يرضى ناصرا ووَلِيًّا ، وكفى بالله وليًّا ، وكفى بالله نصيرا ،والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(المنظوم والمنثور ١٢ : ١٧٣)

٣ – تحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة

« أما بعد ، فالحمدُ لله ذى المنن الظاهرة والحُجج القاهرة ، الذى قَطَعَ بينه وبين عباده المَعْذِرَةَ ، وَرادَف عليهم البيِّنة ، وَمُهْلَةَ النَّظِرة[3] ، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسْم والمكتوب ، وما ذَخَرَ لهم من ثواب الآخرة بالنُّجح المطلوب ، فهم فى العاجلة شُركاء فى النعمة ، وفى الآجلة شَتَّى فى الرحمة يختص بها أهلَها المنتفعين بما ضَرَبَ لهم من الأمثال ، وتصريفِ الحال بعد الحال ، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مُدَد آجالهم ، قبل حلول ما يُتَوَقَّع ، وفَوْتِ مالا يُرْتَجَعُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

---

(١) أى استعتاب ، واستعتبه : طلب إليه العتبى . وهى الصفح والرضا . والنظرة : التأخير .
(٢) أى يلهمكم .
(٣) النظرة : التأخير .

٤ – تحميد لأحمد بن يوسف

ولأحمد بن يوسف عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود صَدْرَ فتح .

« أما بعدُ ، فالحمد لله الذى حفِظ من دينه ماضَيَّع المُلحدُون ، وَرَأَبَ[1] منهُ ما [ثلَمتهُ] الصَّدعَةُ ، وأعاد من حَبْلِه[2] ماحاولوا نَقْصَه حتى أعاد لعباده أَحْسَنَ أُلْفَتِهم ،ورَدَّ إليهم أَجمَلَ عَوْدِهم ، من الاستِئْصَلاء[3] بعد التردِّى فى قُحَم المَعاطب . والاستِنقاذِ بعد التوريط فى المَهالِك ، وبلَّغ خليفتَه القائم بحقه ، المُؤتَمَّ بِكتابه ، الذائدَ[4] عن حَرِيم الدين ، وميراثِ النبيين ، أَجزَلَ مَابلغ الخلفاء الراشدين المَهديِّين ، من إعلاء الكلمة ، وغَلَبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وَعَدَها المتقين ، وفرَّغه لما أَشْعَر قلبه ، وشَرَح له صدرَه ، من إمضاء حُكم الفرائض الموجَبة ، وَاقتفاء السُّنَن الهادية ، حيث سلَك به من المناهج ، حَمْدا يُوَازى نعمَهُ ، ويبلغ أداء شكره ، وَيُوجِبُ مزيدَه .

والحمد لله على ما خصَّنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناءِ[5] الرُّتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين – أيَّده الله – والمجاهدةِ عن حقه ، والوفاء لله بما عقدَهُ له ، لا نُريد بما كان منا إلا وجهَهَ ، وَلا نسعَى فيه إلا لرضاه ، حمدًا لا يُحْصَى عددُه ، ولا يَنْقَطِع أَمَدُهُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

٥ – تحميد لأحمد بن يوسف فى فتح السند

« الحمد لله ولىِّ الحمد ، وأهل الثناء والمجد ، خالقِ الخلق ومُدَبِّرِ الأمر ، المُسْبِغ[6] على عباده ، والموجب عليهم حَجَّتَه ، فليسوا يرجُون إلا سَعَةَ فضلِه ، ولا يحذرون إلا ما اجترَحُوا[7] من معصيته ، لِمَا سَبَق من جزيل إحسانه ، وتَظاهَرَ[8] من امتنانه ، وتقدَّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان

---

(١) رأبه : أصلحه ،وما بين القوسين بياض بالأصل ولعله ثلمته كما أثبتا ، والصدعة جمع صادع ، من صدعه : إذا شقه .

(٢) المراد به الدين .

(٣) استشلاه : استنقذه من الهلكة ، والقحم جمع قحمة بالضم : وهى الاقتحام فى الشىء والمهلكة

(٤) أى الدافع .

(٥) أسناه : أعلاه ورفعه .

(٦) أى المسبغ عليهم نعمه ، وأسبغ الله النعمة : أتمها .

(٧) أى اكتسبوا واقترفوا .

(٨) أى تضاعف .

لا يستخِفُّ بما عظُمَ منهما إلاَّ مَن استَحْوَذ[1] عليه الشيطانُ ، واستولى عليه الخِذْلانُ ، وقاده الْحَيْنُ[2] إلى مَوَارِدِ الْهَلَكَةِ » .

اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٣)

٦ – رسالة الشكر لأحمد بن يوسف

ولما قُتِل الفضل[3] بن سَهل (سنة ٢٠٢) ، استوزر المأمون بعده أخاه الحسَن[4] ابن سهل جَبْرًا لمُصابه بقتل أخيه ، فأمر الحسنُ أحمدَ بن يوسف فكتب عن لسانه رسالةً يشكر فيها للمأمون صُنْعَه ، وهى :

« أما بعد ، فالحمد لله القاهر القادر الخالِقِ الرازق ، فاطرِ السموات والأرض ، الذى أحاط بكل شىء عِلْمًا ، ونطَقَ به خُبْرا ، وأتقنَه حِكمةً وعلْمًا ، وألَّف بين مُختلفِهِ ومتَّفقِه ، لِيُدلَّ بِقوام بعضه على بعض على اتِّصاَل تدبيرِ مشيئته ومبتَدَعِه ، وأنه أحَدٌ صَمَدٌ[5] لا ضِدَّ له ولا نِدَّ ، إذ قدَّر له حاجَته ، ثم شدَّها ببلاغِها إلى الغاية التى جعلها ، فقال الله عز

---

(١) أى استولى .

(٢) الحين : المحنة والهلاك .

(٣) وذلك أنه لما ثارت الفتنة ببغداد كما قدمنا ، كتم الفضل بن سهل عن المأمون أخبارها مدة ، وكان متى علم أن أحدا قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقبه ، فامتنع الناس من كلام المأمون ، وانطوت عنه الأخبار ، فدخل عليه على بن موسى الرضى وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتى بولاية العهد وتغيير لباس السواد ، وقد خلعوك وبايعوا عمك إبراهيم بن المهدى ، وأحضر إليه جماعة من القواد ليخبروه بذلك ، فلما سألهم المأمون أمسكوا ، وقالوا : نخاف من الفضل ، فإن أمتنا شره أخبرناك ، فأمنهم وكتب لهم خطة ، فأخبروه بحقيقة الحال وعرفوه خيانة الفضل وتعميته الأمور عليه ، وستره الأخبار عنه وقالوا له الرأى أن تسير بنفسك إلى بغداد ، وتستدرك أمرك ، وإلا خرجت الخلافة من يدك ، فشخص من مرو إلى العراق ، فلما كان بسرخس دس على الفضل جماعة فقتلوه فى الحمام ، ثم أخذهم وقدمهم ليضرب أعناقهم ، فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ! فقال لهم : أنا أقتلكم بإقراركم ، وأما ما ادعيتموه على فدعوى ليس لها بينة ، ثم ضرب أعناقهم وحمل رءوسهم إلى أخيه الحسن بن سهل بواسط وكتب يعزيه ويوليه مكانه .وتزوج ابنته بوران بنت الحسن ، ودس إلى على بن موسى سما فى عنب – وكان يحب العنب – فأكل منه واستكثر قمات من ساعته ، وكتب إلى بنى العباس ببغداد يقول لهم : إن الذى أنكرتموه من أمر على بن موسى قد زال ، وإن الرجل قد مات ، فأجابوه أغلظ جواب ، وجد المأمون فى المسير إلى بغداد فبلغها ، وقد هرب إبراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع ، فلما دخل المدينة (سنة ٢٠٤) تلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود إلى السواد ، فأجاب إلى ذلك وأمر الناس بالعود إلى لباس السواد ، ثم إنه عفا عن عمه إبراهيم وأحسن إليه وكذلك فعل مع الفضل بن الربيع .

(٤) توفى الحسن سنة ٢٣٦ – انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ :١٤١ والفخرى ص ٢٠٣ وتاريخ بغداد الخطيب البغدادى ٧ : ٣١٩ .

(٥) الصمد : السيد الذى يقصد فى قضاء الحوائج .

وجل « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » وحكى عن نجيِّه موسى عليه السلام : « قالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »

وقال الله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » ثم لم يكلِّف العِباد من شكره كِفاءَ نِعمته ، بل رضِىَ منهم باليسير ، وقبِلَ منهم العفْوَ ، وجعل طاعتهم إياه عائِدةً عليهم بجزيل الحظّ ، فى دينهم ودُنياهم لغِناه عن عبادَتهم ، واتِّساع قدرته بالتطوُّل عليهم ، مفتتِحًا وخاتِما ، وبادئا وعَائِدا .

والحمد لله الذى اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم ، نبيًّا لرسالته ، وأُتمَنه على وَحيه ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذى لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . فأدَّى إلى خَلْقه الرسالةَ ، واستنقَذَهم من الضلالة ، وصَدَع بأمر ربِّه ، وجاهَدَ فى سبيله ، ونَصَح لأمته ، حتى أتاه اليقين من ربِّه ، بعد استنارة الحقّ ، وظهور الحُجَّة ، فصلَّى الله عليه بشِيرًا ونذيرًا وَدَاعِيًا إلى الله بإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، قَدْ تَلاَفَى مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَجَمَعَ الأُلفة بعد الفُرقة ، وأوضح الهُدَى بعد الدُّروس[1] ، ومعَالِمَ الرُّشْدِ بعد الطُّمُوس ، وكانَ بِالمؤْمِنِينَ رَحِيمًا .

والحمدُ لله الذى قفَّى على آثار المرسلين ، والأئمةِ الراشدين ، الهَادىَ التقىَّ ، الطاهِرَ الزَّكىَّ ، الإمامَ المأمونَ أمير المؤمنين – أعزّ الله نَصْرَه – فسَدّ ثُلْمتَهم ، وَرَأَبَ صَدْعَهم[2] وقلَّدَه خلافتهم ، وجعله لكافَّة المسلمين غِيَاثا ورحمةً ، وجعل ما أَلْهَمه من العدل ، والإحسان إليهم ، مِنَّةً عليه ورحمة ذَخَرها له دون الخلفاء قبله ، فيما أظهر من فَضْل زمانه على الأزمنة ، وسياسةِ مَن تقدَّمَه ، ومَنَح الرعية من عطفه ونظره ما لا يَحمل عنهم أَوْبَه[3] ولا يؤدِّى عنهم شكرَه ، إلا هو لا شَريك له ، وأحسن الله جزاءَ أمير المؤمنين ومثُوبَته ، على صِلة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى هى رَحِمُه وقرابتُه ، واختيارِه لولاية عهدِه الأميرَ الرضىَّ علىَّ بن موسى – حفظه الله – حينَ أَحمَدَ سيرَتَه[4] ورضِىَ محبَّته ، وعرَف استِقْلاله[5] بما قلَّده فى هَدْيه ودينه ، ووفاءَه بما أكدَّ الله به عليه من عهد أمير المؤمنين – أيَّده الله – فى اعتيامه[6] من آزَرَه وآساه بما شَفَع رأيه ، وأنفذ تدبيره حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور

---

(١) الدروس : الامحاء .
(٢) الصدع : الشق ، ورأبه كمنعه : أصلحه .
(٣) أى ترجيعه وترديده .
(٤) أحمد أمره : صار عنده محمودا .
(٥) أى نهوضه .
(٦) اعتام الشىء : اختاره .

عِباده ، لَمَّا انتَضى[1] القائمَ بدعوته ، ورئيسَ شريعته ، الأميرَ ذا الرياستين – رحمه الله – فاتَخذه مكانِفا ظهيرًا ووزيرا دون مَنْ سواه ، فاتَّبع مِنهاجَ أمير المؤمنين – أيّده الله – وسار بسيرته شرقا وغربا ، وغَوْرا ونَجْدا ، مُوفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفِيا لأثره وسُنَّته ، فحسَم الله به الأدواء ، وقَمع به الأعداء : من عُتَاةِ الأمَمِ ، وطَواغِيتِ[2] الشِّرك ، وأبار[3] على يده أهلَ الشقاق والنفاق ، فى كل أفُق وطَرَف ، بِجَدِّ أمير المؤمنين – أعزَّ الله – وبَركةِ سياسته ودولته ، ونُجْح سَعْيِ مَن قامَ بنُصرة من قام بحقه وأنار برهانه ، حتى توفَّاه الله عز وجل ، حين بلغ هِمَّته وغايَته ، وحُمَّ[4] أجَلُه وانقطعت مُدَّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه – أكرمه الله – وعند الخاصَّة والعامة .

وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذى نزلَ به ، فأحيا آثارَه ، بوصف محاسنه فى مَشَاهِدِهِ ومجامِعه ، وترحُّمِه عليه عند ذكره ، وحِفْظِهِ فى لحمته[5] وأهل حُرْمته ، وفيمن كان بحمُد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمَّ به نعمتَه عندنا وعندكم معشرَ الشيعة ، فقد أصبح أمْرُه بكم متَّصلا ، ومَوْثَقُه مِن جماعتكم (متمكِّنا) ، يَقبِضكم ما قَبَضه ، ويبسُطكم ما بَسَطه من لَوْعة المصيبة ، وحُسْن العُقبى ، وقد علمتم – معشرَ أهل الحِجا والنُّهى والطاعة لله عز وجل وخليفتِه ، وذوى الغَناء[6] والبَلاء فى دعوته ، من أهل خُراسان وغيرهم ممن حضَر ، ممن امتحن الله قلبه بوفاء العَهْد ، والاستبصار فى حق أمير المؤمنين أبقاه الله ، والمجاهدةِ دونه ، والصبر على مَواطن الصدق واللأواء[7] ، والذبِّ عن البَيْضَة والحَرِيم ، والمتحمِّلين للنَّصَب والمصائب التى انجَلَتْ حتى كأنْ لم تكن ، وبقِىَ أجْرُها على الله عز وجل ، ومحمودُ ذكرها شائعا فى الناس – أنَّ نِعَم الله قد جَلَّت ولَطُفَت ، وخصَّت وعمَّت ، وعَلَت وسَمَقَتْ[8] وتمَّتْ ودامت ، حتى قصَّرْنا عن موازينها ، والإحاطة بأدائها ، فإذا لم يكن لنا معشرَ إخواننا سببٌ إلى مكافأة بَلائه بالعمل ، فنحنِ جُدَرَاءُ أن نجتهد فى القول ، ونُطْنِبَ فى الوصف إن شاء الله جل وعز ، فقد جعل ذِكرَ النِّعَم من أسباب الشكر .

وقد جدَّد لنا أمير المؤمنين – أيّده الله – منَ الحِباء[9] والكرامة وجزيل الخَطِيطة وسَنِىِّ الرُّتبة

---

(١) من انتضى السيف : إذا استله ، وربما كان «انتقى» .
(٢) الطواغيت جمع طاغوت : وهو كل رأس ضلال .
(٣) أباره : أهلكه .
(٤) حم : قدر .
(٥) اللحمة : القرابة .
(٦) الغناء : الكفاية .
(٧) اللأواء : الشدة .
(٨) سمق كنصر سموقا : علا وطال .
(٩) العطاء بلا من ، أو عام .

التى قُرِئَ بها عليكم كتابُه ، ما يستغرق جُهدَنا ، ويستفرِغُ وُسْعَنا ، فنرغب إلى الله عزّ وجل وَلِيِّ الرغبة ، ومُؤْتِى السُّؤل والطِّلبة ، فى إعانتنا على تأدية ما وَجَبَ له ، فيما منَحَنا من فوائده ونِحَلِه[1] ثم نَسْترفِدكم[2] ونستعينكم على شكره ، وإمدادنا بما بلَغْته طاقتكم فى السعى له ، فقد آدَنَا[3] ثِقْلُ مَا حَمَّلنَا وثِقْلُ مَا طَوَّقنا ، وعظُمَت فاقتُنا إلى استعمال القوَى من الأنفس والحامَّة[4] والخاصَّة والعامَّة ، فى جزاء ما جَلَّل[5] أمير المؤمنين فينا من سُنَنه ، وشمِلنَا من تالِدِ أياديه وطَارِفها[6] ، وقديمها وحديثها ، وكيف يوجد إلى مُوازاة أمير المؤمنين سبيلٌ بِبَذْل جهْدٍ ، أو بلوغ حَشْد ، فإنما نقتدى بهُداه ، ونَعْشُو[7] بنوره فى ديننا ، وليس عجْزُنا عن أن نجزِىَ حقَّه[8] بواضعٍ عنا مُؤْنَة الدُءوب فى التحرِّى لتأديته ، فإن الله عز وجل قد أخبر بفضائل الشكر ومناقِبه ، وجعله من أسمائه « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » وقد قال تعالى « مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَبِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » وقال تعالى : « إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » ولولا أنَّ الله عزَ وجل رضِيَه لنفسه لأجللناه عن التسمية ، إذ كان أكثرَ ما نستعمله ونعرِفه فى مكافأةِ مَنْ مَنَّ وتطوَّل ، ثم ثنى بذكر فضله فى العباد ، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أولَ ما علَّم خلقَه بالحمد ، وجعله بدءَ كتابه وخاتمةَ دعوةِ أهل جَنته ، فقال عزّ وجل : « وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وخلق الله السموات والأرض ومن بَرأ وذَرأ فى الحياة لِيَبْلوَ عبادَه بشكره ، وأعَدَّ الجنة فى الآخرة لمن شكَرَه ، والنارَ لمن كفَرَه ، وقال الله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » ، وقال الله تعالى « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ، فجعَلَ التَّقوى واقعةً[9] والشكرَ مَرْجُوًّا ، ليَدلَّ على ارتفاع رتبته ، وعلوّ درجته عنده ، وقال لنبيِّه موسى عليه السلام : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » فلم يكلِّفه إلا أخذَ ما أعطاه ، والشكرَ على ما آتاه ، وأخبَرَ بعِزَّته فى العباد فقال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ » .

فأيَّةُ نعمةٍ أجلُّ قدرا ، وأسْنَى أمْرا – معشر الشيعة – من نعمة أمير المؤمنين – أيَّده

---

(١) النحل جمع نحلة بالكسر . وهى العطية .

(٢) استرفده استعانه .

(٣) آداه الأمر يؤوده : بلغ منه المجهود .

(٤) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .

(٥) جلله : غطاه .

(٦) أى من قديمها وحديثها .

(٧) عشا النار واليها : رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا ، كاعتشاها ، وبها .

(٨) فى الأصل « وليس علينا بأنا لن نجزى حقه » .

(٩) أى واجبة .

الله – عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التى رتَّبهُ بها ، فإنه أعطاه رياسَةَ الحرب وَرياسةَ التدبير ، وعقَدَ له على رأسهما عَلَمًا فى راية دعوته ، وقلَّده سَيفهما ، وختَّمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حَرَسه وصاحب شُرْطته ، ومسيرَه بين أمير المؤمنين وبينهما أمامه وخَلْفَه – وصيَّر له الجلوسَ على الكرسىَ بحَضرته فى صدر كل مجلِسٍ جَلَسَهُ – إلا أن يُؤْثر به مَن أحبَّ مِن أبناء الخلفاء – وقدَّمه فى دخول داره[1] راكبًا إلى أقصى مكانٍ ينتهى إليه أحدٌ من بنى هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمهُم غناءً عنهم ، فسمَّاه صاحبَ دعوته ، وسيفَه على عدوه ، وبابه الذى يُدْخَلُ إليه منه ، وولاَّه خيُولَه فى أقطار الأرض ، ومقدِّمَتَه بحضرته ، وقلَّده من الثغور ما قد علمتم ، بما أفْرَدَه فى عهده ، إلى ما أنْفذَه من أمره ، فى جميع سلطانه ومُلكه ، من مَشَارِقِ الأرض ومَغاربِها ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضَّله به وقَدَّمه وشرَّفه على الناس كافَّة ؟ ولكنا نُخْطِر بِذكره ثم نكِلُ السامعين إلى ما يرجِعون إليه من المعرِفة التى لا تبلُغُها الصِّفة .

ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته ، بأعلى مما أكرَمَه به فى وفاته : تَوَلَّى غُسْلَه وتكفينه وَمباشرتَه لجِهازه إلى حُفْرته بيده ، وقاسَى من الغُصَص ، وبُرَحاءِ[2] الحزن وإذراءِ[3] ، العَبْرة ، وإراقة الدَّمعة ، ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعُه من القول ، والدعاء فى صلاته عليه ، مِن الحكم وحِفظِ أهلِ الحُرْمة به ، رعايةً له فيهم ، ووفاءً بعهده من بعده ، وأقرَّ خاصَّتَه وقوادَه وعُمَاله وكُتَّابه على مراتبهم ، وحَمد بحَمْده ، وذَمَّ بذمه ، وجَدَّد لجنده وشاكِرِيَّته[4] نظَرا وعَطْفًا ، فلم يبقَ عليه فى إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبّه فى حياته ، (غايةٌ) إلا أتى مِن ورائها ، وأمَرَ بقراءة فُتُوحه ، كما كانت تُقْرأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَث من بعده ، إلى ما تقدَّم مِن سعيه ، وأخبَرَ أنه كان سببَه والمفتتَح به ، وولَّى محمدَ بن الحسن خلافته ، ونَصَبَه ، مَنصِبَه ، وأقامَه مُقامَه إلى أن جَدَّد العهدَ لى ، فاستخلفتُه على ما وَلِىَ بحَضرته ، ثم تتابعتْ كتبُ أمير المؤمنين أكرمه الله – بعد مُصاب الأمير ذى الرِّياستين ، بما[5] لا يُقارَبُ من التفضيل والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبَلَغكم ، فلم يكن يَرَى وراءه مجازاةً[6] ،

---

(١) فى الأصل « دار الأمير » .

(٢) برحاء الحمى وغيرها : شدة الأذى .

(٣) أذرت العين الدمع : صبته .

(٤) فى الأصل « وشل كريته » وهو تحريف وأرى أن صوابه « وشاكريته . والشاكرية جمع شاكرى : وهو الأجير والمستخدم معرب جاكر – انظر القاموس المحيط – والمعنى : وأتباعه ورجاله .

(٥) فى الأصل « كما » وهو تحريف .

(٦) فى الأصل « مجاراة » وهو تصحيف .

ولا فوقه مَصْعَدا ، حتى جدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرئ عليكم فى كتابه ، فبلغَ بنا ما لم تكن الهِمَم لِتَبْلُغَه ، والأمانِيُّ لِتُحِيطَ به ، لولا ما مَنحَنا الله عزّ وجل من الترقِّى فى الفضل إلى ما تنحسِر[1] من دونه الأبصارُ ، وتنقطع دونه الآمالُ ، وإنما اقتصصنا وذكرنا ما أبلانا واصطنَعَ عندنا من بلائه ، بدعائنا إلى الله عزّ وجل ، وإلى طاعته بالعدل والإحسان إلى رعيته والنظر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَة المُروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للمِنَن ، ورعاية الأخلاق المحمودة ، وأخْطاء[2] أهلها ، وإقامةِ سُوقها ، حتى تنافَسُوها وتشاحُّوا[3] فيها ، وصارت هى الذرائع إليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمَّلَ متأمِّلٌ أهلَ الزُّلْفَةِ والأُثْرةِ لديه ، لَوَجَد الأخصَّ فالأخصَّ ، والأعْلَى قدرا عنده ، الأفضلَ دينًا ومُروءةً ، فلو لم يكن فى الخطوة عنده إلا إيجابُها بصاحبها صِحَّةَ المحبة ، والنزاهةَ عن كل ظِنَّة[4] لكان فيها أعظمُ الغِبطة ، وأعدلُ الشهادة والدلالة .

وسنقُصُّ عليكم بما خبَّرناكم عنه ما لا سبيل إلى جَحْده وإنكاره ، لوضوح معالِمِه ومَنَائره ، أو ليس المجاهدَ عن دين الله ، والمُحامىَ عن بَيْضةِ المسلمين ، والمُؤاتِىَ[5] لأَغْلَظِ عدوِّهم شوَكةً ، وأخوفِهم عداوةً والمُبَحْبِحَ[6] من بلادهم فيّما كان لا يُرام ولا يحاوَلُ ، لاستصعابِه وشدةِ مُقاساتِه ، حتى أذعن « جيغوية » بالعُبُودِيَّة له ، ثم أباح حريمَه حين تمرَّد عليه ، حتى بلغ السَّبْىُ إلى ولده وحابوبايه[7] ، وتوغّلت خيولُهُ حتى توصلت إلى قُبَّة ومنتهَى عِزِّه ؟ أَوَلَيْسَ مُسَكِّنَ الهَيْج بالمشرق ، حتى خَبَتِ[8] النيرانُ فيه ، وأذعنَ رؤساؤها وقادتُها أَوَليس غازِىَ بلاد بابِل حين طغَى [مِلكها] وَبدَّل ونكَثَ ونَقَض ، حتى اجتَثَّ أُرُومَتَه[9] ، وأباحَ حَرِيمَه ، وأراح المسلمين من مَعَرَّته ؟ أَوَليس سادَّ الثغورِ ، ومُحَصِّنَ عَوْراتها ، والمُباشِرَ لتدبيرها ، والمُسْعَدَ المكايَدةِ المُنْجَح فيمن أرادها ، وفَاكَّ العُناةِ[10] من رِقِّ الإسار ، وناشِرَ الرَحمةِ على فقراء المسلمين

---

(١) أى تكل وتنقطع .

(٢) فى الأصل « وأخطاء » وهو تصحيف

(٣) فى الأصل « وشاحوا »

(٤) الظنة : التهمة .

(٥) آتى فلانا : جازاه .

(٦) فى الأصل هكذا « والمبحبح » وتبحبح الدار ، وفى الدار ، وبحبح : إذا توسطها وتمكن من الحلول والمقام فيها ، وربما كان « والمجتاح » من اجتاحه : إذا أهلكه واستأصله .

(٧) كذا فى الأصل ، وقد يكون « وجواريه » .

(٨) خبت النار تخبو : سكنت وطفئت .

(٩) فى الأصل « لدومته » وهو تحريف . الأرومة بالفتح وتضم : الاصل .

(١٠) العناة : جمع عان ، وهو الأسير .

وضعفائِهم وأهل المَسْكَنة والخَلَّة منهم ، وقاسِمَ الصَّدَقات فى أهلها ، وعامِرَ المَوْسمِ ومُحَصِّنه من الآفات ، حِياطةً للمسلمين فى حجِّهم وما يتقربون به إلى ربهم ؟

وهل اقترنَ لأحد من الأئمة ما اقتَرَن له فى الملك والدين والعز والتواضع والسَّعَة والبَذْل والقدرة والعفو والغِلْظة واللِّيانِ فى مواضعها ، والنُّسْكِ مع الهِمَّة ، والسَّطوة مع الإقالة ؟ وهل ترك معشرَ الأولياءِ والإخوان فى الدين غايةً لم يسْمُ بنا إلى شرفها ، وعلىٍّ مَراتبها ، ومُستَزَادِ الحظِّ فى عاجلٍ وآجلٍ لم يُبْلِغْناه ؟ احتاز لنا خاصَّ مَكرُمته ، ومُدَّخَرَ عاقبته ، أرشَدَنا إلى الدين ، وسلَك بنا سُبُلَ الجنة ، حازَ لنا المُلْكَ ، فلم يبق وراء ما مَلَكْنا غايةٌ ، ووَرَدَ بنا الحروبَ وساكنها لنا ، فلم يَدَعْ غايةً فى التعلم والدراية ، والتقلُّد والفقه ، إلا سلّطنا عليها بسُلطان الله[1] الذى آتاه ، علَّمنا الفضائل ، ثم فضَّلَنا بها ! غلَبَ لنا الأمم ، ثم خوَّلَناها [2] ، علَّمَنا طرائقَ الشرف ، ثم شرَّفنا بها ، أخبَرَنا عن الأنْباء فكفانا مُؤْنَةَ التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخَذَ على أيدينا الخيرَ للرعية فوهب لنا شُكرَها ، وَصدَّق مقالَتَنا عند الشُّبْهة ، وَأنفذَ أمرَنا فى التدبير .

فيأيُّها الإمامُ المنصورُ المهدىُّ الرشيدُ : حُزْتَ فضائلَ الآباء ، واهتديتَ بهُدَى الأنبياء ، أنشكُرُك عن الإسلام ؟ فأنت القائمُ به ، الداعى له ، والناصِرُ لحقه ، أم نشكرك عن الأمصار ؟ فأنت المفتَتِح لمتنَعِها عَنْوَةً[3] ، والمتطوِّلُ على أهلها بالرحمة ، والمنعطِفُ عليهم بحسن الفائدة ، بعد ما هيَّجَت منك سَوْرَةَ[4] الغضب ، فأطفأتَ نارَها ، وأخمدْتَ لَهَبَها ، وعُدْتَ على مَن سَفِه وأضاع حظَّه ، أم نشكرك على المساجد ؟ فأنت الذى أسَّسْتَها على التقوى ، وعَمَرتها بتلاوة القرآن ، وطهَّرْتَ المنابرَ وركبتها ، تعلوها صائما ، وتنطق عليها صادقا ، وَتدعو إلى الرُّشد عليها ناصحا ، وتَختم القرآن قبل أن تَبْدَأها مُحْسنا ، وتتلو مِن قَوَارعه [5] ما تُصيخُ لهُ الأسماعُ ، وَتَلين به القلوبُ ، أم نشكرك على البيت العَتيق ، والرُّكْن والمَقام والحَجَر وزَمْزَم ، وَمشاعِرِ الحج[6] ؟ وأنت ذَبَبْتَ عنها ، وأعدتَ إليها عهدها فى مَبْعَث نبيها ﷺ ، فأمَّنْتَ النازِعَ[7] إليها من كل فَجٍّ عميق ، والحالِّين بها من الركع السُّجود ، أم نشكرك عن رسول

(١) فى الأصل « فلم يدع غاية التعليم والدراية سلطانا بسلطان الله الذى آتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، علمنا الفضائل ... » .

(٢) خوله الله المال : أعطاه إياه متفضلا .

(٣) العنوة : القهر .

(٤) أى حدته .

(٥) أى من آياته الشديدة القرع ، وأصاخ له : استمع .

(٦) مشاعر الحج : معالمه التى ندب الله إليها وأمر بالقيام بها ، جمع مشعر كمذهب .

(٧) نزع إليه كضرب : اشتاق ، والفج : الطريق الواسع .

الله ﷺ ، فيما حظِفتَ فيه من عِتْرته[1] ؟ بعفوك عن مُجْرمهم ، ومضاعفَتِك ثوابَ مُحْسِنهم ، وإحيائك مِن أمرهم ، مَا كان قد اندَرَسَ وانطمس ، مُعِدًّا لِلقاء نبى الله ﷺ ، وقد رعيتَ منهُ فى قرابته وقرابتك وذوى رَحِمِه وَرَحمك ما ضيَّع الناسُ ، ووصلتَ منهم ما كان وَصَلَه . إذ كان الله عز وَجل قد فَرَضَ صِلَة الأرحام ، فكان أطوع خلْقِ الله عز وجل فيما فَرَضَ عليه ، أم نشكرك عن العوامّ ؟ فقد ألبستَ المسلمين ثوبَ الأمْن ، وَأذقتَهم طعم السَّعة والرَّفَاغةِ[2] ، وَعَدَلْتَ بينهم بالإنصاف ، وتوَلَّيْتَ دونهم النَّصَبَ ، وَآثَرْتَهم بالرَّاحة ، أم نشكرك عن الملوك وَالقواد والأجناد ؟ فأنت الذى رفعتَ منازلهم ، ووفَّرتَ عددهم ، فلم يكونوا فى دهرِ أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، وَوَلَّيتَهم من الثغور وَالأمصار ، وَأَدْرَرْتَ عليهم من الأرزاق وَالخواصِّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسنن ؟ فأنت الذى أنهجتَ[3] سبيلها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ، أم نشكرك عن الأعداء ؟ فأنت الذى بدأتهم بالحجَّة ، وَدعوتهم إلى الفَيئة[4] والإنابة ، ثم ثَنَّيتَ مُعَقِّبًا بالعفو ، وَنَعشتهم بعد البؤس ، وَآنَسْتَهم من الوحشة ، أم نشكرك على مكارم الأخلاق ؟ فأنت الذى ثَبَّتَّ وَطِاءَها[5] ، ونفَيتَ عنها أضدادَها ، ولو نطقتْ بالفضل لنطقَتْ بشكرك فى إزَالتك إياها عن اللئام ، وإخطائك مَن اعتزَى[6] (منهم) إليها ، أم نشكرك عن الثغور ؟ فأنت الذى تمَّمتها وحصَّنْتَ عوراتِها[7] ، أم نشكرك عن السَّلَف ؟ فأنت الذى أشدْتَ بفعالهم ، وحَفِظتَهم فى أبنائهم ، أم نشكرك عن بُرْد رسول الله ﷺ وعن القضيب الذى (كَان) يَتخصَّر[8] ، حتى جعلتهما زينتك ، وسَمَوْتَ بهما فى أعيادك عند حَشْدك على الطُّهر والزكَاة والنُّسْك والتقوى ؟ أم نشكرك عن المسلمين ؟ فى رعايتك إياهم ، وما تُرْعيهم من جَنابك ، وتَنفِى عنهم من الآفات ، وتفُلّ[9] عنهم مِن جَبابرة الكفر ، وَتَفُضّ من جيوش الشرك والنَّكْث ، وتفتح من الحصون المستصعَبة ، وتسهّل من الطرق الوَعْرة ؟ أم نشكرك عن تواضعك لله عز وجل ولِصالِح المسلمين طلبًا للرِّفعة عند الله ؟ أم نشكرك عن الدين ؟ وقد جعلتَ السلطان عَبْدًا وقائدا ومنفِّذا ، وكان مأمورا فجعلته آمِرًا ، وآلةً للقوة فجعلت القوةَ له آلةً .

فيا مَن اتصلَ شكرُه بشكر الله عز وجل ، ونعمتُه بنعمة الله تعالى ، وطاعتُه بطاعة الله ،

---

(١) العترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون .
(٢) الرفاغة : الرفاهية .
(٣) أى أوضحت .
(٤) الفيئة : الرجوع .
(٥) فى الأصل « وطأتها » .
(٦) أى انتسب .
(٧) فى الأصل « عذراتها » .
(٨) أى يمسكه بيده .
(٩) فل القوم كنصر : هزمهم .

فوهَبَ الله لك شَرَفَ المنازل ، ورقّاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكَرَ مِن ناطِقٍ أو صامِت ، جزيل الثواب ، ورَفيعَ الدرجات ، وأمْتَعَك ما آتاك ، وأمتع الأمةَ ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرَّغبات ، ومتمِّم الصالحات ، شكرًا لربِّ العالمين ، فإنه مَبْلغُ طاقتنا ، ومنتَهى جَهْدِنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه إنه لا يُعين على ذلك إلا هو .

أحببتُ أن أشكرَ إليكم أمير المؤمنين – أيَّده الله – إذ ورد علىَّ من إنعامه وإفضاله مالا أُبْلُغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتصَصْنا عليكم داعيا لكم إلى أن تشكروه عنا وعن أنفسكم وعن الإسلام والمسلمين ، وَرجوتُ بمَا وَفَّقنا الله له فيما شرَحْنا وأوضحْنا من الدلالة والبيان ، أن يكون مجتمِعًا ينتفع به مَن حَضَرَنا ، ومَن عسى أن يُؤدَّى إليه الخبرُ عنا ، أو حُدث بعدنا ، وَضَنَنْتُ بهذه المكرُمَةِ الرائعة والمأثُرَة البارعة التى ادّخرها اللّهُ لأمير المؤمنين – أعز الله نصره – وَأفرَدَه بها دون الأئمة والخلفاء ، أن تَمُرَّ بالأسماع صَفْحا ، وتجتازَ على القلوب سَهْوا ، حتى تُؤكَّد بالشواهد والبرهان ، ليبقَى ذكرُها ونفعُها فى الخُلُوف والأعقاب .

ونحن نسأل الله عز وجل الذى جمع بأمير المؤمنين – مَدَّ الله فى عمره – أُلفَتَنا ، وعلى طاعته أهواءَنا وضَمائرنا ، وأنا لنا من الغِبْطة فى دولته وسلطانه ما لم تَحْوِه شيعةُ إمام ولا أنصار خليفة ، أن يُتِّم نورَ أمير المؤمنين ، وَيُعلِىَ كعْبَه ، ويمتِّعَنا ببقائه حتى يبلغه سُؤْله وهمَّته فى الاستكثار من البرّ ، وادّخار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر وأن يَلُمَّ به الشَّعَثَ ، ويَرْأَبَ به الصَّدْع ، ويُصْلح على يديه الفساد ، ويرتُق به فُتوق هذه الأمة ، وَيُثْخِن[1] بسياسته ونكايته فى عدوها ، ويتابعَ الفتوحَ فى بُلدانهم حتى يَؤُتِيَهُ من نُجح السَّعْى ، ورَغائب الحظّ فى الدنيا ما يُجْزِل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشَد نُجَباءَه وأصفياءه الذين يقول لهم : ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمَحْسِنِينَ﴾ . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٦) .

٧ – كتاب أحمد بن يوسف إلى المأمون

وكتب أحمد بن يوسف إلى المأمون حين كثُر الطُّلاب للصِّلات ببابه :

« إنَّ داعِىَ نَدَاك ، ومُنادِىَ جَدَاك[2] ، جَمَعَا ببابك الوُفودَ ، يرجُون نائِلَك العَتيدَ[3] . فمنهم مَن يمُتُّ[4] بحُرْمة ، ومنهم من يُدْلِى بسالِفِ خِدْمة ، وقد أَجْحفَ بهم المُقامُ ، وطالت

(١) أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .

(٢) وفى رواية نهاية الأرب « جدواك » . والجدا والجدو : العطية .

(٣) النائل : العطاء . والعتيد : الحاضر المهيأ ، وفى رواية معجم الأدباء « المعهود » .

(٤) يمت : يتوسل ، وأدلى برحمه : مت بها وأدلى بحجته : احتج بها .

عليهم الأيامُ ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشهُم بسَيْبه[1] ، ويحقّق[2] حسن ظنهم بطَوْله ، فعَلَ ، إن شاء الله تعالى » .

فوقع المأمون فى كتابه :

الخير مُتَّبَعٌ ، وأبوَابُ الملوك مَغانٍ[3] لطالِبى الحاجات ، ومواطِنُ لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يَسْقُط الطيرُ حيثُ يلتقِطُ الحَبَّ ... بَ وتُغْشَى منازِلُ الكُرماءِ

فاكتب أسماء من ببابنا منهم ، وَاحْكِ مراتبَهم ليصيرَ إلى كل امرئ منهم قَدْرُ استحقاقِه ، ولا تكدِّرن معروفنا عندهم بطول الْحِجاب ، وتأخير الثَّواب[4] ، فقد قال الشاعر :

فإنك لَن تَرَى طَرْدًا لِحُرٍ ... كإلْصاق به طَرَفَ الهوانِ

ولم تَجْلِبْ مودةَ ذى وفاءٍ ... بمِثلِ الوُدِّ أو بَذْلِ اللسان

(زهر الآداب ٢ : ٣٩ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

٨ – كتابه إلى المأمون

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يومِ نَوْرُوز[5] طَبَقَ جَزْعٍ[6] ، عليه مِيلٌ من ذهب ، فيه اسمه منقوشا ، وَكتب إليه :

« هذا يومٌ جَرَتْ فيه العادةُ ، بإلْطَافِ[7] العبيدِ السَّادَةَ ، وقَدْ بعثتُ إلى أمير المؤمنين طَبَقَ جَزْعٍ فيه مِيلٌ » .

فلما قرأ المأمون الرُّقعة قال : جاءت هدية أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم ، قال : هى فى دارى ، أم دارى فيها ؟ فلما رفع المِنديل استظرف الهديةَ ، واسترجَحَ مُهديها .

(زهر الآداب ٢ : ٤٠)

---

(١) السيب : العطاء ، ونعشه كمنعه وأنعشه ونعشه : جبره بعد فقر .

(٢) وفى نهاية الأرب « ويحتوش » واحتوش القوم فلانا . جعلوه وسطهم . والمعنى : ويحرز حسن ظنهم . والطول : الفضل .

(٣) المغانى : جمع مغنى كمرمى ، وهو المنزل ، وفى نهاية الأرب « وأبواب الملوك مواطن لذوى . لحاجات » وفى زهر الآداب « وأموال الملوك مظان لطلاب الحاجات » .

(٤) وفى زهر الآداب ونهاية الأرب « بالمطل والحجاب » .

(٥) النيروز والنوروز . أول يوم من السنة ، فارسى معرب ، وهو عند القبط أول توت .

(٦) الجزع بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى فيه سواد وبياض ، تشبه به الأعين . والميل بالكسر (والملمول كعصفور) : المكحال الذى تكحل به العين – ويقال أيضا للحديدة التى يكتب بها فى ألواح الدفتر ملمول .

(٧) ألطفه : أتحفه ، واللطفة بالتحريك . الهدية .

— ٩ —

وفى رواية أخرى : وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز سَقَطَ ذهب فيه قطعةُ عُودٍ هندى فى طُوله وعَرْضه[1] ، وكتب معهُ :

« هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإتحاف العبيد السادةَ ، وقد قلتُ :

على العبدِ حقٌّ فهْوَ لا شكَّ فاعِلُه ... وَإنْ عَظُم المولَى وجَلَّتْ فواضِلُهْ[2]
أَلَم تَرَنَا نُهْدِى إلى اللّهِ مَالَهُ ... وإن كان عنه ذا غِنًى فهو قابِلُهْ
فلو كان يُهْدَى للجليل بقَدْرِه ... لقصَّرَ عنهُ البحرُ يوما وساحِلُهْ
ولكننا نُهْدِى إلى مَن نُجِلُّه ... وإن لم يكن فى وُسْعِنا ما يشاكِلُهْ

(صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٧٢ ، والفخرى ص ٢٠٦ ، والأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٢)

— ١٠ —

وفى رواية أخرى للصولى :

وأهدى أحمد بن يوسف هدية إلى المأمون فى عيد وكتب إليه :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديتُ لأمير المؤمنين قليلاً من كثير عندى ، وقلتُ :

أهدى إلى سيِّده العبدُ ... ما ناله إلا مكانُ والجَهْدُ[3]
وإنما أهدى له ما له ... بَدْءاً هذا ، ولذا ردُّ

فقال المأمون : عاقل أهدَى حسناً .

(الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٦)

١١ — كتابه إلى إبراهيم بن المهدى

وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى مِلحا مُطيَّبا وكتب إليه :

« الثقة بك قد سهَّلت السبيل إليك ، فأهديتُ هدية مَنْ لا يحتشمُ ، إلى من لا يغتَنِمُ » .

(زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، والعقد الفريد ٣: ٣٠٨)

---

(١) وفى الفخرى والأوراق .« هدية قيمتها ألف ألف درهم » .

(٢) وفى الفخرى « فهو لابد » والفواضل : الأيادى الجسيمة أو الجميلة .

(٣) الجهد : بالفتح وبضم : الطاقة .

وقال ابن طيفور :

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية استقلَّها :

« بلغنى استقلالُك لما ألطفتُك ، والذى نحن عليه من الأُنس سَهَّل علينا قلةَ الحَشْدِ لك فى البرّ ، فأهدينا هديةَ مَن لا يحتشم إلى مَن لا يغتنم » .

١٣ – كتاب له عن المأمون

وقال أحمد بن يوسف :

أمرى المأمون أن أكتب إلى النواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد فى شهر رمضان ، فأعيا علىَّ ولم أجد مثالا أحتذِى عليه ، فبتُّ مغموما[١] ، فأتانى آتٍ فى منامى فقال : اكتب :

« فإن فى ذلك عمارةً للمساجد ، وإضاءةً للمتهجِّدين[٢] وأُنسا للسَّابِلة[٣] ، ونفيًا لِمَكامِن[٤] الرِّيب ، وتنزيها لبيوت الله جل وعز عن وَحْشَة الظُّلَم » :

فانتبهت وقد انفتح لى ما أرى فابتدأت بهذا وأتممت عليه[٥] .

(كتاب بغداد ٦ : ٢٣٧ ، وزهر الآداب ٢ : ٤٠ ، وكتاب الصناعتين ٢٢ ، والأوراق للصولى ١ : ٢٣١)

١٤ – كتابه إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

« بَارَكَ الله فى مولودك الذى أتاك ، وهَنَّأك نِعْمَتَه بعطيَّته ،ومَلَّاك[٦] كرامَتَه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مَيْمونًا مبارَكا زَكِيًّا ، مَمْدُودًا له فى البقاء ، مُبَلَّغًا غايةَ

---

(١) فى الأوراق « فبت لا أدرى كيف أفتتح الكلام ولا كيف أحتذيه » وفى الصناعتين « فبت لا أدرى كيف أحتذى » .

(٢) المتهجد : المصلى بالليل .

(٣) السابلة : الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم .

(٤) وفى كتاب بغداد « لمظان » .

(٥) وفى زهر الآداب « فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه وأمر أن تمضى الكتب عليه » .

(٦) ملاه الله حبيبه :متعه به وأعاشه معه طويلا .

الأمل ،مشدودًا به عضُدُك ،مُكثَّرا به ولدُك ، مُدامًا به سُرورَك ، مدفوعا به الآفاتُ عنك ، مشفوعا بأكثر العَدَد ، من طيِّب الولد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

١٥ – كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود أيضًا :

« أمَّا بَعدُ فَقد بَلغنى مِن مُتَجَدِّدِ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلّ عليك ، وإحسَانِهِ إليك ، فيما رزقك من الهِبَة ، ما اشتد جَذَلِى[1] به ، وسألتُ اللهَ أن يَشْفَعه بأمثاله ، ولذلك أقول :

قد شُفِع الواحدُ بالوافِدِ ... وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسِدِ
أبا حُسين : قَرَّ عَيْنًا بما ... أُعْطِيتَه من هِبَة الماجِدِ[2]
وأكْثِرِ الشكرَ (جَزيلاً) فقد ... نِلْتَ حِبًا الرِّفدِ من الرافِدِ[3]
قد قلتُ لَمَّا بشَّرونى به ... ورِكَ فى المولود للوالِد
إنّا لَنَرْجو وافِدًا مثلَه ... والطائرُ الميمونُ للوافِدِ »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

١٦ – كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

« أما بعد ، فإنه ليس من أمرٍ يجعل الله لك فيه سرورًا إلا كنتُ به بَهِجًا ، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجَبَ علىَّ من حقك ، وعرَّفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرًا ، وأدام إحسانه إليك .

وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سَرِيا[4] ، أجمَلَ لك صورته ، وأتمَّ خَلقَه ، وأحسن

---

(١) الجذل : الفرح والسرور .

(٢) قرت عينه : رأت ما كانت متشوقة إليه .

(٣) حبا : مقصورحباه ، والحباه : العطاء بلا من (أو عام) والرفد : العطاء ، وما بين القوسين مفقود فى الأصل ، وقد زدته ليستقيم وزن البيت .

(٤) أى سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .

البَلاءَ[1] فيه عندك ، فاشتَدَّ سرورى بذلك ، وأكثرتُ حَمْدَ الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بَارًّا تقيًّا ، يشد عَضُدَك ، ويُكثِرُ عددك ، ويُقِرُّ عينك » .

(اختيار المنظوم والمنثور : ١٣ : ٣٠٤)

١٧ - كتاب آخر

« هَنَّأَكَ اللهُ هذه الفائدةَ التى أفادَكَها ، وبارك الله فى الهِبة التى رَزَقَكَها ، وشَفَعها بإخوة متواترين ، يَسُرُّونك فى حياتك ، ويخلُفونك فى عَقبك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

١٨ - كتابه فى تهنئة بإفراق من مرض

وكتب فى تهنئة بإفراق[2] من مرض .

« وقد أذهب الله وَصَب[3] العِلَّة ونَصَبها ، ووَفَّر أجْرَها وثوابَها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعُقباها ، أضعافَ ما كان عنده من السرور بفَتْح أُولاها » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

١٩ - كتاب له

وكتب :

« قد بذلْتَ لَنَا مِن نَفْسِكَ أعزَّ مبذولٍ وأنفَسَه ، والمودةَ التى كل ما يُحمْد من صاحبها فهو لها نافع ، وثقتُنا بك واستنامَتُنا[4] إلى ناحيتك على أحسن ما أكدَّ الله بيننا وبينك ، وإن كان مَدَى اللقاء بيننا لم يَطُلْ ، فأثِّلْ منهُ[5] ما يَرْعاه أهلُ الوفاء والمخالصة ، وَيُقصِّر فى المحافظة عليه وعلى أكثر منه مَن دُخلَتْ نيَّتُه ، وَضمعَتْ خُلَّته[6] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠) .

---

(١) أى النعمة .
(٢) أفرق من مرضه : برىء .
(٣) الوصب : الوجع .
(٤) استنام إليه : اطمأن وسكن .
(٥) أثله : أصله .
(٦) الخلة : الصداقة .

٢٠ – كتابه إلى بعض أخلائه

وكتب إلى بعض الأخِلاَّء وقد اعتلَّ :

« ورد كتابُ صاحبى علىّ ، بذكْر شكوَى قِبَلَك ، فكرَّه إلىَّ الاستبداد عليك بالصِّحة ، ووقبَّح عندى تركَ مشاركتِك فى العِلَّة ، ولم يكن لى حَوْلٌ بتغيير ما قدَّر الله فى جسمى ، ولا بنقْل ما ألَمَّ بجسمك إلىَّ ، فاستقلَّ[١] بألمٍ قلبى ، وأسكنتْه همِّى وكآبتى ، لأكون كأسْوة المنقطعين إليك ، المنتظمين فى خيطك ، وجعلت ذلك شِعاره فى علتك ، حتى يأتينى المرجوُّ مِنْ سَلامتِك ، وأخَّرتُ الكِتَاب بالْعِيَادَةِ ، وَإرسَالَ مَنْ يقُومَ مَقَامِى فِيهَا لديك ، لأنى إذا استقصيت فى الكتاب وَصْفَ ما يداخِلنى طال ، فعَقَقْتُ به من قصدتُ برَّه ، والرسُول فلا يحملُ ما يتضمنه صدرى ، فيَنثِل[٢] كنْه ما عندى ، ولا يلقاك بسَحْنةِ[٣] مُرْسِله ، التى تترجم عن نيته ،فإنى لكذلك أُمَيْلُ[٤] بين التقرير فى إتيانك قبل استئذانك ، أو تقدمةِ استطلاع رأيك ، إذ جاءنى البشير بإفراقك[٥] وإقبال العافية إليك ، وظهور تباشيرها عليك ، فانحَسَرَ[٦] كل هم ، وزال كل غمّ ، ورحُب[٧] من الأرض ما كان متضايقا علىَّ ، واستقبلتُ أملا سرَّتْنى جدَّته ، وسُرِّى[٨] عنى ما كنتُ أجده ، فالحمد للهِ الذى أشجَى[٩] عدوّك ، ولم يصدِّق طمعهَ ، وأزال غُصَّة وَلِيِّك ، ولم يحقِّق حَذَرَه ، وأنا أسأل الله الذى وهب لنا إقالته[١٠] ، وساقَ إليك عافيتهَ ، أن يَهَبَ لك عمرًا زائدًا على أمنيَّتك ، متجاوِزًا حدَّ إحسانك ، مُوفِيا[١١] على مَبلَغ ظنك ، ويصل العز لك فى أمَدِه ، بكريم المنقلبِ من بعده ، ويجعل حُسن بلائه عندك ، كمَدًا فى صدر حاسدك ، وجمالا فى عين مؤمِّلك ، وسرورا للمتصلين بك إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

---

(١) فى الأصل« فلستقل » وقد أصلحته « فاستقل » أى استبد واستأثر .

(٢٤ – جمهرة رسائل العرب – ثالث) .

(٢) من نثل الكنانة كضرب : إذا استخرج نبلها فنثرها . والمعنى فيبلغ ويؤدى وربما كان الأصل « فينقل » .

(٣) السحنة : الهيئة .

(٤) ميل بين أمرين : تردد بينهما أيهما يأتى ، وفى الأصل « أمثل وهو تصحيف .

(٥) أفرق من مرضه :برىء .

(٦) أى انكشف .

(٧) رحب : اتسع .

(٨) أى ذهب وانكشف .

(٩) أى أحزن .

(١٠) أقال الله عثرته : إذا رفعه من سقوطه ، والمعنى : وهب لنا شفاءه من علته .

(١١) أى زائد .

٢١ – كتاب له

وكتب :

« من قَصُر فى الشغل عمرُه ، قلَّ فى العُطْلة[١] صبرُه ، وما من وَجْهةٍ أُؤمِّل فيها سَدَّ اختلالى ، إلا دَهَمِتنى فيها خَيبةٌ تكسِفُ بالى ، وأنت مَن لا يتخطاه الأملُ فى أوان عُطلته ، ولا يجاوز رجاءَه الحِرمانُ فى حين ولايته ، وليس لذمّ عليك طريق ، ولا إلى مدحك سبيل ،لأنى إذا قلتُ فيك مالا تُعْرَفُ به ، عُورِضْتُ بالتكذيب ، وإن أتيتُ بما لَمْ تُولنِى ، طالبَتْ حالى بالتحقيق ، فلا يَرَى الناس فيها أَثَرَ تصديق ، وقد صفِرَتْ يدى من فائدتك ، بعد أن كنتُ ملأتُها من عائدتك[٢] ، فإن رأيت أن تُجبرَنى من الحَدَثان[٣] ، وتُقيلَنى من قَيْد الزمان ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٥)

٢٢ – ومن كلامه

« لك جَدٌّ[٤] تُنْجِده هَّمتك ، وإنعامٌ تَفُوه به نِعمتُك ، فهى تَحسِرُ[٥] الناظِرَ إليها ، وتُحيِّر الواقفَ عليها ، حتى كأنها تناجيه بحُسْن العُقبَى ، وتوحِى إليه ببعد المَدَى ، ولِلّهِ دَرُّ نابغةِ بنى ذُبْيان فى قوله :

مَجلَّتُهـــم ذاتُ الإلـــه ، ودينُهم قويمٌ ، فما يَرْجُون غيرَ العواقبِ[٦]

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

٢٣ – ومن كلامه

« من اتَّسَعَ فى الإفضال ، اتَسَعَتْ به الأقوالُ ، مِن شاكرٍ مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا

---

(١) تعطل الرجل : بقى لا عمل له ، والاسم العطلة .

(٢) العائدة : المعروف والصلة .

(٣) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه .

(٤) الجد : الحظ والخطوة والعظمة .

(٥) أى تقطع بصره وتكله .

(٦) هذا البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى يمدح عمرو بن الحرث الأصغر الغسانى ، ومطلعها :

كلينى لهم يا أميمةناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وجاء فى لسان العرب : « والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، كذلك روى بيت النابغة بالجيم ، « مجلتهم ذات الإله ... » يريد الصحيفة ، لأنهم كانوا نصارى ، فعنى الإنجيل ، ومن روى « محلتهم » أراد الأرض المقدسة وناحية الشأم والبيت المقدس ، وهناك كان بنو جفنة ، وقال الجوهرى : معناه أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة » .

نَصِفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَذِلُّ على ألسُنِنا ، مما يتقرّب به ذو الرغبة ، ويَضْرَعُ إليه ذو الرَّهبة ، لاستنزالِ مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولكننا ننطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُبين عنها بإيضاح ، فنكُفَّ شَغَبَ الكائد ، ونُطِيل نفَسَ الحاسد » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٤ – ومن كلامه

« كفى عارًا على راغب أن يَعْدِل برغبته عن الأمير ، إذ كانت عائدتُه تُشير إليها ، وتقِفُ راجيةً إليها ، فالقصدُ بها حيثُ يُومِى لها ، من مَنْبِتٍ رافع ، ومَسْرَح واسع ، أولَى بِراجِى نجاحِها ، وتصديقِ الأمل فيها ، من إيقافها على حَيْرَة ، وإقحامِها فى شُبهة لم يضِحْ نَهْجُ السبيل إليها ، ولا نُصِبَتْ أعلامُ جُودٍ عليها ، فأقلُّ ما فى الأمير من كرمِ الْخِلالِ ، يُرْبِى[1] على كثيرٍ من فنون المقال ، فجَهْدُ المادحِ له أن يبلغَ أدنى فضلِه ، كما أن غاية الشاكر[2] أن يَجْزِى أيسَرَ نعمِهِ ، فأطال الله مدته ، وأدام له دولته ، وتمَّم عليه نعمته » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٥ – كتاب له فى الاعتذار

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاَّء :

« لى ذنوبٌ إن عدَدْتُها جَلَّتْ ، وإن ضممْتُها إلى فضلك حَسُنَت ، وقد راجعتُ إنابتى ، وسلكتُ طريق استقامتى ، وعلمتُ أن توبتى فى حُجَّتى وإقرارى أبلغُ فى معذِرتى ، فهذا مقامُ التائب من جُرْمه ، المتضمِّن حسنَ الفيئة[3] على نفسه ، فقد كان عقابك بالحلم عنى ، أبلَغ مِن أمرِك بالانتصاف منى ، فإن رأيتَ أن تهَبَ لى ما استحققته من العقوبة ، لِمَا ترجوه من المَثُوبة ، فعلتَ إن شاء الله » . (الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٦ – ومن كلامه

« قد كان كتابى نَفَذَ إليك بما كان غيرُه أولَى بى ، وألْزَمَ لى فى حقِّ الحرية والكرم ، اللَّذَيْنِ جُعِلا لك إرْثا ، والشرفِ والفضلِ اللذين قُسِما لك حَظًّا ، ولكنّنى دُفِعْتُ من اتصال الزَّلَل ، والإخلال بالعمل ، إلى ما اضطرَّنى إلى محادثتك ، ودعانى إلى مخالفتك ، لأُجَلِّىَ عنى

---

(١) أى يزيد .

(٢) فى الأصل « الشكر » .

(٣) الفيئة : الرجوع .

هَبْوَة[1] الاتهام ، وأُصرفَ عنك عارِضَ المَلاَم ، وقد جَرَى لك المقدارُ بالسُّؤْدُد الذى خصَّك الله بمزيته ، وأفردَك بفضيلته ، فليس يحاول أحدٌ استقصاءَ عليك ، إلا عَرَض دونه حاجزٌ من واجبك ، يضطرُّه إلى ذِلَّة التنصُّل إليك ، ويحور ذلك عن التَّعمُّدِ » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٧ – كتابه إلى بنى سعيد بن مسلم

وكتب إلى بنى سعيد بن مسلم :

« لولا أن الله عز وَجل خَتَمَ نبوَّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكُتُبه بالقرآن ، لَبَعث لكم نبيَّ نِقمة ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر ، وما عَسَيْتُ أن أقول فى قوم : محاسِنُهم مَساوِى السِّفْلة ، ومَسَاويهم فضائِحُ الأمم ، وألسنتُهم معقولةٌ بالعِىِّ ، وأيديهم معقودةٌ بالبخل ، وأعراضُهم أغراض للذمّ ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثُرون وإن طالت حياتُهُمُ ولا تَبيدُ مخازيهـــم وإن بادوا

(زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٣٠)

٢٨ – كتاب له

وروى الصولى قال : ومن كلامه :

« لقد أَحَلَّك الله من الشرف أعلَى ذِرْوته ، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إليك مصرُوفةٌ ، والأعناقُ إليك معطوفةٌ ، عندك تنتهى الهِمَمُ السامية ، وعليك تقِفُ الظنونُ الحَسَنة ، وبك تُثنى الخناصِرُ[2] وَتُستَفْتَح أغْلاق[3] المَطالب ، ولا يَستَريث[4] النُّجْحَ مَن رجاك ، ولا تَعْرُوه النوائبُ فى ذَرَاك[5] » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

* * *

(١) الهبوة : الغبرة .

(٢) كناية عن أنه المعول عليه فى قضاء الحاجات والمآرب ، كما يقال : هو مطمح أنظار الآملين ومعقد رجائهم ومحط آمالهم .

(٣) الأغلاق : جمع غلق بالتحريك ، وهو القفل .

(٤) استرائه :استبطأه .

(٥) أى فى ظلك وكنفك .

وفى رواية أخرى للصولى أيضا قال :

قالوا للقاسم بن يوسف - أخى أحمد بن يوسف - أقبلتَ على الشعر وتركت البلاغة ، فقال : امتحنونى ، فقيل له : فاكتب إلى محمد بن منصور فى الرضا عن هذا الرجل ، فقد كان فى ناحيته ثم عَتَب عليه ، فكتب إليه :

« قد أحَلَّك الله من الشرف فى أعلى ذِرْوَته ، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إليك عائلة[1] والأعناق نحوكَ مائلة ، وإليك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقِفُ الظنون الراجية ، يستريثُ نُجْحا مَن رَجَاك ، ولا تعْرُوه النوائبُ فى ذَرَاك .

وفلان ممن قدمتْ بك حُرْمَتُه ، وطالت لك خدمته ، ووجَبتْ لك حقوقٌ عليه ، وهى أوكدُ وسيلة ، واقصد ذريعة ، وقد فَرَطَ [2] جُرْمٌ ما تعمَّده وخطأٌ جَرَى القضاء به ، وفى عَتْبك ما قَوَّمه ، وفى عفوك ماتَلافَى زلَّته ، إن شاء الله »

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٩٧)

٣٠ - كتاب لأحمد بن يوسف فى العدل والإنصاف

« لو لم يكن العدلُ من شيمتك ، والإنصافُ من خليقتك ، لكان يجب عليك فى قَدرِ نعمةِ الله عندك ، وما رَفَعَ إليه من الفضل غايتك ، أن تتَّخذهما عَتادا[3] ليومك ، وذُخْرًا لِغَدِك ، فكيف وقد جعلهما الله شعارًا باطِنًا ، ولِباسًا ظاهرًا ؟ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٥٩)

٣١ - كتابه فى إنصاف قوم تظلموا

« أما بعد ، فإن الله جَلَّ ثناؤه جَعَلَ عِزَّ السلطان فى أرضه مَعاذا يلجأ إليه مَن اضْطُهِد بقوة ، أو عُدِىَ عليه بمظْلِمَة ، وحجابا بين الساعين بالفساد وبين مايتشوَّفون إليه ، ويتنازعون نحوه ، من ركوب الكبائر ، وانتهاك المَحارم[4] ، ومَوْئلا لمن استُرِقُّوا[5] من أهل الضعف ،

(١) أى عائلة ، يقال : عالت الفريضة فى الحساب : أى زادت وارتفعت ، والمعنى : قد اتجهت إليك الآمال وتكاثرت حتى جازت الحد .

(٢) أى سبق .

(٣) العتاد : العدة .

(٤) فى الأصل « المهارم » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل هكذا « ويورل من اشتركوا من أهل الضعف بالعدا والعسف » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى . والموئل : الملجأ .

بالعُدْوان والعَسْف ، والولاةُ مسئولون عما خُوِّلوا ، مُرْتَهَنون بما حُمِّلوا ، حتى يكفَّه عدلٌ ، أو يوبِقهم [1] جَورٌ ، وقليلُ ما يقتحِّمُ[2] العُمَّالُ من سوء السِّيرة ، أو يرغبون فيه لأتباعهم من الغَميزة [3] ، أشدُّ للقلوب [إفسادًا] [4] ، ولكافّة الرعية إجحاما[5] ، مما يتساورون[6] به بينهم ، للمحلِّ الذى نُصِبَتْ له الرُّعاةُ من إصراخ [7] الملهوفين ، والأخذِ فوق أيدى المعْتَدين ، وما يسكِّن فائرةَ[8] مَن انتصر بهم ، فلم يدفعوا عن حَوْزته من القُنُوط والإياس .

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا وكذا ، فأنكر ذلك إنكارًا لم يردِ عليه مثلُه ، وكان أحقُّ مَن غُلِظ عليه فى التنكيل ، وضوعِفَ له التأديبُ ، مَنْ كان مِن أعوان السُّلطانِ ، الذين التمسَ بهم إحياء العدل وَإماته الجور ، فانظر نظرًا تقضى به حقَّ الله وحقَّ الناس ، غيرَ متجانِف[9] بصغوٍ إلى أحد ممن مال عن القَصْد ، ثم أنفِذْ بينهم ما ألزَمَهم الحكمُ ، غيرَ متحاوزٍ للحقِّ ، ولا معطِّلٍ للحكم ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وقال : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٥٩)

٣٢ – كتاب له فى السلامة

« أما بعدُ ، فإن بلاء الله عند أمير المؤمنين ، مع ما يَحُوط له ما ستحفَظَه واسترعاه وتولاه من حسن الخلافة فيما قرُبَ منه ونَأى ، وتعقُّب من الصُّنْع على من شاقَّه[10] وناوأه ، البلاءُ الذى حقَّ علينا وعلى عامة رعيته القولُ فيه وإذاعتُه والحديثُ عن النعمة الشاملة والكرامة المجلِّلةِ فيه ، واللَّهَ نسأل كذا .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨ و٣٧٨)

---

(١) أوبقة : أهلكه .

(٢) اقتحم الأمر العظيم وتفحمه : رمى بنفسه فيه من غير روية .

(٣) الغميزة : المطعن أو المطمع .

(٤) ما بين القوسين بياض بالأصل .

(٥) أجحمه . دنا أن يهلكه .

(٦) أى يتواثبون ، ساوره : واثبه » وكذا ثاوره ، وفى الأصل « يتشاورون » وهو تحريف .

(٧) أى إغاثة .

(٨) فى الأصل « إفادة » وأراه محرفا عن « فائرة » أى ثائرة ، يقال : فار فائرة : أى ثار ثائرة .

(٩) تجانف : مال ، من الجنف بالتحريك . وهو الميل ، والجور . والصغو : الميل ، يقال : صغوه بالفتح والكسر وصغاه معك : أى ميله . والقصد : الاستقامة .

(١٠) شاقة : خالفه . وناوأه : عاداه أيضا .

٣٣ – وله صدر فى السلامة

« إن من أعظم النظم عند الخاصَّة والعامَّة موقعًا ، وأوجبِها عليهم شكرًا ، سلامةَ أمير المؤمنين التى جعلها الله عمادَ الدين ، وقوامًا للمسلمين ، وجعل بها فواتحَ اليُمن والبَرَكة ، وفوائد السرور والغبِطة لكافّة المؤمنين » .

(اخيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨ و ٣٧٤ و ٣٧٨)

٣٤ – فصل له فى السلامة

« وقد أفادنى الله بما ورد علىَّ من كتاب أمير المؤمنين سرورًا وابتهاجًا أيام أظلَّ ما أظلَّ من بركات اقترابه ، وشارَفَ من اليُمْنِ والسعادة فى رؤيته ، وامتدت بذلك فيمن قبلى ، فكلٌّ سُرَّ واستبشر ، ودعا وتشكرَّ » .

(اخيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

٣٥ – فصل له فى الشكر

لم يخطِئنى من النعم ما أصابك ، ولا عدانى منها مَا حَلَّ بك ، ولا خلوتُ من واجب حقها وما نَفَلك[1] الله منها إذ قلَّدتها ، اعتدادًا منى بما طُوِّقْتَ من المَنِ ، وإيجابا على نفسى لما حَملتُ من الشكر »

(اخيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٠)

٣٦ – فصل له فى الشكر

« ذَكَر أمير المؤمنين كذا ، وَليس ما تقدَّم من رأيه فى الاستنامة [2] إلىَّ ، والسكونِ إلى قولى ، حالاً يَفِى بها الشكرُ ، وَإن حُظِر عليها ، وَأفْرِد بتأديتها ، فيكون فيه اتساع لِما اتصَّلَ بها ، وتظاهرَ بعدها » .

(اخيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٢)

٣٧ – كتاب له فى الشكر

« وقد قدِمَ علىَّ فلانٌ بِمَا حَمَّله أميرُ المؤمنين من كتابه وكرامته ، فكفَى صنيعةً من أمير

---

(١) أى أعطاك .

(٢) استنام إليه : سكن واطمأن .

المؤمنين وسعادةً إخلاصُ أمير المؤمنين الدعاءَ له فى كتبه ، وتطلُّعه إلى علمِ خبَره ، وتوجيهُ ذا الثقة والنصيحة مِن خدمة ليصدُرُ إليه بسلامته ، فوفَّاك الله يا أمير المؤمنين جزاءَ هذه الكرامات التى تُظاهِرُ بينها ، وتَرُبُّ[1] نعِمَك فيها ، وتُتْبع ما قدَّمتَ بما استأنفتَ منها ، وشكر الله لك ما أصبحت مشكورا به من الوفاء على ألْسن البشر ، طيِّبا عليك النَشرُ فى جميع الأمم .

وقد كان كذا ، وحضَرنى فى يوم جلومى لإظهار[2] كرامته منَ قبَلِى من قواده ، فكان مِن دعائهم لأمير المؤمنين ، وَتحَمُّلِ كل امرئ منهم بِقسْطه من شكره ، ما أسأل الله أن يتقبَّل رَغَباتهم إليه ، ويقضىَ عنهم الحقَّ بما عملوا له » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٣٨ – كتاب له فى الاعتذار

« أما بعد ، فإن لكل ذنب عفوا أو عقوبة ، وذنوب الخاصَّة عندك مستورة مغفورة ، فأما مِثلى من العامَّة فذنبهُ لا يُغفَر ، وكسْرُه لا يُجبرَ ، فعاقِبْنى بإعراضٍ لا يؤدّى إلى مَقْتٍ »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

٣٩ – كتاب آخر

« أتيتكُ وَافِدًا بذنوبى على عفوك ، واثقًا لعقوقى ببرّك ، لا مستظهرًا عليك بشفيعٍ قدَّمْتُه ، خلا تطوُّلك بالعفو عن الإخوان ، وتفضُّلك عليهم بالإحسان ، فإن تعاقِب فقد حكمْتَ بالمعدِلة بعقوبتك على نفسى ، وإن تَجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرَّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء ، لدالَّة الحُرْمة ، والاستعطاف بمأتَّةِ الخِدمة ، فهو مما يُعدُّ فى الحسنات لا السيئات » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٤٠ – كتاب آخر

« قد ارتهنتُ لك الشكرَ من نفسى ، معرفةً بالتقصير عن حقك ، واعتقدتُ لك الميثاقَ ، على علمى بِحمدْ الوفاء فى أمرك ، فأنا وكيلُك على ما أصلَحَ الله لك قلبى ، وأمينك فى المناصحة لحجَّتك على نفسى ، والله على ذلك شهيد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

---

(١) رب النعمة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٢) فى الأصل « طهار » وهو تحريف ، وصوابه « لإظهار » .

٤١ – كتاب آخر

« قد يَسَع العُذرُ مَن ضاقت عليه الحُجَّةُ ، وحيث قَبُحَت الاستكانةُ فهى هاهنا حَسَنة ، ولعلَّ الله أن يَهَبَ لنا نَفَسًا [١] فى المُدَّة نتلافى به سالِفَ التفريط والإضاعة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٤٢ – كتاب له فى حاجة

« قد كان لك فلان على مابلغك فى الفضل وجميل الأخلاق ، وقد حواهم [٢] الله لك وصيَّرهم فى ظِلِّك وتحت جَناحك ، فإن رأيتَ أن تَرْعى ما تقدَّم لهم عندك من المعروف ، فإن عليك أن تَربَّه[٣] كما عليهم أن يشكروه ، ..[٤] مَن انقبضْتُ عنه فى حوائجى ، فإنى أنبسِطُ إليك وآنسُ بك فيها ، ومن ادّخرتُه ذات نفسى فإنى أبثُّك إياها لِخِلالٍ كثيرةٍ ، خارَ الله لك فضلَها ، وقدّمك على غيرك عندى بها : قبلَ اللقاء على حسن الأحدوثة ، وبعدَه على محمود الْخِبرة ، والله أشكُرُ على السبب الذى وصله بيننا شكرًا أستثيبهُ به إتمامَ ما وصَلَ منه ، وإعاذَته من تخوُّنِ[٥] الحوادث إياه .

وكان إتيانى إياك – أعزك الله – فى حوائجى ، بعد أن طال بغيرك تشاغُلى . وبعد أن استهلكتْ إضاعتُه الواجبَ فى أمرى ، واتكالُه على لين مطالبتى ، سُلَّما كنتُ أعتمد عليه ، وأتروَّح إليه ، فأتيتُك حين أنفدَ الصبرُ مدتَه ، وبلغ المكروهُ غايتَه ، ولم يبق من السِّتر إلا ما كاد أن يَشِفَّ عما دونه ، أُلزِمُك عِمارةَ حالٍ أبْدى سواها خَلَلَها ، وأُعْجِلُك فى تدارُك أمور تَسَلَّف التفريط من غيرك مَهَلَها ، فتلقَّيتَ بالقبول وسائلى ، وبالإنجاز حاجتى ، وأعجلْتَنى عن الشكوى بالعلم بالداء ، وتضمُّن الدواء ، ثم م تجعل جاهَك ، مع كثرته وانبساطه ، مندوحةً[٦] عن مالك مع قلة مادته ، وضعفه عما تُحمِّله ، بَذْلا قبل المسألة ، وتطوُّعا بعد الفريضة ، ولا والذى جميلُ رأيِك مِنْ عظيم نعمِه عندى ، ما أصبحَتْ لى هناك عَرجةٌ إلا عليك ، طالت أم قصُرَتْ ، ولا أنتظر بها فُسْحةً إلا مِن

(١) النفس : السعة والفسحة فى الأمر .
(٢) تنبه إلى أنه لم يتقدم لهذا الضمير مرجع .
(٣) رب المعروف كنصر : نماه وزاده وأتمه وأصلحه .
(٤) بياض بالأصل .
(٥) تخونه : نقصه .
(٦) المندوحة .السعة .

قِبلِك ، تقدَّمَت أو تأخرتْ ، ولا أتشبَّثُ فى مقامى إلا بعُلْقة[1] متراخيةٍ عن الوثيقة ، لا فضل فيها للأناة والنظر ، ولا تبلُغُ أن تكون بُلغةَ ، فرأيُك فى الأمر الذى رغِبتُ إليك فيه ، وهو حَسنٌ موقِعه ، محتَلّ إليك موضِعُه ، مستكثرٌ قليلُه ، مقبولٌ عفوهُ »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩١)

٤٣ – كتـاب لـه فى الشوق

وكتب إلى صديق له يشكو شوقه إليه :

« شوقى إليك شديد ، يستوى فى العجز عن صفته الخطيبُ البليغ وَالعَىُّ المُفْحَم[2] فدعانى ذلك إلى الخَفْض على نفسى ، وتقديم جملة من ذكره إذا عارضْتَ بها ما فى قلبك كانت له موافِقةً ، بل كانت عليه مُفْضِلةً[3]

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٦)

٤٤ – فصل له فى الإخاء

وليس ينبغى لك أن تؤاخىَ إلا الكريمَ الأُخُوَّة ، الكاملَ المُرُوَّة ، الذى إذا غبْتَ خلَفَك ، وإذا حضرت كَنَفك ، إن لقِىَ صديقك استزاد لك فى مودّته ، وإن لقِىَ عدوك كَفَّ عنك من عاديته ، إن رأيته ابتهجتَ ، وإن أتيتهُ استرحتَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٨)

٤٥ – كتاب له فى العتاب

وكتب أحمد بن يوسف :

لولا حُسْنُ الظن بك – أعزَّك الله – لكان فى إغضائك عنى ما يَقْبِضُنى عن الطَّلْبة[4] إليك ، ولكن أمسَكَ برَمَقٍ من الرجاء عِلْمى برأيك فى رعاية الحق ، وبسْط يدك إلى الذى لو قبضْتَها عنه لم يكن له إلا كرمُك مُذكِّرًا ، وسُودَدُك شافِعًا » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

---

(١) العلقة : كل ما يتبلغ به من العيش .
(٢) المفحم : العى
(٣) أفضل عليه : زاد .
(٤) الطلبة : الطلب

وكتب أيضًا :

« لا تجوز قطيعةٌ ، لأنها لا تخلو من أحد وجهين ، إما ضعف فى نفس الاختيار ، وإما مَلَل ، وكلاهما حُجّة فيه » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

٤٧ - كتاب له فى الذم

وكتب يذم :

« أما بعد ، فإنى لا أعرِف للمعروف طريقًا أوعَرَ من طريقه إليك ، فالمعروفُ لديك ضائع ، والشكرُ عندك مهجور ، وإنما غايتُك فى المعروف أنِ تحَقِره ، وفى وليِّه أن تكْفُرَه » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٤٨ - كتاب له فى الذم

وله فى الذم إلى وَالٍ :

« أَمَا والله إن كنتَ لَمسيئاً إلى جندك ، مُخطِئًا لحظِّك ، غيرَ نبيل فى عملك ، ولا مُصيب عزَّك عن عمل فى حكمك ، تحيف فى القضاء ، وتتبِّع الهَوَى وتقبَل الرِشا ، لستَ الثابت الرزينَ ، ولا الحليمَ الركينَ[1] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

٤٩ - كتاب أحد غلمان الديوان إلى آخر منهم

قال أحمد بن يوسف :

كتب غلام من ولد أنُو شِرْوانَ ممن كَان أحدَ غِلْمان الدِّيوان إلى آخَرَ منهم ، وكان قد عَلِقَ به وكَان شديد الكَلَف[2] به والمحبة له :

« ليس من قَدْرِى - أدام الله سعادتك - أن أقول لِمِثْلك : جُعِلْتُ فِداك ، لأنى أراك فوق كُلِّ قيمة نَضِيرة ، وَتَمنٍ مُعْجِز ، ولأن نفسى لا تساوِى نفسك ، فتُقْبلَ فى فِدْيتك على كل حال ، فجعلنى الله فِداءَ ساعةٍ من أيامك .

(١) الركين : الرزين وفعله ككرم .
(٢) كلف به كفرح : أولع .

أعلم أيها السيد العَلِيُّ المنزِلةِ ، أنَّه لو كانَ لعَبْدِك من شدة الخَطْبِ أمرٌ يقف على حَدَّه النعتُ ، لاجْتَهَد أن يصِف من ذلك ما عسى أن يَعْطِفَ به زمام قلبك ، ويَحْنُو على الرَّقة والتحفِّي[1] أثناءَ جَوانحك ، ولكن الذى أمسيتُ وأصبحتُ مُمْتَحَنًا به فيك ، مُنِعَ عن كل بيان ، ونَزَح[2] عن كل لسان .

والحبُّ أيها الملك لم يَشُبْهُ قَذَى[3] رِيبةٍ ، ولم يختلط به قلبُ مَعابٍ ، فلا ينبغى وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقى أبُو الطيب يعنى (طاهرًا) شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

« تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٨ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٦ : ١٢٤ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ص ٤٣ ، وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٣٦)

٥٠ – كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه :

« أما بعدُ : فإنه قد حَدَث من الرُّزء العظيم – بوفاة ذى اليمينين – ما إلى الله جَلَّ وعزَّ فيه المَفْزَعُ والمرْجعُ ، وفيه عليه المستعانُ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، اتّباعا لأمر الله ، واعتصاما بطاعته ، وتسليما لنازل قضائه ، ورجاءَ لِمَا وَعَد الصابرين : من صلواته ورَحمته وهداه ، وعند الله تحتَسِب مصيبتنا به ، فقد كان سبق إلى القلوب عند بَدَاهة الخبر ، من اللَّوعة واطِّلاعِ[4] الفجيعة ، ما كنا نخاف إحباطه من الأجر ، لولا ما تدارَكَنا الله به من الذِّكر لِمَا وَعَد أهلَ الصبر ، فنسأل الله أن يَرْأَبَ[5] هذه الثُّلْمَة ، ويسُدَّ هذه الخَلَّة بأمير المؤمنين أوَّلا ، وبك ثانيا ، وَأن يعَظِّم مَثوبتك ، وَيُحْسِن عُقباك ، ويخلُف بك ذا اليمينين ويَعْمُر بك مكانَه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين .

---

(١) حناه يحنوه عطفه ، وتحفّى به واحتفى : بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله .

(٢) غاب وبعد .

(٣) القذى : ما يقع فى العين والشراب . والمعاب : العيب .

(٤) أى وإشرافها على القلوب وإحراقها إياها ، أخذه من قوله تعالى : « نَارُ اللهِ الموقَدَةُ الّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ، أى يبلغ ألمها الأفئدة ، توفى عليها فتحرقها ، من اطلع : إذا أشرف .

(٥) رأب الصدع كمنع : أصلحه ، والخلة : الثقبة الصغيرة أو عام .

فأما ما تحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لُبِّك فى حال العِزَّة والنَّماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تَعرُو به الأيام من نوَائبها ، وتَبْعَث به من حوادثها ، وفى هذا لمن وُفِّق له إعدادٌ للنوازل ، وتوطينٌ للأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هَلَعٌ ولا إفراطُ جَزَع بإذن الله ، مع أن مَرَدَّ كلِّ ذِى جَزَع إلى سلْوة لا ثبات عليها ، فأَوْلَى بالراغب فى ذَاتِ الله أن يَهتبِل[1] مَثوبَته فى أوانها ، من مَضَض الأسى ، وفجأة النكبة ، وأَوْلَى بِذى اللُّبِّ إذَا علم ما هو لابدَّ صائِرٌ إليه ألاَّ يُبْعد منه إبعادًا يلزمُه التفاوت عند التأمل واختلاف الحالين فى بعد الأمد بينهما .

وقد كنتُ أحبُّ ألاَّ أقنَع فى تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسى ، لو أمكننى المسيرُ ، إجلالاً للمصيبة ، وتأنُّسا بقربك ، بعد الذى دخلنى من الوَحْشة ، فقد عَرَفتَ ما خصَّنى من المرْزِئة بذى اليمينين ، لِمَا كنتُ أتعرَّف من جميل رأيه ، وعظيم برِّه حَاضرًا ، وما كان يَذْكُرنى به غائبا ، ذكَرَه الله فى الرفيق الأعلى ، وأنت وارِثُ حقِّه علىَّ ، إلى ما كنتُ لك عليه ، من صدق المودّة وخالص النصيحة ، وإلى الله أرغب فى تأدية شكرك ، والقيام بما أوجبه لك ، فإن رأيت أن تأمر بالكتاب إلىَّ بما أبْلاك[2] فى نفسك ، وألْهَمَك من العَزاء والصبر ، مع ما أحببتَ وبَدَا لك إن شاءَ الله » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٤ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

٥١ – كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عُبيد الله بن السَّرِىِّ إليه يهنئه بذلك الفتح :

« بَلَغنى – أعزَّ الله الأميرَ – ما فَتَح الله عليك ، وخروجُ ابن السَّرِىِّ إليك ، فالحمدُ للهِ الناصرِ لدينه ، المُعِزِّ لدولة خليفته على عباده ، المُذِلِّ لمن عَنَدَ[3] عنهُ وعن حقِّه ، وَرَغِبَ عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهِرَ له النِّعَمَ ، ويفتح له بُلدَانَ الشِّرك ، والحمد لله على ما وَلِيك به مُذْ ظَعَنْتَ[4] لِوَجْهك ، فإنَّا وَمَن قِبَلَنا نتذاكَر سِيرَتك فى حَرْبك وسِلْمِك ، ونُكْثِر التعجُّبَ لِما وُفِّقتَ له من الشدة واللِّيان فى مواضعهما ، ولا نَعْلم سائِسَ جندٍ

---

(١) أى يغتنم .
(٢) أى أنعم عليك .
(٣) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال .
(٤) ظعن كمنع : سار .

ورعيةٍ عَدَلَ بينهم عَدْلَك ، ولا عَفَا بعد القدرة عمن آسَفَه[1] وأضْغَنَه عَفْوَك ، ولَقَلَّما رأَيْنا ابنَ شَرَفٍ لم يُلْقِ بيده متَّكِلاً على ما قدَّمَتْ له أُبُوَّتُه ، ومن أُوتِيَ حَظًّا وكِفاية وسلطانا وولاية ، لم يُخْلِدِ إلى ما عفا[2] له حتى يُخِلَّ بمُساماةِ ما أَمَامَه ، ثم لا نعلَم سائِسًا استحقَّ النُّجحَ لحُسْنِ السيرة ، وكفِّ مَعَرَّة الأتباع ، استحاقَك ومَا يستجيزُ أحدٌ ممن قِبَلَنا أن يقدِّم عليك أحدا يَهْوَى عند الحاقَّةِ[3] والنازلة المُعْضِلَة ، فلْيَهْنِيكَ[4] مِنَّةُ الله ومَزِيدُه ، ويُسَوِّغْك الله هذه النعمة التى حواها لك ، بالمحافظة على ما به نمَّتْ لك ، من التمسُّك بحَبْلِ إمامك ومولاك ومولى جميعِ المسلمين ، ومَلاَّكَ[5] وإيانا العيشَ ببقائه ، وأنت تعلم أنَّك لم تَزَل عندنا وعند مَن قِبَلَنا مَكرَّما مُقَدَّما مُعَظَّما ، وقد زادك الله فى أعين الخاصَّة والعامَّة جلالة وبَجَالَة[6] ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويُعِدُّونك لأحْداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفِّقك اللهُ لمحَابِّه كما وَفَّق لك صُنْعَه وتوفيقه ، فقد أحسنتَ جِوارَ النعمة فلم تُطْغِك ، ولم تزدَدْ تذلُّلا وتواضُعا ، فالحمدُ لله على ما أنالَك وأَبْلاَكَ[7] وأَوْدَعَ فيك ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥٠ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٨)

٥٢ – أحمد بن يوسف

ووقع أحمد بن يوسف إلى عامل ظالم :

« الحقُّ واضح لِمَن طَلَبه ، تَهْديه مَحَجَّتُه ، ولا تُخَافُ عَثْرَتُه ، وتُؤمَن فى السِّرِّ مَغَبَّتُه ، فلا تنتقلن منه ، ولا تعدلنَّ عنه ، فقد بالغت فى مناصحتك ، فلا تُحْوِجْنى إلى معاودتك ، فليس بعد التقدِمَة إليك ، إلا سَطْوةُ الإنكار عليك » .

* * *

(١) آسفه : أغضبه .

(٢) عفاالشىء : إذا كثر وزاد .

(٣) الحاقة : النازلة .

(٤) فى الأصل « فليهنك » وجاء فى لسان العرب والمصباح المنير « تقول العرب فى الدعاء : ليهنئك الولد ، وليهنئك الفارس ، بجزم الهمزة ، وبإبدالها ياء ساكنة ، ولا يجوز ليهنك بحذف الياء كما تقول العامة » . أقول : والوجه فى إبقاء الياء مرعاة أصلها وهو الهمزة ، وأن ذلك الإبدال عارض للتخفيف لا يعتد به وإلا فالحق حذف الياء لموجب الجزم .

(٥) ملاك الله حبيبك تملية : متعك به وأعاشك معه طويلا .

(٦) بجله تبجيلا : عظمه ، وقد يجل ككرم بجالة وبجولا .

(٧) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبلاه الله بلاء حسنا .

— ٥٣ —

ووقع فى كتاب رجل يحثه على استتمام صنائعه عنده :

« مستَتِمُّ الصنيعة مَن صابَرَها ، فعَدَّل زَيْغَها ، وأقام أوَدَهَا ، صيانة لمعروفه ، وَنُصْرَةً لرأيه ، فإنَّ أول المعروف مستخَفّ ، وآخِره مستثْقَل ، تكاد أوائله تكون لِلْهَوَى ، وأواخِرُه تكون للرأْى ، ولذلك قيل :[1] رَبُّ الصنيعةِ أشَدُّ مِنَ ابتدائِها » .

* * *

— ٥٤ —

ووقع فى عناية بإنسان إلى بعض العمال :

« أنا بفلان تامُّ العناية ، وله شديد الرعاية ، وكنت أحبُّ أن يكون ما أرعيتُه طَرْفَك من أمره فى كتابى ، مستودَعًا سَمْعَك من خطابى ، فلا تَعدِلَنَّ بعنايتك إلى غيره ، ولا تَمْنَحَنَّ تَفَقُّدَك سواه ، حتى تُنيلَه إرادته ، وتتجاوز به أُمْنِيَّتَه ، إن شاء الله » .

* * *

— ٥٥ —

ووقع إلى رجل غصب رجلا على ضَيْعة وكان غائبًا فاستغَلَّها سنين ، وقَدِم الرجلُ فطالبه فقال : الضيعةُ لى وفى يدى ، فوقع إليه أحمد بن يوسف :

« الحق لا تَخلُق[2] جِدَّتُه ، وإن تطاولَتْ بالباطل مدتُه ، فإن أنطقتَ حُجَّتَك بإفصاح ، وأزلْتَ مُشْكِلَها بإيضاح — غيرَ « لى وفى يدى » فكثيرًا ما أراها ذريعةَ الغاصبِ ، وحجةَ المغالبِ — وُفِّر حقُّك عليك ، وسِيقَ بلا كَدٍّ إليك ، وإن ركَنْتَ من البيان إليها ، ووَقَفْتَ من الاحتجاج عليها ، كانت حُجَّتُه بالبينة أعلَى ، وكان بما يدَّعيه أولَى ، إن شاء الله » .

* * *

(١) رب الصنيعة كنصر وزادها وأتمها وأصلحها ، وفى زهر الآداب « تتميم الصنيعة .. » .

(٢) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى .

— ٥٦ —

ومن توقيعاته :

« ما عند هذا فائدة ولا عائِدة[1] ولا له عقل أصيل ، ولا فعل جميل »

* * *

— ٥٧ —

ووقع إلى عامل قد أخَّرَ حَمْلَ مالٍ :

« قد استبطأْتُك الإغفالُ ، وأبطَرَك الإهمالُ ، فما تُصْحِب قولَك فعلاً ، ولا تُتْبِعُ وعدَك إنجازا ، وقد دافعْتَ بمال نَجْمٍ[2] لَزِمَك حَمْلُه ، حتى وَجَب عليك مِثْلُه ، فاحمل مالَ ثلاثةِ أنْجُمٍ ، ليكون ما يُتعجَّل منك أداءَ ما أُخِّر عنك إن شاء الله » .

* * *

— ٥٨ —

ووقع إلى رجل استماحه :

« ودِدْتُ لو ملكتُ بغيتَك ، لبلَّغْتُك أُمنيَّتَك ، ولكنى فى عمل قصدتُ فيه اتخاذَ المحامد ، وعَدَلتُ عن اقتناء الفوائد ، فَخسٌّ[3] نصيبى من الوَفْر ، ووَفْرَ حظى من الشكر ، وقد أمرتُ لك بما يجِلُّ عنه قدرك ، غيرَ مختارٍ له ، بل مُضطرًا إليه ، فليكن منك عُذرٌ فيه ، وشكرٌ عليه ، إن شاء الله » .

---

(١) العائد : المنفعة والمعروف .

(٢) النجم والقسط / الحصة ، وكانت العرب توقت بطلوع النجوم ، لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجما نجوّزًا لأن الأداء لا يعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا ما يؤدى نجما لوقوعه فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه فقال : نجمت الدين تنجيما إذا جعلته نجوما .

(٣) فى الأصل « فحسن » وأرى أنه محرف وصوابه فخس وهو ما يقتضيه المقام ، والوفر : الغنى .

« المصادر والمراجع والدّوريّات »

« المصادر »

١ – **الأبشيهى** (**شهاب الدين محمد بن أحمد**) : المستطرف فى كل فن مستظرف ط . الحلبى – مصر – ١٩٥٢ .

٢ – **ابن الأثير** : (**ضياء الدين**) : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . ت : د . أحمد الحوفى ، ود . بدوى طبانة – ط – نهضة مصر .

٣ – **ابن الأثير** : الكامل فى التاريخ ، دار صادر – بيروت – لبنان .

٤ – **الأصفهانى** : (**أبو الفرج**) : الأغانى – ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .

٥ – **البغدادى** : (الخطيب أبى بكر أحمد بن على) : تاريخ بغداد أو مدينة السلام . المكتبة السلفية – المدينة المنورة .

٦ – **البيهقى** : (ابراهيم بن محمد) : المحاسن والمساوئ . دار صادر – بيروت – ١٩٧٩ .

٧ – **ابن تغر بردى** (جمال الدين أبى المحاسن يوسف) . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – ط . وزارة الثقافة – ط ٢ المؤسسة المصرية .

٨ – **ابن تميم التميمى** (محمد بن أحمد) : كتاب المحن – ت : د . يحيى وهب الجبورى – ط . المكتبة العصرية – صيدا .

٩ – **التوحيدى** (**أبو حيان**) : كتاب الإمتاع والمؤانسة . ت : د .أحمد أمين ، ود . أحمد الزين ط : المكتبة العصرية– بيروت– صيدا

١٠ – **الثعالبى** (**النيسابورى أبى منصور**) **ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب** ، **ت** : محمد أبو الفضل – ط . دار المعارف – ١٩٨٥ .

١١ – **الثعالبى** : كتاب الكناية والتعريض ، ط أولى . الخانجى – مصر – ١٩٠٨ .

١٢ – **الثعالبى** : كتاب خاص الخاص – ط . دار مكتبة الحياة– بيروت – لبنان .

١٣ – **الجُرجانى** : (القاضى أبو العباس أحمد بن محمد) : المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء – الخانجى – ١٩٠٨ .

١٤ – **الجهشيارى** : (أحمد بن عبد ربه) نصوص ضائعة فى كتاب الوزراء والكتاب ط . دار الكتب – لبنان .

١٥ – **الجهشيارى** : (كتاب الوزراء والكتّاب – ت : مصطفى السقا . وإبراهيم الإبيارى – الطبعة الثانية ١٩٨٠

١٦ – **ابن حجة الحموى (تقى الدين أبى بكر)** : ثمرات الأوراق فىالمحاضرات .

١٧ – **الحصرى القيروانى (أبى اسحاق)** : زهر الآداب وثمر الألباب – ت/ على محمد البجاوى – ط . عيسى الحلبى ، مصر .

١٨ – **الحلبى (شهاب الدين محمود)** : حُسن التوسل إلى صناعة الترسُّل ت : أكرم عثمان يوسف العراق – ١٩٨٠ .

١٩ – **الحنبلى (ابن العماد)** : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – ط . دار المسيرة – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٧٩ .

٢٠ – ابن خلكان (أبى العباس شمس الدين أحمد بن بكر) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ت إحسان عباس .

٢١ – **الدينورى (أبى حنيفة)** : الأخبار الطوال . ت : عبد المنعم عامر – ط وزارة الثقافة – الحلبى – ١٩٦٠ – الطبعة الأولى .

٢٢ – **الذهبى** : (الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) سير أعلام النبلاء ، الطبعة الأولى – مؤسسة النبلاء . ١٩٨٣ .

٢٣ – **الذهبى** : تذكرة الحفاظ . ط . دارالفكرالعربى – بيروت – لبنان .

٢٤ – **الزركلى (خير الدين)** : الأعلام – الطبعة الثانية –بيروت – ١٩٦٩ .

٢٥ – **السكاكى (يوسف أبى بكر محمد بن على)** – مفتاح العلوم – ت نعيم زوزو ط . دارالكتب العلمية . بيروت – لبنان . ١٩٨٣ .

٢٦ – **السيوطى** : (جلال الدين عبد الرحمن بن بكر) : تاريخ الخلفاء – ت : محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢٧ – **الصولى** : (أبو بكر محمد بن يحيى) أدب الكُتّاب . ت : محمد بهجة الأثرى .

٢٨ – **ابن طباطبا** : (محمد بن على بن طباطبا) : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية – ط . دار بيروت – ١٩٦٩ .

٢٩ – **الطبرى** : (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك .

٣٠ – **العاملى** : (بهاء الدين محمد بن الحسين) : المخلاة . ت : محمد خليل الباشا – ط . عالم الكتب – بيروت – ١٩٨٢ .

٣١ – **ابن عبد ربه** : (أحمد بن عبد ربه الأندلسى) : العقد الفريد ط . لجنة التأليف والترجمة – ١٩٧٣ .

٣٢ – **العسكرى** : (أبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل) : كتاب الصناعتين ، ت : على محمد البجاوى – عيسى الحلبى – القاهرة .

٣٣ – **ابن قتيبة الدينورى (أبى محمد عبد الله)** : الشعر والشعراء . ت : أحمد محمد شاكر – ط . دارالتراث العربى .

٣٤ – **ابن قتيبة** : عيون الأخبار

٣٥ – **ابن قتيبة** : الإمامة والسياسة .

٣٦ – **قدامة بن جعفر (أبو الفرج)** : كتاب نقد النثر – ط . دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

٣٧ – **القلقشندى** : (**أحمد بن على**) صُبح الأعشى فى صناعة الإنشا . ط . دار الكتب العلمية – لبنان – ١٩٨٧ .

٣٨ – **الكَتبىَ (محمد بن شاكر)** : فوات الوفيات . ت د . إحسان عباس ، ط . دار صادر – بيروت – لبنان .

٣٩ – **ابن كثير (الحافظ الدمشقى)** . البداية والنهاية – ط . مكتبة المعارف – بيروت الطبعة الثانية – ١٩٧٧ .

٤٠ – **الكلاعى (أبى القاسم محمد بن عبد الغفور الأشبيلى)** : أحكام صنعة الكلام . ت : محمد رضوان الداية – ط . بيروت – لبنان – ١٩٨٥

٤١ – **المُبرِّد (أبى العباس محمد بن يزيد) الكامل . ت** : محمد أبو الفضل إبراهيم .ط . دار نهضة مصر ، القاهرة .

٤٢ – **المسعودى** : (**أبىالحسن على بن الحسين على**) : مروج الذهب ومعادن الجوهر . ت محمد محيى الدين عبد الحميد ط . دار المعرفة – لبنان .

٤٣ – **ابن مماتى (الأسعد)** كتاب قوانين الدواوين – ط . القاهرة ١٢٩٩ هـ

٤٤ – **ابن نباته المصرى (جمال الدين)** : سرج العيون فى شرح رسالة ابن زيدون . ت محمد أبو الفضل – صيدا – ١٩٨٦ .

٤٥ – **ابن النديم** – الفهرست – صياغة حديثة د . ناهد عباس عثمان – ط دار قطرى بن الفجاءة – الطبعة الأولى – ١٩٨٥ .

٤٦ – **النمرى القرطبى** – بهجة المجالس وأنس الجالس وشحذ الذاهن والهاجس . ت : محمد موسى الخولى – ط . الدار المصرية .

٤٧ – **النواجى** (شمس الدين محمد بن حسن) . مقدمة فىصناعة النظم والنثر ت . محمد عبد الكريم – ط . دار مكتبة البان – بيروت .

٤٨ – **النويرى** : (نهاية الأرب فى فنون الأدب – ط . دار الكتب المصرية ١٩٢٩ .

٤٩ – **اليافعى** : مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان – ت : عبد الله الجبورى – ط . الرسالة – بيروت – ١٩٨٢ .

٥٠ – **ياقوت الحموى** : معجم الأدباء – ط . دار الفكر – الطبعة الثالثة ١٩٨٠ .

obeikandl.com

« المراجع »

٥١ – **إبراهيم الأحدب الطرابلسى** : كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان . ط . دارالتراث – بيروت .

٥٢ – **إبراهيم سليمان الكروى** : نظام الوزارة فى العصر العباسى – ط . الكويت كاظمة ١٩٨٣ .

٥٣ – **أحمد أمين** : ضحى الإسلام – ط . النهضة المصرية – التاسعة ١٩٧٧ .

٥٤ – **أحمد حسن الزيات** : تاريخ الأدب العربى . الطبعة الرابعة والعشرون .

٥٥ – **أحمد زكى صفوت** : جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة – محمد الحلبى – مصر – ١٩٧١ .

٥٦ – **أحمد الشايب** : الأسلوب . ط . النهضة المصرية – السابعة ١٩٧٦ .

٥٧ – **أحمد فريد رفاعى** – عصر المأمون – دار الكتب المصرية – القاهرة – الرابعة ١٩٢٧ .

٥٨ – **أنيس المقدسى** : تطور الأساليب النثرية – ط . دار العلم للملايين – بيروت . السابعة .

٥٩ – **السيد أحمد الهاشمى** : جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب – مكتبة المعارف – بيروت .

٦٠ – **حسن ابراهيم حسن** . تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى الطبعة السابعة – ط . النهضة المصرية .

٦١ – **زكى مبارك** : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى – ط . المكتبة العصرية – صيدا – بيروت .

٦٢ – **شكرى فيصل** : المجتمعات الإسلامية – الطبعة الرابعة ط دار العلم للملايين . ١٩٧٨ .

٦٣ – **د . شوقى ضيف** : الفن ومذاهبه فى النثر العربى . ط . دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة التاسعة ١٩٨٠ .

٦٤ – د . **شوقى ضيف** : العصر العباسى الأول . ط . دار المعارف الطبعة الثانية – ١٩٨٢ .

٦٥ – **صبحى البستانى** : الصورة الشعرية فى الكتابة الفنية – ط . دار الفكر اللبنانى – بيروت – ١٩٧١

٦٦ – **صلاح الدين خودابخشي** : حضارة الإسلام . ترجمة على حسن الخربوطلى ط . دار الثقافة – بيروت – ١٩٧٦ ..

٦٧ – د . **طه حسين** : تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول . ط . دارالعلم للملايين الثانية – بيروت . ١٩٧٦ .

٦٨ – د . **طه حسين** : فى الأدب الجاهلى – ط . دار المعارف – مصر – ١٩٦٢

٦٩ – د . **عبد الحكيم بلبع** : النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه – مكتبة وهبة – مصر ١٩٧٥ .

٧٠ – د **عبد العزيز الدورى** ، ود . عبد الجبار المطلبى : أخبار الدولة العباسية ، ط . دارالطليعة – بيروت – ١٩٧١ .

٧١ – د .**عبد السلام المسدى** : الأسلوب والأسلوبية – تونس – ط . الدار العربية للكتاب .

٧٢ – **فاروق عمر** : الجذور التاريخية للوزارة العباسية – ط . وزارة الثقافة والإعلام – بغداد – ١٩٨٦ .

٧٣ – **محمد الخضرى** –الدولة العباسية – ت الشيخ محمد العمانى ، ط . دار العلم – بيروت – ١٩٨٦ .

٧٤ – **محمدكرد على** : أمراء البيان – ط . دار الأمانة – بيروت لبنان . الطبعة الثالثة – ١٩٦٩ .

٧٥ – **محمد ماهر حمادة** – دراسة وثائقية للتاريخ الإسلامى ومصادره ، ط . الرياض – الأولى – ١٩٨٨ .

٧٦ – د . **محمد مصطفى هدارة** : المأمون – الخليفة العالم – أعلام العرب – رقم ١٣٣ . ط . الهيئة المصرية – ١٩٨٥ .

٧٧ – د . **محمد نبيه حجاب** – بلاغة الكتاب فى العصر العباسى ، ط .مكة – الثانية – ١٩٨٦ .

٧٨ – د . **مصطفى الشكعة** – الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية – كتاب النثر – دارالكتاب اللبنانى . الثانية ١٩٧٤ .

« الدَّوريَّات »

٧٩ – **إبراهيم السعافين** : اتجاهات البحث الأسلوبى – المجلة العربية للعلوم الإنسانية – العدد ٣١ – ١٩٨٨ .

٨٠ – **بيرجيرو** : مهمات الأسلوبية – الموقف الأدبى – العدد ٢٠٤ نيسان – ١٩٨٨ .

٨١ – **زكى المحاسنى** : أساليب النثر الأدبى – المنهل – ديسمبر ١٩٧٠ .

٨٢ – **زكى المحاسنى** : الأديب والأسلوب – المنال – نوفمبر – ١٩٧٠ .

٨٣ – **سامى الرَّبَّاع** : علم اللغة وعلاقته بعلم الأسلوب – الفيصل العدد ٧٩ نوفمبر ١٩٨٣ .

٨٤ – **سمير شريف ستيته** : منهج التحليل اللغوى فى النقد الأدبى ، مجلة آداب المستنصرية – العدد ١٦/ ١٩٨٨ .

٨٥ – **عبيد مدنى** : فى اللغة والأسلوب – المنهل – العدد ٧ – أكتوبر ١٩٦٣ .

٨٦ – **عبيد مدنى** : بحث قيِّم فى اللغة والأدب – المنهل – العدد ٤ ، ٥ يوليو ١٩٧٣ .

٨٧ – **د .عبد السلام المسدى** : المقاييس الأسلوبية فى النقد – حوليات الجامعة التونسية – العدد ١٣/ ١٩٧٣ .

٨٨ – **عبد السلام المسدى** : الأسلوبية بين المعارف الموروثة والمعارف المستحدثة – المنهل – العدد ٤٥٩ – يناير ١٩٨٨ .

٨٩ – **عبد السلام المسدى** : محاولات فىالأسلوبية الهيكلية – حوليات الجامعة التونسية – العدد ١٠/ ١٩٧٣ .

٩٠ – **هوجر مونيستس** : الأسلوب والأسلوبية – الفيصل العدد ١٠٩ – أبريل – ١٩٨٦ .

للمؤلف

١ – الصورة الفنية فى شعر دعبل بن على الخزاعى – دار المعارف – ط ٢ / ١٩٨٤ .

٢ – تمثيليات خيال الظل – ط . دار المعارف – ط ٣ / ١٩٩٢ .

٣ – الرؤية الفكرية والتشكيل الجمالى فى شعر السيد الحميرى – ط/دار المعارف / ١٩٨٤ .

٤ – صورة المرأة فى الشعر العباسى – دار المعارف – ط ١/ ١٩٨٣ .

٥ – رسائل ابن أبى الشَّخباء الإخوانية – دار المعارف – ط ٢/ ١٩٩٢ .

٦ – دجلة والسفينة فى الشعر العباسى – دار المعارف – ط ٢/ ١٩٩٣ .

٧ – زُهد المجَّان فىالعصر العباسى – ط . دار المعارف – ط ٢/ ١٩٩٤ .

٨ – بناء القصيدة فى شعر الناشىء الأكبر – دار المعارف – ط ٢/ ١٩٩٤ .

٩ – الحَمَام فى الشعر العربى – ط ١/ دار المعارف – ١٩٩٦ .

١٠ – نثر البيغاء – دار الكتاب الجامعى – الإمارات – ط ١/ ١٩٨٩ . ودار المعارف ط ٢ / ١٩٩٥ .

١١ – الصيد والصقور عند العرب – دار الكتاب الجامعى – الإمارات/ ١٩٩١ .

١٢ – الممحصات فى شعر ابن عبد ربه الأندلسى – دار الثقافة – ١٩٨٧ .

١٣ – عبد المحسن الصورى وشعراء الشام – دار الثقافة – ١٩٨٧ .

١٤ – امرؤ القيس – سلسلة أعلام الأدب – دار الكتاب الجامعى – الإمارات / ١٩٩٣ .

١٥ – طرفة بن العبد – سلسلة أعلام الأدب – دار الكتاب الجامعى – الإمارات ١٩٩٣ .

١٦ – عبد الله بن المقفع وكليلة ودمنة – سلسلة أعلام الأدب – دار الكتاب الجامعى – الإمارات/ ١٩٩٤ .

١٧ – النابغة الذبيانى – سلسلة أعلام الأدب – دار الكتاب الجامعى – الإمارات – ١٩٩٤ .

١٨ – رسائل التفكه والاستطراف فى النثر العربى (تحت الطبع) .

١٩ – ثورة المتنبى فى الشعر العربى (تحت الطبع) .

بحوث ودراسات

١ – ديك الجن حياته من شعره – دورية آداب المنصورة – ١٩٨١

٢ – الذاتية فى شعر يزيد بن مُفرغ الحميرى – دورية تربة دمياط – ١٩٨٢ .

٣ – الاتجاه البدوى فى شعر يزيد بن الطثرية – دورية آداب المنصورة ١٩٨٦ .

٤ – الأثر الحضارى فى شعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى – دورية آداب الإمارات ١٩٨٩ .

٥ – وصف اللؤلؤ فى شعر البحترى – دورية آداب المنصورة – ١٩٩٢ .

٦ – امرأة الطيف فى شعر البحترى – مؤتمر تونس الدولى – ١٩٩٤ .

٧ – مناهج البحث الأدبى فى اتجاهات الشعر العربى (الكتاب التذكارى للمرحوم الدكتور محمد مصطفى هدّارة) ط ونشر الإسكندرية .

٨ –الأسْر والسِّجن فى شعر هُدْبة بن الخشرم العُذرى – دورية كلية الآداب – جامعة المنصورة ١٩٩٠ .

فهرس الكتاب

تصدير : ٥
القسم الأول ٧
١ – أحمد بن يوسف الكاتب ٨
٢ – الكاتب مع الشعراء والشعراء ١٦
٣ – مع المأمون ٢٣
٤ – الكاتب الوزير ٣٠
٥ – مكانة أحمد بن يوسف الأدبية وبعض نثره ٣١
٦ – خاتمة الحياة ٣٥
٧ – التحميدات والديوانيات ٣٧
٨ – الديوانيات ورسائل الخميس ٤٢
القسم الثانى ٧٣
(التوقعات والرسائل) (دراسة فنية) ٧٤
اولا : الحِكم والتوقيعات ٧٧
ثانيا : الكتب والرسائل ٩٣
ثالثا : بعض السمات الفنية لمقطعات أحمد بن يوسف النثرية ١١٣
رابعا : شخصية الكاتب أحمد بن يوسف من نثره ١٢٠
خامسا : جماليات التشكيل الفنى فى نثر أحمد بن يوسف ١٣٣
(ا) الصورة ١٣٣
(ب) موسيقى اللغة ١٣٣
القسم الثالث ١٤٩
آثار أحمد بن يوسف النثرية ، ومصادرها ١٥٠
المصادر والمراجع ١٩٩
للمؤلف ٢٠٦

رقم الإيداع	١٩٩٧/٥٢٦٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5414-2

٩/ ٣/٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandi.com